جواهرلال نهرو

لمحات من تاريخ العَالمْ

(مختارات)

ترجمة

عبد العزيز عتيق

الكتاب: لمحات من تاريخ العَالَمْ (مختارات)

الكاتب: جواهرلال نهرو

ترجمة: عبد العزيز عتيق

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

نهرو، جواهرلال

لمحات من تاريخ العالم (مختارات)/ جواهرلال نهرو، ترجمة: عبد العزيز عتيق
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٤٢ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٤ – ٠٣ – ٦٨٣٧ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٣٥١٢ / ٢٠٢٠

لمحات من تاريخ العَالمْ

(مختارات)

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة المترجم

كتاب "لمحات من تاريخ العالم" ألفه باللغة الانجليزية زعيم العند الكبير جواهر لال نهرو حينما كان سجينا بسبب كفاحه من أجل حرية وطنه واستقلاله.

والكتاب في صورة رسائل وجهها نهرو الى ابنته "أنديرا "، ويبلغ عدد هذه الرسائل ١٩٦ رسالة، وصفحاتها نحو ألف صفحة وقد استغرق تأليفه نحو ثلاث سنوات: من أكتوبر ١٩٣٠، الى أغسطس ١٩٣٣.

والفضل في ظهور هذه الرسائل يرجع الى شقيقته "فيجايا لاكشمي بانديت"، فهي التي رتبتها وأعدتها للطبع عام ١٩٣٤ تحت اسم "لمحات من تاريخ العالم".

وليست قيمة هذا الكتاب النفيس في مضمونه أو المادة التاريخية التي يجدها القارئ بين دفتيه عن الأمم في أدوارها التاريخية.

فمن السهل أن يرجع القارئ الى مراجع تاريخ أي أمة كانت، ويستخرج منها هذه الحقائق التاريخية أو أكثر منها.

انما قيمته عندي هي في الجهد الذي بذله المؤلف في تحري تاريخ الأمم من أوثق المصادر التي تهيأت له في السجن، ثم في ابراز هذا التاريخ في صورة موجزة شاملة لا يكاد ينقصها لون من الألوان المكلمة للصورة.

وعلى سبيل المثال لقد خص نهرو مصر في كتابه هذا بثلاث رسائل هي :

١- احتلال بريطانيا لمصر.

٢- مصر تكافح من أجل حريتها.

٣- معنى الاستقلال تحت الحكم البريطاني.

فالقارئ المصري لهذه الرسائل الثلاث يدرك مدى احاطة نهرو بتاريخ مصر، ومدى فهمه وتتبعه لهذا التاريخ، كأنما هو مصري عاصر أحداث مصر، وشارك فيها، وسجلها تسجيلا أمينا دقيقا.

فاذا أخذنا ما كتبه نهرو عن مصر مقياسا لكل ما كتبه عن سائر الأمم الاخرى عرفنا قيمة هذه اللمحات من حيث هي تاريخ.

ولهذه اللمحات التاريخية قيمة أخرى ترجع الى طريقة المعالجة التي استخدمها المؤلف. فعرض تاريخ الأمم في صورة رسائل شخصية من شأنه أن يبث في الحقائق التاريخية روحا وحياة، ويحيل التاريخ الى قصص شائقة في صورة رسائل، أو الى رسائل شائقة في صورة قصص. ولا أعرف مؤرخا سبق نهرو الى مثل هذا النسق المبتكر في عرض التاريخ واحيائه.

وهناك قيمة ثالثة لهذا الكتاب تتجلى في آراء نهرو وتعليقاته الخاصة على الأحداث التاريخية، والتي لا تكاد تخلو رسالة منها. فهذه الآراء الصادرة عن شخصية انسانية عالمية كشخصية نهرو جديرة بأن يقف القارئ أمامها ويتدبر مراميها.

ومما يزيد من قيمة هذه الآراء المبعوثة في ثنايا الرسائل انها لا تزال آراء سديدة صائبة، على الرغم من مرور نحو ربع قرن على كتابتها، وعلى الرغم مما طرأ خلال هذه الفترة من تقلبات وتطورات عالمية.

وهذا يدل بلا شك على ذكاء نهرو وتجربته، وسعة أفقه ومدى علمه، وعمق فكره ووضوحه، وقوة منطقه، وحسن فهمه للأحداث التاريخية والظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بمقدماتها ونتائجها.

وعلى الاجمال ان آراء نهرو في اللمحات وموقفه الخاص من أحداث التاريخ وتقلبات الدول والحضارات ليدل، فيما يدل، على واقعية الرجل وانسانيته، وصدق فراسته وأحكامه، وعلى أنه مؤرخ سابق لعصِره.

ويحدثنا كريشنا مينون في مقدمته لهذا الكتاب عن نهرو فيقول: "ان بانديت نهرو من الشخصيات النادرة في الحياة العامة التي تجمع بين النشاط الشديد الدائب، وبين الالهام، واستقلال الحكم".

ويحدثنا عن كتابة نهرو فيقول: "تغلب على كتابة نهرو التجربة والمعرفة، والعمق والالمام الشامل".

ثم يحدثنا أخيرا عن كتابه هذا فيقول: "ليس كتاب" لمحات من تاريخ العالم" مجرد سرد لحوادث التاريخ. وانما هو أيضا انعكاس لشخصية المؤلف، وذكائه النادر، وعقله اللماح، مما يجعل التاريخ عملا فذا في ذاته. ويمتاز بالبساطة ووضوح الطريق، ومعالجته خالية من السطحية. وهو يظهر مؤلفه كمؤرخ كبير عرض لنا التاريخ وفسره تفسيرا صحيحا في صدق وبعد نظر".

وبعد، فالكتاب الذي أقدمه اليوم للقراء هو مختارات من كتاب "لمحات من تاريخ العالم". وأود أن أنبه الى أن بالكتاب رسائل كثيرة من مصر والعالم العربي، وهذه لم أحاول ترجمتها، لأن مضمونها التاريخي معروف لكل قارئ عربي.

وانما ركزت اختياري على رسائل خاصة لما تفتحه من آفاق، وتلقيه من أضواء على جوانب هامة من التاريخ جدير بالقارئ العربي أن يراها ويتبينها، ويلم بآراء نهرو فيها.

وقد وضعت أمام عنوان كل رسالة رقمها في الأصل الانجليزي تسهيلا لمن شاء أن يرجع الى الرسالة في الأصل. كذلك يجد القارئ في آخر الكتاب خمس خرائط متصلة ببعض الرسائل المختارة هنا، ووردت في الأصل الانجليزي.

وعسى أن يجد القارئ في هذه الرسائل المختارة من المتعة الروحية والعقلية مثل ما وجدت أنا في قراءتها وفي ترجمتها..

عبد العزيز عتيق

يناير ١٩٥٨

مقدمة المؤلف

لا أعرف متى وأين تنشر هذه الرسائل، بل لا أعرف مطلقا ان كان سيقدر لها أن تنشر. فالهند اليوم قطر غريب، ومن الصعب أن يتبأ المرء. ولكني أنتهز هذه الفرصة السانحة فأكتب هذه الأسطر قبل أن تستبد بي الحوادث.

وبالنسبة لهذه الرسائل التاريخية أراني بحاجة الى ايضاح واعتذر. وربما وجد القارئ والايضاح والاعتذار في ثنايا الرسائل، وبخاصة الرسالة الأخيرة.

فقلما كان لدى في البدء خطة بشأن هذه الرسائل، وما كان يدور بخاطري أنها ستكبر وتتضخم الى هذا الحد.

فمنذ ست سنوات تقريبا، عندما كانت ابنتي في العاشرة من عمرها، كتبت لها عددا من الرسائل تضمنت وصفا موجزا بسيطا عن العالم القديم.

وقد نشرت هذه الرسائل في كتاب مستقل، واستقبلها القراء استقبالا كريما. ثم قامت بنفسي فكرة الاستمرار في كتابة هذه الرسائل.

ولكن حياتي الحافلة بالنشاط السياسي، ظلت تحول دون ظهور هذه الفكرة الى حيز الوجود، حتى هيأ لي السجن الفرصة فانتهزتها..

وحياة السجن لها مزاياها. فهي تمد السجين بوقت الفراغ، وبدرجة من العزلة والانقطاع عن العالم الخارجي.

ولكن للسجن عيوبه الواضحة أيضًا.. فليس فيه مكتبات، ولا يستطيع أن يجد فيه السجن الذي يريد أن يتوفر على عمل علمي ما يشاء من كتب المراجع العلمية.

لقد وصلت الى بعض الكتب في السجن، ولكن هذه ما كان يمكن الاحتفاظ بها طويلا.

ومنذ اثنتي عشرة سنة بدأ يزج بي في السجن مع كثيرين غيري من المواطنين والمواطنات. وما كنت أخرج من السجن الا لأعود اليه.

وقد اعتدت خلال هذه السنوات أن أدون ملاحظات عن الكتب التي كنت أقرؤها. وعلى مر الأيام والسنين كثرت كراسات ملاحظاتي، وهذه أسعفتني عندما شرعت في الكتابة.

ولم أقتصر طبعا فيما كتبت على كراسات ملاحظاتي، وانما استعنت بكتب أخرى كثيرة مثل كتاب "مجمل التاريخ" للكاتب هـ. ج. ويلز.

ولكن الحاجة الى كتب المراجع القيمة كانت حقيقة واقعة، ولهذا فكثيرا ما كان عرضي للتاريخ غامضا، كما كان تعرضي لبعض فترات تاريخية خاصة تعرضا سريعا خاطفا.

وهذه الرسائل هي رسائل شخصية، تشيع فيها اشارات خاصة

عنيت بها ابنتي فقط. ولست أدري ماذا أفعل مع هذه الاشارات، ومحالة حذفها بدون جهد كبير ليس أمرا سهلا؟

ان حياة السكون وعدم العمل والحركة الجثمانية من شأنها أن تؤدي بالمرء الى التمعن في أطواء النفس والعقل، والى مشاعر وأحساسيس متغيرة، وهذه المشاعر والأحاسيس المتغيرة واضحة في ثنايا هذه الرسائل. وفي الوقت نفسه ان طريقة المعالجة التي استخدمتها ليست هي الطريقة الموضوعية الجديرة بالمؤرخ.

ولست أزعم أني مؤرخ، فهذه الرسائل يشيع فيها مزيج من الكتابة التي لا تصلح لغير الشباب، ومن مناقشة لأفكار الكبار أحيانًا، ومن تكرار في كثير من المواضع، ومن نبذ نغير عميقة انتظم بعضها الى بعض بخيط رفيع. وعلى الاجمال ان ما في الرسائل من قصور وأخطاء أكثر من أن يحصى.

لقد استعرت حقائقي وأفكاري التاريخية من كتب غريبة، ولهذا فمن المحتمل أن يكون قد تسرب بعض ما في هذه الكتب من أخطاء الى الرسائل.

وكان في نبتي أن يتولى تنقيح هذه الرسائل عني مؤرخ قديم، ولكني لم أتمكن من تحقيق ذلك خلال الفترات القصيرة التي كنت فيها خارج السجن.

وكثيرا ما عبرت عن آرائي في هذه الرسائل بطريقة أقرب الى الهجوم، ومع ذلك فأنا لا أزال أتمسك بهذه الآراء. ولكن نظرتي للتاريخ

قد تغيرت تدريجيا حتى أثناء كتابة هذه الرسائل.

واذا قدر لي اليوم أن أعيد كتابة هذه الأفكار فاني قد أكتبها كتابة مختلف. ولكني لا أستطيع أن أمزق ما كتبت، وأعيد كتابته من جديد.

جواهر لال نهرو

أول يناير ١٩٣٤

آسيا وأوربا

٨ يناير ١٩٣١

كل شئ يتغير تغيرا مستمرا. وهل التاريخ في حقيقته الا سجل للتغير؟ ولو كانت التغيرات التي حدثت في الماضي قليلة جدا، لكان ما دون التاريخ لا يعدو نزرا ضئيلا.

التاريخ الذي نتعلمه عادة في المدارس والجامعات ليس بالقدر الكافي. وأنا لا أعرف كثيرا جدا عما تعلمه الآخرون، أما عن نفسي فأعرف أني تعلمت قليلا في المدرسة.

لقد تعلمت قليلا... قليلا جدا من تاريخ الهند وتاريخ انجلتزا. وحتى تاريخ الهند الذي تعلمته كان الى حد كبير مغلوطا ومشوها ومكتوبا بأقلام رجال نظروا الى وطننا نظرة احتقار وازدراء.

هذا مبلغ علمي بتاريخ وطننا، أما عن تاريخ الأمم الأخرى فليس لدي عنه صورة واضحة. ولم يتح لي أن أقرأ بعض التاريخ الحقيقي الا بعد أن غادرت الجامعة. ولحسن الحظ ان دخولي السجن المرة بعد المرة قد أعطاني فرصة للاستزادة من المعرفة.

لقد كتبت اليك في بعض رسائلي السابقة عن حضارة الهند القديمة، عن الدرافيديين ومجئ الآريين. واذا كنت لم أكتب اليك كثيرا

عن العصور التي سبقت عصر الدرافيديين فذلك لأني لا أعرف الكثير عن هذه العصور. ولكن سيشوقك أن تعرفي أن آثار حضارة قديمة في الهند قد اكتشفت خلال السنوات القليلة الماضية.

هذه الآثار قد اكتشفت في شمالي غرب الهند بالقرب من مكان يسمى "موهين جودارو". لقد نقب علماء الآثار عن هذه الآثار التي يرجع تاريخها الى خمسة آلاف سنة، وقد عثروا أثناء تنقيبهم على مومياء أشبه بمومياء مصر القديمة. تخيلي! كل هذا كان منذ آلاف السنين وقبل مجئ الآريين الى الهند بزمن طويل. لا بد أن أوربا كانت وقتذاك غابات وكهوفا.

ولكن أوربا اليوم قوية، وأهلها يعتبرون أنفسهم أكثر شعوب الأرض مدنية وثقافة. وهم يتظرون الى آسيا وأهلها نظرة احتقار. وهم اذ يأتون اليها فانما ليخطفوا كل ما يستطيعون الاستيلاء عليه من الشعوب الآسيوية، فما أعجب ما تغيرت الأيام والأحوال!

والآن دعينا ننظر نظرة فاحصة الى أوربا وآسيا. ولنحقق ذلك افتحي أي أطلس وانظري الى قارة أوربا الصغيرة الملتحمة بالقارة الآسيوية الكبيرة، وكأنها امتداد قليل لها.

واذا طالعت التاريخ فسوف تجدين أن آسيا كانت سائدة متغلبة خلال عصور طويلة، وأن أهلها رحلوا الى أوربا أفواجا اثر أفواج وقهروها. فالآريون، والسيثيون وقبائل الهون، والعرب، والمغول، والأتراك، رحلوا كلهم من أماكن مختلفة في آسيا وانتشروا في آسيا وأوربا. ويبدو أن

آسيا كانت تنسل هؤلاء الناس وتلدهم في كثرة كأرجال الجراد. وفي الحقيقة ظلت أوربا طويلا كمستعمرة لآسيا، وكثيرون من أبناء أوربا الحديثة يرجعون في أصلهم الى أولئك الغزاة الآسيويين.

وآسيا تمتد على الخريطة كعملاق ضخم كبير. وأوربا تبدو بجانبها ضئيلة. ولكن هذا لا يعني، بطبيعة الحال، أن أهمية آسيا ترجع الى حجمها، أو أن أوربا أقل أهمية وشأنا منها. فالحجم هو آخر مقياس تقاس به عظمة أي رجل أو أي قطر.

ونحن نعرف جيدا أن أوربا اليوم عظيمة وان كانت أصغر القارات. كذلك نعرف أن كثيرا من أقطارها تمتعت بفترات مشرقة من التاريخ، وأنجبت علماء استطاعوا بفضل اكتشافاتهم واختراعاتهم أن يخطوا بالحضارة الانسانية خطوات فساحا، وأن ييسروا الحياة ويسهلوها لملايين البشر. ولم تنجب هذه الاقطار علماء فقط وانما أنجبت أيضا كتابا ومفكرين وفنانين وموسيقيين وقادة. ولهذا يكون من الحماقة الا نعترف بعظمة أوربا.

ومن الحماقة أيضا أننسى عظمة آسيا. ولاحتمال أن نخدع قليلا بتألق أوربا وننسى الماضي، دعينا نذكر أن آسيا أنجبت قادة الفكر الذين أثروا في العالم أكثر من أي شخص وأي شئ في أي مكان آخر. هؤلاء القادة هم المؤسسون الكبار للأديان الرئيسية. فالهندوكية التي تعتبر أقدم الديانات الكبرى الموجودة حتى اليوم ولدت في الهند. ومثلها أيضا

البوذية التي هي صنو الهندوكية والتي تنتشر في الصين واليابان وبورما والتبت وسيلان. واليهودية والمسيحية دياناتان آسيويتان مهدهما فلسطين على شاطئ آسيا الغربي. والزرادشتية ديانة الفرس بدأت في ايران. ومحمد نبي الاسلام – كما تعرفين – ولد بمكة في شبه جزيرة العرب. وانك لتستطيعين أن تملئي صفحات بأسماء كبار مفكري آسيا من أمثال كريشنا وبوذا، وزرادشت والمسيح عيسى ومحمد، وكنفشيوس ولوتسي فيلسوفي الصين الكبيرين. وتستطيعين أيضا أن تملئي صفحات بأسماء القادة والزعماء والقواد. وأستطيع أن أريك بوسائل شتى مقدار عظمة وحيوية قارتنا القديمة في العصور الغابرة.

فما أشد ما تغيرت العصور وتقلبت الأحوال! ولكنها تتغير ثانية حتى أمام أعيننا. فالتاريخ يعمل عادة ببطء خلال الأجيال والعصور وان كانت هناك فترات اندفاعات وانفجارات.

ومهما يكن من أمر فالتاريخ اليوم يتحرك بسرعة في آسيا، والقارة القديمة قد بدأت تستيقظ بعد نعساها الطويل. ان أعين العالم تتطلع اليها الآن لأن كل شخص يعرف أن أسيا سوف تلعب دورا كبيرا في المستقبل.

٨- امبراطوريات غرب آسيا

١٣ يناير سنة ١٩٣١

لقد أسعدني أن أراكم جميعا أمس. ولكني صدمت عندما رأيت جدك هزيلا مريضا. ورجائي أن تعني به عناية تامة حتى يستعيد صحته وقوته مرة أخرى.

وأمس لم أستطع أثناء زيارتكم أن أتحدث اليك، وماذا يستطيع انسان أن يفعل في زيارة قصيرة كهذه ؟

على أني سأحاول أن أعوض كل الزيارات والأحاديث التي نتمناها ولم تتحق بكتابة هذه الرسائل اليك. ولكن هيهات أن تكون هذه الرسائل عوضا أو بديلا عن اجتماعاتنا وأحاديثنا، فالتصنع أو خداع النفس لا يستمر طويلا، وان كان نافعا أحيانا!

والآن دعينا نعود الى القدماء. لقد وقفنا في أحاديثنا منذ عهد قريب عند قدماء الاغريق. فما كانت حقيقة الأقطار الأخرى التي تعاصر الاغريق القدماء؟

لسنا في حاجة الى أن نشق على أنفسنا كثيرا بالحديث عن أقطار أوربا الأخرى. فنحن لا نعرف أو، على الأقل، أنا لا أعرف شيئا ذا بال عن هذه الأقطار.

فمن المحتمل أن مناخ أوربا الشمالية قد تغير، وأن أحوالا جديدة قد تولدت عن هذا التغير. ولعلك تذكرين أن مناخ أوربا الشمالية وآسيا الشمالية كان باردا جدا في العصر الجليدي الذي امتدت فيه أنهار الجليد الضخمة الى أوربا الوسطى. ومن المحتمل أن الانسان لم يوجد في ذاك العصر، ولو افترضنا وجوده فيه فلا بد أنه كان أقرب الى الحيوان منه الى الانسان.

وقد تسألين في عجب كيف نستطيع الآن أن نقول انه كان هناك أنهار من الجليد في تلك الأيام. لا يمكن بطبيعة الحال أن يكون هناك سجل بذلك في الكتب، اذ لم يكن في العصر الجليدي كتب ولا مؤلفو كتب. ولكني أرجو أنك لم تنسي بعد كتاب الطبيعة. فللطبيعة طريقتها الخاصة في كتابة تاريخها على صخورها وأحجارها. ومن الممكن لكل طالب أن يقرأ تاريخها حيث دونته، فهو أشبه بترجمة الانسان لحياة نفسه. ولأنهار الجليد طريقة تترك بها علامات خاصة تدل على وجودها. وقلما تخطئين هذه العلامات بعد تبينها لأول مرة.

فاذا أردت دراسة هذه العلامات فما عليك الا أن تذهبي الى أحد أنهارنا الجليدية في جبال الهملايا أو جبال الألب أو أي جبال أخرى. لقد رأيت بنفسك أنهار الجليد حول "مون بلان" في جبال الألب، ولكن من المحتمل أن أحدا لم يلفت نظرك وقتذاك الى هذه العلامات الخاصة.

وهناك عدد كبير من أنهار الجليد هذه في كشمير وفي أجزاء أخرى

من جبال الهملايا، وأقربها الينا نهر بنداري الجليدي الذي على مسيرة أسبوع من ألمورا. لقد زرت هذا المكان مرة وأنا في سن أصغر من سنك الآن، ولا تزال صورته حتى اليوم عالقة بذهني.

وبدل الحديث عن التاريخ والماضي وأرى التيار قد جرفني للحديث عن أنهار الجليج وبنداري، ومبعث ذلك هو الاسترسال في لعبة خداع النفس! فأنا أريد – اذا أمكن – أن أتحدث اليك كما لو كنت هنا معي. فاذا أمكن هذا كان علينا حقا أن نقوم من وقت الى آخر برحلات قصيرة الى أنهار الجليد وما أشبهها.

ان الحديث قد تطرق بنا الى أنهار الجليد بسبب اشارتي الى العصر الجليدي. ومن الممكن القول بأن هذه الأنهار قد امتدت الى أوربا الوسطى وانجلترا، لأننا ما زلنا نستطيع أن نجد في هذه الأقطار العلامات الخاصة التي تتسم بها أنهار الجليد.

وهذه العلامات توجد على الصخور القديمة، وهذا من شأنه أن يجعلنا نظن بأن المناخ لا بد أنه كان وقتئذ بارد جدا في أوربا الوسطى وأوربا الشمالية. ثم صار المناخ فيما بعد أدفأ، وتبعا لذلك تقلصت وانكمشت أنهار الجليد تدريجيا.

ويحدثنا الجيولوجيون أو علماء تاريخ طبقات الأرض أن موجة البرد هذه تلتها موجة دفء أدفأ مما هي عليه الآن في أوربا، ونتيجة لهذا الدفء نمت غابات كثيفة في أوربا.

وقد وصل الآريون في جولانهم وارتحالهم الى أوربا الوسطى أيضا، ولما كانوا لم يخلفوا هناك شيئا يستحق الذكر في هذه الفترة فاننا نستطيع مؤقتا أن نغفلهم ونسقطهم من حسابنا. وربما نظر المتمدنون من الاغريق وأبناء البحر الأبيض المتوسط الى سكان أوربا الوسطى وأوربا الشمالية على أنهم برابرة. ولكن هؤلاء "البرابرة" كانوا يحيون في غاباتهم وقراهم حياة أقرب الى الحرب منها الى السلم، ومما لا ريب فيه أنهم كانوا يعدون أنفسهم لليوم الذي ينقضون فيه ببطء على حكومات شعوب الجنوب الأكثر تمدنا.

وقد حدث هذا بعد ذاك بوقت طويل، ومن ثم فلسنا في حاجة الى تعجل الحوادث.

واذا جاز أننا نعرف قليلا عن أوربا الشمالية فاننا لا نعرف شيئا مطلقا عن قارات وأصقاع كبيرة. فأمريكا يرجع فضل اكتشافها الى كولومبوس، ولكن ذلك لا يعني أنه لم يعش فيها قوم متمدنون قبل أن يذهب كولومبوس اليها. ومهما يكن من أمر فاننا لا نعرف أي شئ عن أمريكا في تلك العصور القديمة التي نتحدث عنها، كما لا نعرف أي شئ أيضا عن قارة أفريقية، هذا اذا استثنينا شاطئها المطل على البحر الأبيض المتوسط، واذا استثنينا مصر. ومن المحتمل أن حضارة مصر القديمة العريقة كانت آنئذ في طريقها الى الزوال، ولكن على الرغم من ذلك فانها كانت في هذه الفترة من الزمن أمة متقدمة جدا.

والآن دعينا ننتقل الى قارة آسيا ونرى حالتها في الفترة التي نتحدث عنها. ففي آسيا –كما تعرفين –كان هناك ثلاثة مراكز للحضارة القديمة، هي الهند، والصين، وما بين النهرين.

أما عن الحضارة ما بين النهرين – دجلة والفرات – وفارس وآسيا الصغرى في هذه العصور القديمة فتتمثل في امبراطوريات متعاقبة، فامبراطورية تزول وتفسح الطريق لأخرى جديدة تقوم على انقاضها، فهناك كانت الامبراطورية الآشورية، والامبراطورية الميدية، والامبراطورية البابلية، وأخيرا الامبراطورية الفارسية.

ولسنا في حاجة الى أن نفصل كيف حاربت هذه الامبراطوريات بعضها بعضا، أو كيف عاشت جنبا الى جنب في سلام لمدة ما، أو كيف قضى بعضها على البعض الآخر.

ولا شك أنك تلاحظين الفرق بين دول المدن الاغريقية وامبراطوريات غرب آسيا. ويبدو أنه كان هناك منذ العصور الأولى رغبة قوية في تكوين دولة كبرى أو امبراطورية في هذه الأقطار. وقد تعزي هذه الرغبة الى ما كانوا عليه من حضارة قديمة أو الى أسباب أخرى.

وهناك اسم واحد قد يهمك، ذلك هو اسم "كروسوس" – قارون– الذي لا بد أنك سمعت به. فصاحب هذا الاسم يضرب به المثل في اللغة الانجليزيو على كثرة الغنى وسعة الثراء. وربنا تكونين قد قرأت قصصا عن كروسوس هذا تبين مدى غناه وابائه في موضع الاباء وتواضعه في موضع التواضع.

لقد كان كروسوس ملك "ليديا" على شاطئ آسيا الغربي حيث آسيا الصغرى الآن. ولا بد أن حركة التجارة في بلاده كانت نشطة رائجة لمتاخمتها لشاطئ البحر الأبيض.

وفي عصر هذا الملك كانت الامبراطورية الفارسية في عهد "قورش" آخذه في النمو والقوة. وقد نشبت الحرب بين كروسوس وقورش وهزم قورش كروسوس. وقد روي لنا هيرودوت المؤرخ الاغريقي قصة هذه الهزيمة وكيف أن الحكمة والعقل لم يتخليا عن كروسوس الأبي في أوقات محنته وبؤسه.

وقد كون "قورش" امبراطورية كبيرة من المحتمل أنها امتدت الى الهند شرقا، ولكن أحد خلفائه "دارا" كون امبراطورية أكبر ضمت مصر وبعض آسيا الصغرى وجزءا من الهند بالقرب من نهر السند. ويقال ان كمية كبيرة من تبر الذهب كانت ترسل اليه كجزية من هذه المقاطعة الهندية التابعة له. ولا بد أنه كان يوجد في ذاك العصر كميات من تبر الذهب على مقربة من نهر السند. أما اليوم فلا يوجد شئ منه هناك، واستحال معظم الأرض التي كان يستخرج منها هذا المعدن الى صحراء، وهذا أمر يدل على احتمال تغير المناخ.

ولما كنت ستقرئين التاريخ وتفكرين في أحوال الماضي وتقارنيها بأحوال الحاضر فان ما سيسترعي اهتمامك أكثر من غيره هو التغير الذي حدث في آسيا الوسطى، فمن هذا المكان نسلت قبائل لا تعد ولا

تحصى، ارتحل منها من ارتحلوا وانتشروا في قارات بعيدة. وفي هذا المكان نشأت في الماضي مدن كبيرة قوية غنية. مدن يمكن مقارنتها من حيث تعداد سكانها بعواصم أوربا الكبرى اليوم، وكانت من حيث مساحتها أكبر من مدن مثل كلكتا وبومباي في وقتنا الحاضر.

وكانت هذه المدن تتمتع بالحدائق وبالخضرة تطيف بها من كل مكان، وكان مناخها طيبا معتدلا، فلا هو بالحار جدا ولا البارد جدا.

هكذا كانت آسيا الوسطى في تلك العصور. أما اليوم ولمئات من السنين خلت فهي أرض قاحلة عقيم تكاد تكون صحراء، وبعض مدنها الكبيرة التي ازدهرت في الماضي لا تزال قائمة مثل مدينة سمرقند ومدينة بخاري مما يحي مجرد ذكر اسمائها في أذهاننا فيضا زاخرا من الذكريات. ولكن ما بقي منها الى اليوم لا يعدو أشباح المدن التي كانت حينا حية نابضة بكل مظاهر الحياة.

وبعد فمرة أخرى أشعر بأني أتعجل حوادث التاريخ. فنحن في هذه المرحلة نستقرئ صحائف التاريخ القديم حيث لم تكن سمرقند ولا بخاري قد ظهرتا الى عالم الوجود، فتاريخ عصرهما لم يحن حين دراستنا له بعد. ان نقاب المستقبل قد حجبه وأخفاه، ولا يزال أمامنا أشواط في دراسة تاريخ حضارة آسيا الوسطى من حيث عظمتها وانحلالها وزوالها.

١٧- فاتح عظيم ولكنه شاب مغرور

٢٤ يناير سنة ١٩٣١

في رسالتي الأخيرة، وفي بعض الرسائل السابقة، أشرت بعض اشارات الى الاسكندر الأكبر. وأظن أني قلت في احدى هذه الاشارات انه اغريقي.

ذلك القول لا يدنو تماما من الصواب، لأن الاسكندر في الحقيقة مقدوني الأصل، أي أنه ينتسب الى بلاد مقدونيا التي تقع في شمال اليونان.

والمقدونيون يشبهون الاغريق من أوجه كثيرة، ويمكنك أن تسميهم أبناء عمومتهم أو خئولتهم.

وكان فيليب أبو الاسكندر ملك مقودنيا، ملكا قديرا، استطاع أن يجعل من مملكته الصغيرة مملكة قوية، وأن ينشئ جيشا ذا كفاية.

والاسكندر يسمى بـ "الأكبر" وله شهرة عالية جدا في التاريخ ولكن الفضل في معظم ما نجح فيه من فتوحات وانتصارات، انما يرجع الى مجهود أبيه فيليب من قبله.

وعظمة الاسكندر، أو عدم عظمته، هي في الحقيقة أمر مشكوك فيه. واذا قسته بمقياسي للبطولة فهو بالتأكيد ليس بطلا من أبطالي.

ولكنه استطاع في زمن قصير أن يطبع اسمه على قارتين، كما أنه في آسيا الوسطى باسم "اسكندر". ومهما يكن من أمره فقد نجح التاريخ في أن يلقي على أسمه لألاء وبريقا. وقد سميت عشرات المدن باسمه، وكثير منها لا يزال موجودا الى اليوم، وأكبرها مدينة الاسكندرية في مصر.

وعندما تولى الاسكندر الملك كان يبلغ من العمر عشرين سنة. وكشاب يملؤه الطموح الى تحقيق العظمة، كان تواقا الى أن يزحف بالجيش القوي الذي أنشأه له والده الى الفرس عدو بلاده القديم.

أما الاغريق فلم يحبوا فيليب، ولا ابنه الاسكندر، ولكنهم كانوا يخشون قوتهما، ومن ثم اعترفوا بكليهما واحدا بعد الآخر قائدا عاما لكل القوات الاغريقية التي كانت تعد لغزو الفرس. وهكذا أظهروا الولاء والطاعة للقوة الجديدة التي كانت في طريقها الى الظهور.

وقد ثارت ضد الاسكندر مدينة اغريقية واحدة هي مدينة "طيبة" ولكنه ضربها ضربة قاضية بفظاعة وقسوة شنيعتين. لقد خرب هذه المدينة العظيمة، وهدم مبانيها، وقتل كثيرا من رجالها ونسائها وأطفالها، وباع آلافا من أهلها عبيدا. وبهذا العمل البربري أدخل الرعب والفزع على قلوب الاغريق. ولكن هذا وأمثاله من أعمال البربرية التي تخللت حياته لا تنال اعجابنا، وانما تثير فينا التقزز والاشمئزاز.

لقد هزم الاسكندر دارا الثالث ملك الفرس وخليفة "أردشير" **Xerxes**، ثم فتح مصر التي كانت وقتئذ تحت حكم الفرس. ثم زحف

الاسكندر ثانية نحو الفرس وهزم دارا الثالث الذي كان يسمى بـ "ملك الملوك" وهدم قصره انتقاما لحرق أردشير لمدينة أثينا.

وهناك في اللغة الفارسية كتاب قديم في تاريخ ملوك الفرس اسمه "الشهنامة" كتبه منذ ألف سنة الفردوسي الشاعر الفارسي. وهذا الكتاب يصف في صور خلابة جدا المعارك الحربية التي نشبت بين الاسكندر ودارا. فهو يحدثنا أن دارا، عندما هزم، طلب المساعدة من الهند، وذلك بأن "أرسل رجلا على جمل في سرعة الريح" الى "فور" أو "بوروس" الذي كان ملكا على شمال غرب الهند، ولكن بوروس لم يستطع مساعدته مطلقا، لأنه هو نفسه كان مترقبا غزو الاسكندر له من وقت الى آخر. ومما يهم أننا نجد في شهنامة الفردوسي اشارات عديدة الى أن ملوك الفرس ونبلاءها كانوا يستعملون الخناجر والسيوف الهندية. وهذا يدل على أن الهند كانت حتى في عصر الاسكندر تصنع من الفولاذ سيوفا ممتازة يرحب بها في البلاد الأجنبية.

ومن بلاد الفرس، أخذ الاسكندر يجول ويتنقل بجيشه مارا بـ "هرات" **Herat** وكابول وسمرقند حتى بلغ وديان نهر السند العليا، حيث قابل أول حاكم هندي قاومه. ويطبق مؤرخو الاغريق في لغتهم اليونانية على هذا الحاكم الهندي اسم "بوروس" **Porus** ولا بد أن اسمه الحقيقي كان شبيها بهذا الاسم ولكننا لا نعرفه.

ويقال ان بوروس قاتل قتالا باسلا مستميتا لدرجة أنه لم يكن من

السهل على الاسكندر أن يتغلب عليه. ويقال ان بوروس كان بطلا شهما مديد القامة جدا، وان الاسكندر أعجب غاية الاعجاب بشجاعته وشهامته، حتى لقد تركه بعد أن هزمه حاكما على مملكته. ولكنه أصبح بعد أن كان الملك بوروس، من حكام الاغريق.

لقد دخل الاسكندر الهند عن طريق ممر خيبر في شمال غرب الهند، فمدينة تاكسيلا **Taxila** شمالي "روالبندي" **Rawalpindi** ويمكنك أن ترى آثار هذه المدينة القديمة وأطلالها الباقية حتى اليوم.

ويبدو أن الاسكندر قد فكر، بعد أن هزم الملك بوروس، في التقدم الى الجنوب نحو نهر الكينج **Ganges** ولكنه لم يفعل ذلك وعاد عن طريق وادي نهر السند.

وانه لأمر ذو بال أن نفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو أن الاسكندر تابع زحفه وتقدمه الى قلب الهندستان. أكان يمكن أن يستمر منصرا؟ أم كانت الجيوش الهندية تغلبت عليه؟ ان ملكا على الحدود مثل بوروس قد سبب له عند اصطدامه به متاعب جمة، ولهذا فقد كان من الممكن للممالك الكبرى في الهند الوسطى أن تصد بما لديها من قوة غزو الاسكندر وتقف تقدمه وزحفه.

ولكن مهما يكن من أمر رغبة الاسكندر أو عدم رغبته في متابعة الزحف، فان جنوده قد قرروا نيابة عنه فيما بينهم ما يجب أن يكون. لقد أتعبتهم وأنهكتهم سنوات طوال من الحرب والقتال والانتقال من مكان

الى مكان. وربما أثر فيهم ما شاهدوه من صفات القتال العالية لدى الجنود الهنود فلم يرغبوا في أن يجازفوا بالاشتباك معهم خشية الهزيمة.

ومهما يكن السبب فان الجيش أصر على العودة ولم يملك الاسكندر ازاء هذا الاصرار الا أن يوافقهم ويرضخ لمشيئتهم. ولم تكن رحلة العودة رحلة سهلة، بل على العكس كانت كارثة قاسي فيها الجيش ما قاسي من قلة الزاد والماء. ولم يمهل القدر الاسكندر طويلا بعد ذلك فمات عام ٣٢٣ قبل الميلاد في بابل **Babylon** على نهر الفرات.

وهكذا لم يقدر له ثانية أن يرى مقدونيا وطنه بعد أن خرج منها الى الحرب الفارسية.

وقد مات الاسكندر في الثالثة والثلاثين من عمره، فماذا فعل هذا الرجل "العظيم" خلال حكمه القصير؟ لقد كسب بعض المعارك الحربية العجيبة، وكان بلا شك قائدا محنكا، ولكنه كان في الوقت ذاته مغرورا معجبا بنفسه، وأحيانا كان قاسي القلب عنيفا. وقد بلغ به غرور النفس أنه كاد أن يعتبر نفسه الها! وفي نوبات الغضب أو نزوات الخبال العابرة قتل بعض خيرة أصدقائه ودمر مدنا كبيرة بمن فيها وما فيها. انه لم يخلف وراءه في امبراطوريته أثرا باقيا حتى الطرق التي بناها. لقد تلألأ ثم خبا كشهاب في السماء، ولم يترك بعده شيئا من نفسه الا ذكرى.

وبعد موته نشب الصراع والتنافس بين أعضاء أسرته وقاتلوا بعضهم بعضا، وتمزقت امبراطوريته الشاسعة الأطراف اربا اربا.

والاسكندر يسمى فاتح العالم، ويقال انه جلس ذات مرة وبكى لأنه لم تكن هناك أقطار أخرى باقية ليفتحها! ولكن الهند – الا بعض شمالها الغربي – كانت لا تزال أمامه لم يقهرها ولم يفتحها، والصين كانت وقتئذ دولة كبيرة فلم يتجه اليها الاسكندر أو يقترب منها.

وبموته تقاسم قواده امبراطوريته، فوقعت مصر من نصيب بطليموس الذي أقام فيها حكومة قوية وأسس فيها دولة البطالسة، وفي عهد هذه الحكومة التي اتخذت من الاسكندرية عاصمة لها كانت مصر قوية، وأصبحت الاسكندرية مدينة كبيرة تتمتع بمركز شهير في العلم والفلسفة والثقافة.

أما الفرس وما بين النهرين (دجلة والفرات) وجزء من آسيا الصغرى فكانت من نصيب قائد آخر يسمى "سيليوكس" **Seleucus**. وكان من نصيبه أيضا الجزء الذي فتحه الاسكندر من شمال غرب الهند. ولكنه لم يستطع أن يستبقي أي جزء من الهند، وطردت الحامية الاغريقية من هناك عقب وفاة الاسكندر.

لقد كان مجئ الاسكندر الى الهند في عام ٣٢٦ قبل الميلاد، ولم يكن مجيئه هذا الا غارة لم تترك أي أثر في الهند. ويظن البعض أن هذه الغارة قد ساعدت على ابتداء اختلاط الهنود بالاغريق. ولكن الاتصال في واقع الأمر، بين الشرق والغرب كان موجودا حتى قبل عصر الاسكندر، وكانت الهند على اتصال دائم بفارس وباليونان أيضا. ولا بد

أن هذا الاتصال قد زاد بطبيعة الحال بسبب زيارة الاسكندر. ولا بد أن الثقافتين الهندية والاغريقية قد امتزجتا الى حد ما.

ان غارة الاسكندرية ووفاته مهدتا في الهند الى ظهور امبراطورية كبيرة هي الامبراطورية الموريانية **the Mauryan Empire** وهذه الامبراطورية كانت أحد العصور الهامة الكبرى في تاريخ الهند، ولهذا يجب أن نخصها بشئ من الوقت نتحدث فيه عنها.

٢٧- روما ضد قرطاجنة

٥ ابريل سنة ١٩٣٢

سنرحل الآن من الشرق الأقصى الى الغرب، ونتتبع نمو رومة التي يقال انها تأسست في القرن الثامن قبل الميلاد. ومن رومة التي يقال انها تأسست في القرن الثامن قبل الميلاد. ومن المحتمل أن الرومان الأوائل ينتمون الى الجنس الآري. وقد اتخذ هؤلاء بعض مساكن لهم على التلال السبعة على مقربة من نهر التيبر **the Tiber** وقد نمت هذه المساكن ببطء على مر الأيام حتى صارت مدينة. ودولة المدينة هذه ظلت تنمو وتتسع في ايطاليا حتى بلغت الطرف أو الرأس الجنوبي عند مسينا تجاه جزيزة صقلية..

ولعلك تذكرين دول المدن الاغريقية: فالاغريق كانوا، حيثما ذهبوا، يحملون معهم فكرة دولة مدينتهم، وكانت المستعمرات الاغريقية ودول المدن الاغريقية مبعثرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط.

ولكننا الآن في رومة نعالج شيئا مختلفا عن هذا كل الاختلاف. فمن المحتمل أن رومة لم تكن مخالفة لدولة المدينة الاغريقية، ولكن سرعان ما امتدت نتيجة هزيمتها للقبائل المجاورة، وهكذا اتسعت حدود رقيعة الدولة الرومانية وشملت أكبر جزء من ايطاليا. ومساحة كبيرة كهذه

لا يمكن أن تكون مدينة. لقد كانت محكومة من رومة، ورومة نفسها كان بها نوع غريب من الحكم. فلم يكن هناك امبراطور أو ملك، ولم يكن هناك نظام الجمهورية الحديث. ولكن الحكومة فيها كانت لونا من الجمهورية تسيطر عليها الأسر الغنية من أرباب الأراضي.

وكان المفروض أن المجلس التشريعي هو الذي يحكم، وكان أعضاء هذا المجلس يعينون بواسطة شخصين منتخبين يطلق عليهما "القاضيان". ولعهد طويل لم يكن أحد غير الأشراف والأغنياء يستطيع أن يصبح عضوا في المجلس التشريعي. وكان الشعب الروماني منقسما الى طبقتين: طبقة البطارقة، أو الأشراف الاغنياء، وهم عادة أرباب الأراضي، وطبقة السوقة، أو عامة المواطنين.

وقد ظل تاريخ الدولة، أو الجمهورية الرومانية، لعدة قرون تاريخ صراع بين هاتين الطبقتين. فمقاليد السلطة والحكم كانت في أيدي البطارقة أو الأشراف، وقد ضموا الى السلطة والحكم الغنى والمال، وطبقة السوقة أو العامة كانت أقل من الكلاب شأنا، وكانت محرومة من السلطة والمال معا.

وظلت طبقة العامة تكافح وتقاتل من أجل القوة حتى ظفرت في النهاية، وان كان في بطء، ببعض فتات السلطة. وجدير بالملاحظة أن طبقة العامة في هذا الكفاح الطويل حاولت بنجاح نوعا من عدم التعاون. ذلك أنهم خرجوا من رومة في حشد كبير، واستقروا في مدينة جديدة.

وهذه المقاطعة بدورها ملأت أفئدة طبقة الأشراف فزعا وهلعا، لعلمهم بأنهم لا يستطيعون أن ينجحوا بدون طبقة العامة، ولهذا علموا على ارضائهم بمنحهم بعض الامتيازات الطفيفة. وشيئا فشيئا أصبح من الممكن لأي فرد من طبقة العامة أن يتبوأ المراكز العالية وأن يترقي حتى عضوا في المجلس التشريعي.

وقد يظن من حديثنا عن ضروب الصراع بين طبقة الأشراف وطبقة العامة أنه لا أحد غيرهما يستحق الذكر. والواقع غير ذلك، فبجانب هاتين الجماعتين كان في الدولة الرومانية عدد عديد من العبيد حرموا كافة أنواع الحقوق، فلم يكونوا مواطنين، ولم يكن لهم حق في الانتخاب، وكانوا ملكا شخصيا خاصا لسيدهم كالكلاب والبقر. وكان يمكن بيعهم وعقابهم وفق مشيئة السيد، كما كان يمكن عتقهم أو تحريرهم بشروط خاصة. وقد كون من نالوا حريتهم منهم طبقة تدعي طبقة العتقاء أو الأحرار.

وفي العالم القديم كان هناك دائما اقبال شديد وطلب متزايد على العبيد في الغرب. ومن أجل ذلك نشأت أسواق هائلة للعبيد، وخرجت الحملات لتأسر الرجال والنساء وحتى الأطفال من أقطار نائية لتبيعهم عبيدا.

وان مجد اليونان القديم، وروما، ومصر القديمة ليقوم في أساسه على نظام العبودية.

وبعد، فهل كان نظام العبودية هذا سائدا وقتئذ في الهند؟ من

المحتمل جدا أنه لم يكن سائدا فيها أو أو في الصين. وهذا لا يعني أنه لم يكن في الهند القديمة أو الصين عبودية، فالواقع أنه كان فيهما من يستخدمون غالبا في الأعمال المنزلية، وهؤلاء كانوا يعتبرون عبيدا. فالهند والصين لا يبدو أنه كان لديهما عمال يشتغلون زمرا وجماعات بالزراعة أو بغيرها. وهكذا نجا هذان القطران من أشد ألوان العبودية اذلالا وعارا.

مما تقدم آنفا نرى أن رومة قد كبرت واتسعت، وأن طبقة الأشراف قد أفادت من ذلك وأصبحت أغنى وأكثر يسرا ورخاء. أما طبقة العامة فظلت في نفس الوقت فقيرة يعاملها الأشراف معاملة قاسية، ليجعلوها أقل اعتزازا بنفسها، وأكثر خضوعا لهم. وكلتا الطبقتين: الأشراف والعامة، اجتمعتا على سوء معاملة العبيد البؤساء والنزول بآدميتهم.

واذا كانت رومة قد كبرت واتسعت فعلى أي نمط كانت تحكم؟ لقد كانت، كما ذكرت من قبل، تحكم بمجلس الأشراف، وكان أعضاء هذا المجلس يعينون بواسطة قاضيين منتخبين. فمن كان ينتخب هذه القاضيين؟ لقد كان ينتخبهما المواطنون ممن كان لهم حق الانتخاب.

وتفصيل ذلك أن رومة عندما كانت صغيرة كدولة مدينة كان كل المواطنين يعيشون فيها، أو على مقربة منها، ولهذا لم يكن صعبا جدا عليهم أن يجتمعوا وينتخبوا. وما نسميه الآن بالحكومة النيابية أو الدستورية لم تكن قد ظهرت أو انتشرت وقتئذ، وبالتالي لم تكن تمارس.

والآن تعرفين أن كل منطقة أو دائرة تنتخب ممثلها الى مجلس

الأمة أو البرلمان، أو المجلس التشريعي، وهكذا بطريقة ما يمثل كل الشعب في جمع صغير.

ويبدو أن هذا النوع من التمثيل الانتخابي لم يخطر ببال قدماء الرومان، ولهذا استمروا على انتخابهم في رومة، على حين كان مستحيلا تقريبا على الناخبين من جهات نائية أن يحضروا اليها للانتخاب. وفي الحقيقة قلما عرف ناخبو الجهات النائية ما كان يحدث. وأنى لهم أن يعرفوا، ولم يكن هناك صحف أو كتب مطبوعة، ومن يعرفون القراءة منهم كانوا قلة جدا؟ ومن ثم فحق الانتخاب الذي أعطى لمن يعيشون بعيدا عن رومة لم يكن ذا فائدة عملية لهم. لقد منحوا حق الانتخاب، ولكن البعد حرمهم ممارسة هذا الحق.

من ذلك ترين أن الناخبين من سكان رومة فقط هم الذين كان لهم في حقيقة الأمر نصيب في الانتخانات، وفي اتخاذ القرارات الهامة. وهؤلاء كانوا يدلون بأصواتهم في العراء داخل أماكن مسورة. وكثيرون من هؤلاء الناخبين كانوا من طبقة العامة الفقيرة. وكان الأغنياء من الأشراف ممن تطمح نفوسهم ال السلطة والمناصب العالية يرشون أولئك الفقراء لينتخبوهم. ومن ثم فالانتخابات الرومانية كان يلجأ في كسبها الى شئ من الرشوة والاحتيال، كالذي يحدث اليوم أحيانا في الانتخابات الحديثة.

وبينما كان نفوذ رومة آخذا في النمو في ايطاليا، كان نفوذ قرطاجنة ينمو في شمال أفريقية، والقرطاجنيون هم سلالة الفينيقيين، وقد اشتهروا

بالملاحة والتجارة. وكان نظام حكمهم جمهوريا أيضا، ولكن سيادة الأغنياء في جمهورية رومة. لقد كانت جمهورية مدينة يسكنها جموع هائلة من العبيد.

وكان بين قرطاجنة ورومة، في العصور الأولى، مستعمرات اغريقية في جنوب ايطاليا وفي مسينا. ولكن رومة وقرطاجنة اتحدتا على طرد الاغريق. ولما نجحتا في ذلك أخذت قرطاجنة جزيرة صقلية ووسعت رومة حدود رقعتها حتى وصلت الى طرف الحذاء الايطالي.

يبدو أن الصداقة والتحالف لم يدوما طويلا بين قرطاجنة ورومة. فما أسرع ما نشبت الحروب بين الاثنتين! وما أسرع ما تطورت حدة المنافسة المريرة بينهما !

لم يكن حوض البحر الأبيض المتوسط على اتساعة ليكفي دولتين قويتين طوحتين تواجه كلتاهما الأخرى عبر البحار الفسيحة. فرومة كانت تنمو ولديها طموح الشاب واعتداده وثقته بنفسه. ومن المحتمل أن قرطاجنة نظرت قليلا باحتقار وازدراء الى رومة التي انقلبت فجأة من حالة الفقر والضعف الى حالة الغنى والقوة، والتي بدأت تتطلع في ثقة الى سيادتها على البحار وتحكمها فيها.

ظلت الحرب سجالا بينهما أكثر من مائة عام تخللتها فترات سلام، وقالت احداهما الأخرى قتال الوحوش الكاسرة، وجلبتا بسبب هذه الحروب الطاحنة على أبناء دولتيهما ما جلبتا من البؤس والشقاء!

والحرب التي نشبت بينهما هي ثلاث حروب يطلق عليها في التاريخ "الحروب القرطاجنية".

أما الحرب الأولى بينهما فاستمرت ثلاثا وعشرين سنة من ٢٦٤ – ٢٤١ قبل الميلاد، وانتهت بانتصار رومة. وبعد اثنتين وعشرين سنة قامت الحرب القرطاجنية الثانية، وأرسلت قرطاجنة على رأس جيشها، قائدا مشهورا في التاريخ اسمه هانيبال. لقد سبب هذا القائد لرومة المتاعب والصعاب وأرهب الرومانيين وملأ قلوبهم بالرعب والفزع طوال خمس عشرة سنة، وهزم جيوشهم وذبح الكثيرين منهم ولا سيما في "كاني" **Cannae** عام ٢١٦ قبل الميلاد.

وقد فعل هانيبال كل هذا بمساعدة قليلة من قرطاجنة التي كان مقعوعا عنها بسبب سيادة الرومانيين في البحر الأبيض المتوسط وتحكمهم فيه. وعلى الرغم من الهزائم والكوارث، وخطر هانبيال الدائم، فان الرومانيين لم يستسلموا، وظلوا يقاتلون ضد عدوهم البغيض.

ولخوفهم من ملاقاة هانبيال في معركة سافرة، تجنبوا الالتحام معه، وقصروا نشاطهم ضده على قطع طرق مواصلاته، واحداث الصعاب له المدة عشر سنوات. والقائد الروماني الذي دأب بصفة خاصة على تفادي الالتحام في معارك سافرة مع القائد القرطاجني يسمى "فابيوس" **Fabius**

وأنا لم أذكر اسم هذا القائد الروماني لأنه كان رجلا عظيما يستحق الذكر، وانما ذكرته لأن اسمه تولدت عنه كلمة في اللغة الانجليزية هي "فابي"

Fabian التي أصبحت تدل على الحذر وعلى الاناة والروية والبطء في اتعاب العدو وانهاكه. وعلى ذلك يقال مثلا: هناك من يستعملون الأساليب "الفابية" فلا يتعجلون حل المشاكل بالالتجاء الى القوة، وانما يتفادون المعركة أو الأزمة ويأملون في أن يحققوا غاياتهم بانهاك الخصم أو العدو في بطء وعلى أساس أن الفوز في نهاية لمن يحتمل مدة أطول من غيره.

وهناك في انجاترا جمعية تسمى "الجمعية الفابية" وأعضاؤها يؤمنون بالاشتراكية، ولكنهم لا يؤمنون بالعجلة والتغيرات الفجائية.

لقد أحال هانيبال جزءا كبيرا من ايطاليا الى صحراء ولكن النصر في النهاية كان لرومة بفضل اصرارها وعنادها. وفي عام ٢٠٢ قبل الميلاد هزم هانبيال في معركة "زاما" ولم يجد أمامه الا أن يهرب متنقلا من مكان الى مكان يطارده حقد رومة الذي لا ينطفئ سعاره. وأخيرا تعاطى السم، وأنهى حياته بيده.

ثم ساد السلام بين رومة وقرطاجنة لمدة نصف قرن، ولكنه سلام أذل كبرياء قرطاجنة، وقلما جرؤت خلاله على تحدي رومة.

ولكن رومة لم تكتف بكل ذلك وانما فرضت على القرطاجنيين الحرب القرطاجنية الثالثة التي انتهت بمذبحة كبيرة وبتدمير قرطاجنة تدميرا تاما.

لقد استعمل المحراث في حرث الارض التي قامت عليها عليها مرة مدينة قرطاجنة العزيزة الأبية "ملكة البحر الأبيض المتوسط!"

٣٩- سيادة الهند على الأسواق الأجنبية

٥ مايو سنة ١٩٣٢

خلال هذه الفترة من التاريخ القديم الذي ندرسه نجد التجارة الهندية استمرت لأكثر من ألف سنة مزدهرة في غرب أوربا وغرب آسيا وفي الشرق الى الصين.

لماذا كان الأمر كذلك؟ لم يكن لمجرد أن الهنود كانوا في تلك الحقبة من الزمن تجارا وبحارة مهرة، الأمر الذي كان حقيقة واقعة، ولم يكن لمجرد مهارتهم في الصناعات والأعمال اليدوية، وان كان حظهم من هذه المهارة كبيرا.

لا شك أن هذه الأشياء كانت عوامل مساعدة، ولكن يبدو أن أحد الأسباب الرئيسية لسيادة الهند في الأسواق البعيدة هو تقدمها في الكيمياء، ولا سيما في الصباغة.

ويبدو أن هنود العصر الذي نتحدث عنه قد اكتشوا طرقا خاصة لتحضير أصباغ ثابتة للملابس. كذلك عرفوا طريقة خاصة لصنع الصبغ الأزرق الداكن من نبات الاندجو "النيلة" الذي ينمو في بلادنا. ولا شك أنك ستلحظين أن الكلمة الانجليزية "اندجو" **Indigo** هي كلمة مستعارة من الهند.

ومن المحتمل أيضا أن الهنود القدماء عرفوا كيف يعالجون الفولاذ ويصنعون منه أسلحة دقيقة. ولعلك تذكرين أني أخبرتك أن الفردوسي في كتابه "الشاهنامة" وهو يقص حروب الاسكندر الأكبر مع دارا الثالث يشير الى كل خنجر أو سيف حسن بأنه هندي.

ولقدرة الهند على صنع هذه الأصباغ وغيرها من السلع أحسن من الأقطار الاخرى كان من الطبيعي أن يطرد الانسان أو القطر الذي تكون سلعته أو طريقته أقل جودة.

وهذا هو السبب في أن أوربا سبقت آسيا خلال القرنين الماضيين. فالاكتشافات والاختراعات الحديثة أهدت الى أوربا آلات قوية جديدة وطرقا جديدة للصناعة. وبمساعدة هذه الأشياء استولت على أسواق العالم وأصبحت غنية قوية. وهناك أسباب أخرى أعانتها على هذا التقدم، ولكني أود منك حاليا أن تدركي مدى أهمية الآلة.

وقد قال مفكر كبير مرة: "ان الانسان حيوان صانع للآلة". والواقع أن تاريخ الانسان منذ نشأته حتى اليوم هو تاريخ آلات أرقى فأرقى: من السهام الحجرية ومطارق العصر الحجري الى السلك الحديدية والقاطرات البخارية والآلات الميكانيكية وغيرها من مخترعات العصر الحاضر. وفي الواقع يكاد كل شئ نفعله يتطلب آلة خاصة. فأين كان يمكن أن نكون بدون الآلات؟

فالآلة شئ نافع، لانها تخفف من عبء العمل وتعين على انجازه في

أقصر وقت وبأقل جهد ممكن. ولكن هذه الآلة النافعة قد يساء استعمالها. فالمنشار مثلا آلة نافعة، فاذا استعمله طفل فانه قد يؤذي نفسه. والمدية من أكثر الآلات نفعا، وكل كشاف يحمل واحدة. ومع ذلك فقد يقتل شخص أحمق شخصا آخر بهذه المدية. فالخطأ اذن ليس خطأ المدية المسكينة، وانما يمكن الخطأ في الشخص الذي يسئ استعمالها.

وبالمثل ان الآلات الميكانيكية الحديثة على شدة فائدتها ونفعها لا يزال يساء استعمالها بطرق شتى.. فبدل أنها كثيرا ما ردت أحوال هؤلاء الى أسوأ مما كانت عليه من قبل! وبدل أن تجلب السعادة والراحة والرفاهية لملايين البشر كما يتوقع منها، فانها قد جلبت البؤس والشقاء للكثيرين، ووضعت في أيدي الحكومات قوة هائلة يستطيعون بها أن يقتلوا الملايين في حروبهم.

ولكن الخطأ –كما أشرت سابقا – ليس في الآلة وانما هو في اساءة استعمالها. ولا شك أن الفرق كان يكون عظيما جدا لو لم يتحكم في الآلات الكبرى غير المسئولين ممن يريدون الاثراء لأنفسهم عن طريقها، وكان التحكم فيها على أساس توجيهها الى ما فيه خير الناس عامة.

وهكذا كانت الهند في تلك الأيام – على عكس ما هي اليوم – في طليعة العالم من حيث وسائلها وطرق صناعتها. لقد كانت الأقشمة الهندية، والأصباغ الهندية وغيرهما من السلع الاخرى معروفة منتشرة في أقطار بعيدة، وكان هناك اقبال شديد على والحصول عليها. وقد عادت هذه التجارة على الهند بثروة طائلة.

وبجانب هذه التجارة كانت الهند الجنوبية تصدر الفلفل وغيره من التوابل، كما كانت التوابل ترد من جزائر الهند الشرقية، مارة بالهند في طريقها الى الغرب.

وكان الفلفل ذا قيمة عظيمة في رومة والغرب، ويقال ان "ألاريك" Alaric بعد الميلاد أخذ منها أربعة آلاف رطل من الفلفل. ولا بد أن كل هذا الفلفل قد وصل الى رومة من الهند أو عن طريقها.

٤٠- تقلبات الدول والحضارات

٦ مايو سنة ١٩٣٢

دعينا نعود الآن للحديث عن الصين، بعد أن سكتنا عنها طويلا، لنرى ماذا كانت عند سقوط رومة في الغرب، وابان النهضة القومية التي ظهرت بالهند في عهد أسرة جوبتا[١] **Guptas**

والواقع أن قيام رومة أو سقوطها لم يترك أي أثر يذكر في الصين، وذلك لبعد ما بين الدولتين. ولكني أخبرتك من قبل أنه كان لرد الدولة الصينية لقبائل آسيا الوسطى عند حدودها أحيانا نتائج خطيرة على الهند وأوربا.

فهذه القبائلوغيرهم ممن حالت الدولة الصينية بينهم وبين الصين لم يكن أمامهم الا أن يتجهوا غربا وجنوبا، وأن ينقضوا على ممالك ودول ويعيثوا فيها فسادا، ناشرين في حيثما حلوا الدمار والخراب والفوضى. وقد

---

[١] نسبة الى تشاندرا جوبتا **Chandragupta** مؤسس الامبراطورية الموريانية والذي حكم من ٣٢١ – ٢٩٦ قبل الميلاد. وقد اشتملت هذه الامبراطورية على كل شمال الهند وجزء من الأفغانستان: من كلبول الى البنغال ومن بحر العرب الى خليج البنغال، باستثناء جنوب الهند. وكانت عاصمتها مدينة باتاليبوترا **Pataliputra**. وفي عهد هذه الامبراطورية انبعثت في الهند نهضة قومية شملت معظم مرافق الحياة.

ويحدثنا مهرو في راسلة أخرى أنه كان على كل ملك من ملوك هذه الامبراطورية أن يقسم عند تلقية سلطته الملكية من أيدي الشعب في يوم التتويج قائلا: "ألا فليحرمني الله من مملكة السماء ومن الحياة والذرية اذا أنا ظلمتكم" .

استقر في نهاية الأمر كثير من هذه القبائل في الهند وأوربا الشرقية.

وعلى الرغم من كل شئ، فقد كانت بطبيعة الحال اتصالات بين رومة والصين تبودلت فيها السفارات. وأولى هذه السفارات كما ترويها كتب التاريخ الصينية هي السفارة التي بعث بها امبراطورية رومة أنطون عام ١٦٦ بعد الميلاد. وأنطون هذا ليس الا مارك أنطونيوس الذي أشرت اليه في احدى رسائلي اليك.

لقد كان سقوط رومة حدثا تاريخيا بعيد الأثر، ولم يكن مجرد سقوط مدينة أو سقوط امبراطورية. ولم تنته الامبراطورية الرومانية بسقوط رومة، وانما استمرت طويلا بعد ذلك في القسطنطينية على نحو ما، وخيم شبحها فوق أوربا كلها نحو ١٤٠٠ سنة.

فسقوط رومة كان في الواقع نهاية طور كبير من أطور التاريخ، وعلى التحديد كان نهاية العالم القديم فيها وفي اليونان. فعلى أطلال رومة كان يقوم وينمو في الغرب عالم جديد وثقافة وحضارة جديدتان.

ان الالفاظ والعبارات أو اللغة بمعنى آخر تضللنا، ذلك لأننا نجد نفس الألفاظ مستعملة فيغلب علينا الظن أنها تعني ذات الشئ. فأوروبا الغربية ظلت بعد سقوط رومة تتكلم اللغة اللاتينية، ولكن كان وراء تلك اللغة أفكار مختلفة ومعان مختلفة.

وفي عصرنا الحاضر يقول الناس ان الأقطار الأوربية هي أطفال رومة واليونان. وهذا صحيح الى حد ما. ولكنه في الواقع قول مضلل. ذلك لأن

الأقطار الاوربية تمثل شيئا يختلف كل الاختلاف عما مثلته رومة واليونان.

فعالم رومة واليونان القديم قد انهار انهيارا تاما تقريبا، والحضارة التي بنيت في ألف سنة أو أكثر شاخت واعتراها الضعف والانحلال. وقد حدث آنئذ أن ظهرت على صفحة التاريخ دول أوربا الغربية التي كانت نصف متحضرة ونصف متبربرة، وبنت في بطء ثقافة وحضارة جديدتين، وتعلمت الكثير من رومة، واستعارت الكثير أيضا من العالم القديم.

ولكن عملية التعليم كانت صعبة شاقة. ويبدو أن الثقافة والحضارة في أوربا قد ران عليهما النعاس عدة قرون. لقد كان هناك ظلام الجهل والتعصب الأعمي البغيض، ولهذا سميت هذه القرون بالعصور المظلمة.

فلماذا كان هذا كذلك؟ ولماذا يقضي على الدنيا بأن ترتد وتتقهقر؟ ولماذا تمنى المعرفة التي تجمعت خلال مئات السنين بالزوال والنسيان؟ ان هذه أسئلة عويصة يدق فهمها على أحكم الحكماء منا، ولهذا فلن أحاول الاجابة عليها.

ثم أليس غريبا أن الهند التي تبوأت مكالنة عالية في الفكر وضروب النشاط الانسانبي تنحط انحطاطا تعيسا مزريا، وتبقى لعصور طويلة دولة مستعبدة ؟

والصين..؟ أليس غريبا أيضا أنها، على ما لها من ماض ملئ بالفخار، تقع فريسة حروب لا نهاية لها ؟

ولربما لا يكون الاختفاء والزوال مآل ما جمعه الانسان شيئا فشيئا من المعرفة والحكمة على توالي الأجيال والعصور. ولكن ما يحدث هو أنأعيننا تنقفل في بعض الأوقات فلا نستطيع أن نرى. فحينما تقفل النافذة يخيم الظلال على المكان بينما النور خارجه وحوله. فاذا أقفلنا أعيننا أو نوافذنا فان هذا لا يعني أن النور قد اختفى.

ومن الناس من يقول ان عصور الظلام ترجع الى المسيحية – لا الى مسيحية عيسى، ولكن الى المسيحية الرسمية التي انتشرت في الغرب ان اعتنقها قسطنطين الامبراطور الروماني. ويقول هؤلاء الناس ان اعتناق قسطنطين للمسيحية في القرن الرابع الميلادي افتتح عصرا دام ألف سنة كان فيه العقل مكبلا مقيدا، والفكر مستبعدا مضطهدا، والمعرفة راكدة جامدة. ولم ينتج هذا العصر اضطهادا وتعصبا وعدم تسامح ديني فقط، وانما جعل من الصعب على الناس أن يتقدموا في العلوم وفي معظم مناحي الحياة الأخرى.

وكثيرا ما صارت الكتب المقدسة عقبات في طريق التقدم، فهي تخبرنا ماذا كانت عليه الدنيا في الوقت الذي كتبت فيه، كما تخبرنا بأفكار تلك الفترة وعاداتها، ثم لا يستطيع أحد أن يتحدى تلك الأفكار وتلك العقائد بسبب ورودها في كتاب مقدس، ولهذا فقد تتغر الدنيا تغيرا خطيرا هائلا ثم لا يكون مسموحا أو جائزا لنا أن نغير أفكارنا وعاداتنا كي نساير الأحوال المتغيرة. ونتيجة لذلك نصبح غير صالحين لمسايرة

عصرنا، وفي ذلك بطبيعة الحال ما فيه من المتاعب.

من أجل ذلك يتهم البعض المسيحية بأنها جلبت على أوربا هذه الفترة من الظلام، على حين ينبئنا البعض الآخر بأن الفضل في بقاء مصباح المعرفة والعلم مشتعلا خلال عصور الظلام انما يرجع الى المسيحية ورهبانها وقساوستها، فهؤلاء رعوا الفن والتصوير وحافظوا محافظة تامة على الكتب القيمة ونسخوها.

على هذا النحو يتجادل الناس في هذا الأمر. وربما كان كلا الطرفين على حق. ولكن ما يدعو الى السخرية والضحك هو أن يقال ان المسيحية مسئولة عن كل المفاسد والشرور التي تلت سقوط رومة، فالحق أن رومة سقطت بسبب هذه المفاسد والشرور.

لقد جلت بخاطري بعيدا، وما أردت أن أبينه لك هو أنه بينما كان في أوربا انهيار اجتماعي مفاجئ وتغير مفاجئ لم يكن في الصين حتى ولا في الهند تغير مفاجئ كهذا.

ففي أوربا نشهد نهاية حضارة وبداية حضارة أخرى أخذت تنمو وتتطور في بطء حتى وصلت الى ما هي عليه اليوم. وفي الصين نشهد نفس الدرجة العالية من الثقافة والحضارة تستمر في طريقها بدون توقف أو انقطاع.

لقد كان في الصين تقلبات، كان فيها عهود حسنة مشرقة، وكان فيها ملوك وأباطرة أتوا ثم مضوا، وكان فيها دول أزال بعضها بعضا. ولكن على الرغم من كل ذلك فان التراث الثقافي ظل متصلا غير منقطع.

ففي كل العهود، حتى في العهود التي انقسمت الصين فيها الى عدة دول ونشبت فيها الحروب، كان الفن والأدب فيها مزدهرين، فأنتجت الصين الصور الفنية الرفيعة، وأصص الأزهار الجميلة، والمباني الأنيقة. وفيها نشأت الطباعة، وأصبح شرب الشاي عادة مستحبة يحتفى بها الشعر. وعلى الاجمال ان في الصين روحا فنية مستمرة لا يمكن أن تنبعث الا من حضارة راقية سامية.

وكذلك الحال في الهند، فليس في حضارتها فترات انقطاع مفاجئة كما حدث في حضارة رومة. لقد مرت بالهند عهود حسنة وأخرى سيئة: عهود من الانتاج الأدبي والفني الرفيع، وعهود من الخراب والانحطاط. ولكن الحضارة تستمر في الهند، وان لم تكن أحيانا على ما يرام، ثم تنتشر في أقطار الشرق الأخرى، وهي في انتشارها تمتص ما تمتص من الحضارات التي تقابلها وتعلم حتى البرابرة الذين أتوا للنهب والسلب.

لا تظني أني بهذا القول أحاول الاشادة بالهند أو الصين على حساب الغرب، فليس في أحوال الهند أو الصين اليوم ما يصح الاشادة أو التشدق به، ويستطيع حتى الأعمى أن يرى أنه رغم كل عظمتهما الماضية فقد سقطتا وهوتا الى الدرك الأسفل في ميزان الشعوب.

فاذا لم يكن هناك انقطاع أو توقف مفاجئ في ثقافتهما في الماضي فان هذا لا يعني أنه لم يحدث فيهما تغير الى الأسوأ. واذا كنا بالأمس في طليعة الشعوب المتقدمة ثم صرنا اليوم في مؤخرة الشعوب

فان هذا التحول من شأنه أن ينزل بنا في أعين العالم.

وقد نشعر بالارتياح والرضا لاتصال حضارتنا واستمرارها. ولكن ما أقل جدوى هذا الارتياح والرضا عند ما نرى أن هذه الحضارة قد أدركها الوهن واعترتها الشيخوخة!

ولربما كان من الخير لنا لو طرأ علينا ما يفصلنا انفصالا مفاجئا عن ماضينا، فحدوث شئ من هذا القبيل كان كفيلا بأن يهزنا هزا قويا ويبعث فينا حياة وحيوية جديدتين. ومن يدري فلعل الحوادث التي تجري اليوم في الهند وفي العالم تكسب بلادنا القديمة العريقة قوة دافعة، وتملؤها ثانية بالشباب والحياة الجديدة.

ويبدو أن سر قوة الهند ومثابرتها في الماضي يمكن في نظام جمهوريات القرى أو الحكم الذاتي الذي نسميه بلغتنا "بانشايات" **Panchâyats** فلم يكن هناك في الماضي اقطاعيون أو ملاك أراض كبار كالموجودين حاليا في الهند، فالأرض كانت ملكا لأهل القرية أو "للبانشايات" أو لمن يزرعونها. وكان لهذه "البانشايات" نصيب كبير من القوة والسلطة، وكانوا ينتخبون بواسطة أهل القرية. ومن ثم كان هناك أساس من الديموقراطية في هذا النظام.

وقد تعاقب الملوك في الهند ملكا اثر ملك أو حارب بعضهم بعضا ولكنهم مع ذلك لم يمسوا نظام القرية أو يتدخلوا فيه أو يجرءوا على الانتقاص من حريات جمهوريات القرى أو "البانشايات". وعلى هذا نرى

أنه بينما تغيرت الامبراطوريات استمر البناء الاجتماعي الذي قام على على أساس نظام القرية بدون تغيير ملحوظ.

وقصص الحروب والاغارات وتغير الملوك والحكام قد تضللنا فنظن أن سكان الهند قد تأثروا بها. وطبيعي أن يتأثر السكان أحيانا بمثل هذه الأحداث وبخاصة في شمال الهند، ولكن على الاجمال يمكن القول بأن الناس ازاء هذه الأخطار أصابهم شئ قليل من الخوف والقلق ثم استمروا يمارسون حياتهم المألوفة على الرغم من تغيرات الملوك والحكام.

وهناك عامل آخر أدى الى قوة النظام الاجتماعي في الهند لمدة طويلة، ذلك هو النظام الطائفي أو العنصري كما وجد في الأصل، فالطائفية أو العنصرية لم تكن في أول الأمر حادة عنيفة الى الدرجة التي آلت اليها فيما بعد، كما لم تعتمد على المولد وحده. لقد أبقت على الحياة الهندية متماسكة مترابطة آلاف السنين، وقد استطاعت الطائفية أو العنصرية أن تحقق هذا التماسك والترابط لا بمنع التغير والنمو ولكن بالسماح لهذين بالوجود والاستمرار.

فالنظرة الهندية القديمة الى الدين والحياة كانت دائما نظرة تسامح وتجربة وتغير. وقد أضفى ذلك على نظرة الهند قوة، ولكن الحروب والغزوات وغير ذلك من الفتن الفتن والقلاقل جعلت الطائفية أو العنصرية تأخذ في الحدة والعنف شيئا فشيئا، وتبعا لذلك صارت غالبية النظرة الهندية أكثر حدة وعنفا، وأقل خضوعا واذعانا.

وقد استمرت هذه العملية تفعل فعلها حتى تخلف الهنود وارتدوا

الى ما هم عليه اليوم من حال تعيسة مزرية، وحتى صار التعصب الطائفي أو العنصري عدو كل نوع من التقدم. وبدلا من أن يعمل على تماسك البناء الاجتماعي فانه يقسمه مئات الأقسام ويصيرنا ضعفاء ويجعل الهندي يقف وجها لوجه ضد أخيه الهندي.

وهكذا ساعدت الطائفية أو العنصرية في الماضي على تقوية نظام الهند الاجتماعي. ولكن على الرغم من ذلك فان هذا النظام الاجتماعي كان يحمل في طياته بذور الانحلال والفساد، ذلك لأنه كان مؤسسا على الظلم المستمر وعلى عدم المساواة الدائمة أيضا، وأي محاولة كهذا كان مصيرها الفشل في النهاية.

فالمجتمع الثابت السليم لا يمكن أن يقوم على أساس من الظلم وعدم المساواة ومن استغلال طائفة أو طبقة لطائفة أو طبقة أخرى، ولا سبب لما نراه اليوم في جميع أرجاء العالم من الاضطراب والصراع سوى الاستغلال الجائر المستمر، ولكن الناس في كل مكان قد بدءوا يدركون هذا ويعملون على التخلص من كل ضروب الاستغلال.

ونظام الصين الاجتماعي يشبه نظام الهند الاجتماعي من حيث أن قوته تكمن في القرى وفي مئات الآلاف من الزراع الذين يملكون الأرض ويزرعونها، ومن حيث أنه لا يوجد في الصين أيضا ملاك أراض كبار.

وفي الصين لم يسمح للدين أبدا بأن يتحكم ويستبد أو أن يصير متعصبا، وربما كان الصينيون ولا يزالون أقل الشعوب تعصبا في الدين.

وسوف تتذكرين مرة ثانية بأنه لم يكن في الهند أو الصين عبودية بين العمال كما كانت الحال في اليونان ورومة وفي العصور الأولى لمصر القديمة. لقد كان هناك بعض من يقومون بالأعمال المنزلية وهؤلاء كانوا عبيدا، ولكنهم لم يؤثروا أي تأثير في النظام الاجتماعي الذي كان يمكن أن يمضي في طريقه بدونهم.

ولم يكن الحال كذلك في اليونان القديمة ورومة حيث كان العبيد بعددهم العديد يكونون جزءا هاما من النظام، وحيث كان العبء الحقيقي لكل عمل يقع على عاتقهم، وكيف وأين كان يمكن أن تبنى الأهرام الكبرى في مصر لو لم يقم ببنائها هذا النوع من العمال العبيد[٢]؟

لقد بدأتهذه الرسالة بالحديث عن الصين وكان في نيتي أن أستمر في سرد قصتها عليك، ولكن تيار الفكر جرفني الى موضوعات أخرى، وليس هذا بالشئ المستغرب مني !

ولعنلنا في الرسالة القادمة نلتزم قصة الصين ولا نحيد عنها.

---

[٢] يبدو أن الكاتب هنا متأثر بأقوال بعض الأوربيين عن بناة الأهرام. فالثابت تاريخيا أن الأهرام كانت تبنى عادة في أيام الفيضان حيث الأرض تكاد تكون مغطاة بالمياه وحيث يكاد يكون العمال في شبه علطة. فاستخدام العمال في بناء الأهرام لم يكن نوعا من العبودية وانما كان فتحا لأبواب العمل والرزق لهم في موسم الفيضان حيث يقل العمل على الأرض. كما ثبت أن الدولة كانت تهيئ لهم المسكن والمأكل. ومن ناحية أخرى كان الفراعنة الملوك ينظر اليهم في حياتهم من رعيتهم على أنهم أنصاف آلهة. ولهذا كان الاشتراك أو المساهمة في بناء مقابرهم عن عامة الشعب نوعا من العبادة لا العبودية. "المترجم"

٤٩- الفتح العربي من إسبانيا إلى منغوليا

٢٣ مايو سنة ١٩٣٢

كان محمد، مثل مؤسسي بعض الأديان الأخرى، ثائرا ضد كثير من العادات الاجتماعية الموجودة. وقد استهوت بساطة الدين الاسلامي الذي دعا اليه ومباشرته وديمقراطيته ومساواته عامة الناس في الأقطار المجاورة ممن حطمهم وطحنهم الملوك المستبدون والقساوسة المتغطرسون المستبدون أيضا.

فالناس في عصر محمد كان قد أنهكهم النظام القديم وضاقوا ذرعا به حتى باتوا مستعدين لتقبل أي تغيرر. وقد أهدى الاسلام اليهم هذا التغيير الذي تلقوه مرحبين به، ذلك لأنه ارتقي بهم من نواح عدة، ووضع نهاية لكثير من المفاسد والشرور القديمة.

والاسلام لم يحضر معه ثورة اجتماعية[٣] كبرى يكون من شأنها أن تقضي على درجة كبيرة من استغلال الناس. ولكنه قد خفف من هذا

[٣] لعل هذا الرأي وليد نظرة جانبية الى مفهوم الثورة باعتبارها تحريرا من ربقة الاقتصاديات المختلفة الظالمة وحسب. بيد أن عمل الثورة لا يقف عند هذه الحد .. فالثورة في حقيقتها انهاء لزمن بكل، أو بمعظم، معالمه من عقائد وتقاليد وأوضاع مجتمعة، ثم هو لم يحمل لواء التحرير بالنسبة للمسلمين وحدهم، بل للبشر كافة. وفي أمر التكليف الصادر للرسول ليحمل تبعاته لم يبعثه الله رسولا للمسلمين فحسب، بل رحمة للعالمين. "المترجم"

الاشتغلال بالنسبة للمسلمين، وجعلهم يشعرون بأنهم ينتمون الى أخوة واحدة عظمى. وهكذا زحف العرب من فتح الى فتح، وكثيرا ما انتصروا بلا قتال.

وفي خلال ربع قرن من وفاة نبيهم، فتح العرب كل بلاد الفرس والشام وأرمينية، وبعض آسيا الوسطى، ومصر جزءا من شمال أفريقية غربا.

وقد استولى العرب على مصر بسهولة لأنها كانت قد قاست أكثر من غيرها من استغلال الامبراطورية الرومانية ومن صراع المنافسة بين المذاهب المسيحية.

وهناك قصة تروى عن حرق العرب لمكتبة الاسكندرية الشهيرة، ولكن الاعتقاد الآن أن هذه القصة كاذبة لا أساس لها من الصحة. ولما كان حب الكتب والولع بها مما يؤثر عن العرب فلا يمكن أن يعقل أنهم تصرفوا في مكتبة الاسكندرية بهذا الأسلوب البربري. ومن المحتمل، على أية حال، أن امبراطور القسطنطينية "ثيودوسيوس" الذي حدثتك قليلا عنه من قبل هو الذي ارتكب جريمة حرق مكتبة الاسكندرية أو حرق جزء منها، نقول ذلك لأن جزءا من المكتبة كان قد أتلف من قبل أثناء حصار الاسكندرية في عهد يوليوس قيصر. "فثيودوسيوس" لم يستصوب كتب الاغريق القدماء الجاهليين التي تتحدث عن الأساطير والفلسفات الاغريقية القديمة. ولهذا يقال انه استعمل هذه الكتب وقودا لتسخين حماماته.

وقد استمر العرب في تقدمهم شرقا وغربا. ففي الشرق سقطت هرات وكابول وبلخ في أيديهم.

وقد وصلوا في هذا الاتجاه الى بلاد السند[4] ولكنهم لم يتقدموا فيالهند وراء ذلك، وظلت صلاتهم لبضع مئات من السنين بالحكام الهنود على خير ما تكون الصلات مودة وصداقة.

وفي الغرب ظلوا يتقدمون ويتقدمون، ويقال أن قائدهم عقبة [5] أتى الى شمال افريقية، وتقدم في هذا الاتجاه حتى وصل الى المحيط الأطلسي على الشاطئ الغربي لما يعرف الآن بمراكش. ويقال أيضا انه شعر بخيبة أمل حينما وجد المحيط الأطلسي يقف حجر عثرة في طريق تقدمه، وأنه ركب البحر وأوغل فيه على قدر ما استطاع ثم شكا بثه وحزنه الى الله لعدم وجود أرض أخرى في هذا الاتجاه فيفتحها باسم الله وفي سبيله !

ومن مراكش وافريقية عبر العرب الى اسبانيا وأوربا، المضيق الذي كان يسميه الاغريق القدماء "أعمدة رقل".

واسم القائد الذي عبر الى أوربا هو "طارق" ولهذا أطلق على الجبل الذي نزل عنده باسبانيا "جبل طارق" ذكؤى لهذا القائد العربي.

وقد تم فتح اسبانيا بسرعة عجيبة، ومنها تدفق العرب الى جنوبي فرنسا.

---

[4] الذي افتتح بلاد السند هو المهلب بن أبي صفرة في حكم معاوية ابن ابي سفيان .

[5] هو عقبة بن نافع ٥٠ هـ (٦٧٠ م). وقد أرسله معاوية عندما شكا أهل شمال افريقية له من كثرة الضرائب التي فرضتها الحكومة الرومانية عليهم. وقد انتصر عقبة على الرومان وأسس مدينة القيروان جنوبي تونس. ولكن البربر كادوا له وقتلوه هو وأكثر جيشه سنة ٦٨١ م .

وهكذا لم يمض على وفاة النبي محمد مائة سنة، حتى كانت الامبراطورية العربية قد امتدت من جنوب فرنسا واسبانيا فشمال افريقية الى مصر، وعبر بلاد العرب الى الفرس وآسيا الوسطى حتى حدود منغوليا. ولم يدخل من الهند في هذه الامبراطورية غير السند.

وقد غزا العرب أوروبا من جهتين: غزوها في القسطنطينية مباشرة، وفي فرنسا عن طريق افريقية. وفي جنوب فرنسا كان العرب قليلي العدد، وكانوا بعيدين عن موطنهم الأصلي. ولهذا لم يستطيعوا الحصول على مساعدة تذكر من الجزيرة العربية لانشغالها وقتئذ بفتح آسيا الوسطى. ومع ذلك فقد استطاعت هذه القلة من العرب في فرنسا أن تخيف أهل أوربا الغربية، ولهذا كونوا حلفا كبيرا لمحاربتهم.

ويشير أحد المؤرخين الى نتائج هذه المعركة فيقول: "لقد خسر العرب في سهول تور امبراطورية العالم، وقد كادت تكون في قبضة أيديهم".

ومما لا ريب فيه أن العرب لو أتيح لهم أن ينتصروا في تور لكان التاريخ الأوربي قد تغير تغيرا كبيرا، ولما كانت هناك قوة أخرى في أوربا تقف تقدمهم، ولكان في استطاعتهم أن يواصلوا زحفهم حتى القسطنطينية، وأن يضعوا نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية وللدول الأخرى التي تأتي في طريقهم. وليس ذلك فحسب، بل كان الاسلام قد حل محل المسيحية، وأصبح دين أوربا، وكانت قد حدثت أنواع أخرى من التغيرات.

ليس هذا الا شطحة من شطحات الخيال، ولهذا أعود فأقول: لقد أوقف زحف العرب في فرنسا، ولكنهم بعد ذلك بقوا في اسبانيا وحكموها بضع مئات من السنين.

وقد انتصر العرب من اسبانيا الى منغوليا، وأصبح هؤلاء البدو الذين أتوا من الصحراء حكام امبراطورية عظيمة. لقد كانوا يسمون سكان الصحاري، ولكن سرعان ما ألف سكان الصحاري هؤلاء حياة الترف والمدن، وسرعان ما انتشرت القصور في مدنهم.

وعلى الرغم من انتصاراتهم في أقطار بعيدة، فانهم لم يستطيعوا التخلص فيما بينهم من عادة التشاحن والقتال القديمة عندهم. وبطبيعة الحال كان كان لديهم شئ يستحق التناحر عليه والقتال من أجله وهو رئاسة الجزيرة العربية التي كانت تعني التحكم في امبراطورية شاسعة الأطراف. ومن ثم كان هناك صراع وحروب للاستيلاء على منصب الخلافة.

وهذا الصراع وهذه الحروب التي قامت بين الأسر والقبائل أدت الى انقسام المسلمين الى طائفتين كبيرتين: طائفة السنيين، وطائفة الشيعيين واللتين لا تزالان موجودتين حتى اليوم.

وسرعان ما نشأ الخلاف بعد انتهاء عهد الخليفتين أبي بكر وعمر. فعلي بن أبي طالب زوج بنت محمد آلت اليه الخلافة لعهد قصير. ولكن الصراع ظل مستمرا، فقتل علي، ومن بعده بقليل قتل ابنه الحسين وأسرته في كربلاء.

ومأساة كربلاء هذه هي التي يبكيها المسلمون، ولا سيما الشيعيين منهم في شهر المحرم من كل عام. ثم نرى الخليفة بعد ذلك يصبح ملكا مطلقا بدون انتخاب أو طريقة ديمقراطية. والذي كان يحدث هو أنه كان يتبوأ الملك كما يتبوؤه أي ملك في عصره. ونظريا استمر ينظر اليه أيضا على أنه الرئيس الديني وأمير المؤمنين. ولكن بعض هؤلاء الحكام كانوا في الحقيقة سبة للاسلام الذي كان مفروضا فيهم أن يكونوا حماته الأعلين.

ولقد صارت خلافة المسلمين لمدة قرن تقريبا للأمويين. وهؤلاء اتخذوا من دمشق عاصمة لهم، وبذلك أصبحت هذه المدينة القديمة جميلة جدا تزينها القصور القصور والمساجد ونافورات المياه والجواسق الخشبية داخل الحدائق، كما اشتهرت بنظام تزويد منازلها بالماء.

وخلال هذه الفترة استحدث العرب ورقوا طرازا خاصا من العمارة عرف فيما بعد بفن العمارة العربية. وهذا الفن الذي استحدثه العرب في هندسة البناء ليس نوعا من الحلية أو الزينة، وانما هو فن بسيط جميل لا يملك المشاهد له الا أن يعجب به. والفكرة من وراء فن البناء العربي هي النخلة الجميلة التي تنمو في الشام وجزيرة العرب. فالأقواس والأعمدة والمآذن والقباب، تذكر الانسان بتقوس وتقبب جماعات النخيل، وقد أتى فن البناء العربي الى الهند، ولكنه تأثر فيها بالأفكار الهندية، ونشأ عن ذلك طراز جديد مختلط. ولا يزال يوجد حتى اليوم في اسبانيا آثار لأجمل وأبدع نماذج فن البناء العربي.

ونتيجة للامبراطورية وثرائها شاع في المجتمع العربي فنون من الترف والرفاهية والمتعة. فسباق الخيل كان احدى الرياضات المحببة لدى العرب.وكذلك الصيد ولعبة الكرة على الخيل **Polo** والشطرنج. وقد نما لديهم ولع بالموسيقى على طراز حديث، وبخاصة الغناء. ولهذا كانت عاصمة الخلافة تموج بالمغنين وتوابعهم والمتطفلين عليهم.

وقد حدث في محيط المجتمع العربي تغير آخر كبير، ولكنه لم يكن تغيرا الى الأحسن. وكان هذا التغير خاصا بالمرأة.

فالمرأة العربية لم تكن تعرف الحجاب في أية صورة من صوره، فلم تعش في عزلة أو مخبأ عن أعين الغير. لقد كانت تسير بين الناس وتذهب الى المساجد وتتردد على مجالس العلم. ومن نساء العرب من كن يجلسن أحيانا مجالس العلم ويلقين دروسا في العالم.

ولكن نجاح العرب جعلهم يقلدون بعض عادات الامبراطوريتين القديمتين المجاورتين لهم، وأعني بذلك الامبراطورية الرومانية الشرقية، والامبراطورية الفارسية. فالعرب قد هزموا الامبراطورية الأولى، وقضوا على الامبراطورية الثانية، ولكنهم أنفسهم استسلموا وخضعوا لبعض ما كان يشيع في هاتين الامبراطوريتين من العادات القبيحة. ويقال ان عزلة المرأة العربية واختفاءها من مجتمعها يرجع بوجه خاص الى تأثير القسطنطينية والفرس في المحيط العربي.

ونتيجة لذلك بدأ نظام "الحريم" يظهر شيئًا فشيئًا، كما بدأ اجتماع

الرجل بالمرأة، والتقاء أحدهما بالآخر في المجتمعات العامة يقل شيئًا فشيئًا.

ومما يؤسف له أن عزلة[٦] المرأة العربية هذه أصبحت مظهرا من مظاهر المجتمع الاسلامي. وقد تعلمت المرأة الهندية هذه العزلة أيضا من المسلمين عندما أتوا الى الهند.

واني لأعجب غاية العجب أن أرى أنه لا يزال هناك من يقاسون ويعانون من هذه البربرية في صمت، دون أن يتألموا أو يضجوا بالغضب والشكوى.

وكلما فكرت في النساء المحجبات، وقد تقضي عليهن بالعزلة عن العالم الخارجي، خيل الى أني أفكر في سجن أو حديقة حيوان! وكيف يقدر لشعب أن ينطلق متقدما الى الأمام اذا كان نصفه يعيش في عزلة أشبه بالسجن؟

ولكن مما يدعو الى الأمل والتفاؤل أن الهند قد بدأت بسرعة تمزق الحجاب وتقضي عليه، كما ظهرت بوادر في المجتمع الاسلامي تدل على التخلص من هذا العبء الفظيع على نطاق واسع. ففي تركيا وضع مصطفى كمال نهاية للحجاب. كذلك بدأ الحجاب في مصر يختفي بشكل سريع ويحل محله السفور.

---

[٦] ربما كان ذلك في القديم. أما اليوم فقد بدأت المرأة العربية تخرج من عزلتها وتساهم في جميع مناهي الحياة العامة، كما اعترفت لها بعض الدساتير العربية بحقوقها السياسية. "المترجم"

ولا يفوتني قبل أن أختم رسالتي اليك أن أشير الى نقطة بالغة الأهمية والدلالة. فالمأثور عن العرب أنهم كانوا في بدء نهضتهم متحمسين غاية التحمس للدين، ولكنهم مع تحمسهم هذا كانوا متسامحين مع مخالفيهم في العقيدة. وهناك أمثلة عديدة على تسامحهم الديني. وقد أكد الخليفة عمر بن الخطاب هذا التسامح وأوصى به مرة في بيت المقدس، وفي أيام حكم العرب في اسبانيا كان جزء كبير من سكانها مسيحيين، وكانوا يتمتعون كل التمتع بحرية العبادة والعقيدة. وفي الهند لم يمتد حكم العرب الا على السند، ولكن نشأت اتصالات كثيرة بينهم وبين سكان الهند، وكانت هذه الاتصالات قائمة على أساس المودة والصداقة. وفي الحق ان أكثر ما يلاحظ على هذه الفترة من التاريخ هو المقابلة بين تسامح العرب المسلمين، وتعصب المسيحين في أوربا.

٥٣- نظام الإقطاع

٤ يونية سنة ١٩٣٢

في رسالتنا السابقة ألمحنا لمحة الى المراحل الأولى لكل من فرنسا والمانيا وروسيا وانجلترة كما نعرفها اليوم. ولكن لا تتخيلي أن الناس في تلك العصور قد نظروا الى هذه الأقطار نظرتنا اليها في عصرنا الحاضر.

فنحن ننظر اليها على أنها شعوب مختلفة من الانجليز والفرنسيين والألمان، وكل من هؤلاء ينظر الى قطره على أنه وطنه وأرض آبائه وأجداده. وهذا هو شعور القومية الذي يبدو اليوم واضحا في جميع أرجاء الدنيا، وكفاحنا في الهند من أجل الحرية هو "كفاحنا القومي"

ولكن فكرة القومية هذه لم توجد في تلك العصور البعيدة. وانما كان يشيع فيها فكرة ما عن المسيحية مؤداها أن المسيحيين المعتنقين لها يقفون ضد الكفار أو المسلمين. وكان المسلمين بالمثل يرون أنهم يمتون الى دنيا الاسلام التي تقف ضد الآخرين جميعا وتعتبرهم غير مؤمنين.

وبيد أن هذه الأفكار كانت أفكارا غامضة لم تمس أو تلمس حياة الناس اليومية. ومع غموض هذه الأفكار، فانها استخدمت في ظروف ومناسبات خاصة لتملأ قلوب الناس بالغيرة والحماسة الدينية ليقاتلوا من أجل المسيحية أو الاسلام كلما اقتضى الأمر.

فبدل القومية، كان هناك صلة غريبة بين الانسان وأخيه الانسان. وهذه هي الصلة الاقطاعية التي نشأت مما يعرف بالنظام الاقطاعي.

وقد ترتب على سقوط رومة أن انهار النظام القديم في الغرب، وشاع فيه الاضطراب والفوضى والعنف واللجوء الى القتال والحروب. واستولى الأقوياء على كل ما استطاعت أيديهم أن تمتد اليه. وتمسكوا به طالما لم يأت اليهم شخص أقوى منهم فيطوح بهم ويجليهم عنه. وبنيت قصور قوية حصينة، وخرج أرباب هذه القصور في فصائل من رجالهم، وأغاروا على الريف وعاثوا فيه سلبا ونهبا وفسادا. وقاتلوا أحيانا من على شاكلتهم من أرباب القصور وسادتها. وكان العمال والزراع بطبيعة الحال أكثر من قاسي وعانى شرور تلك الأوضاع. فمن هذا الاضطراب وهذه الفوضى، نشأ النظام الاقطاعي ونما.

ولم يكن الزراع منظمين، ومن ثم لم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ضد الأسياد اللصوص. ولم تكن هناك حكومة مركزية لها من قوتها ما تحمي به الزراع من طغيان أرباب القصور عليهم. ولهذا لم يجد الزراع أمامهم الا أن يأخذوا بأخف الضررين، وأن ينزلوا على شروط رب القصر الذي سلبهم ونهبهم. لقد قبلوا أن يعطوه نصيبا مما تنتجه حقولهم، وأن يخدموه في بعض الشئون أيضا على شريطة ألا يسطو أو يغير عليهم، وأن يحميهم شرور من هم على شاكلته من أرباب القصور. كذلك نزل سيد القصر الصغير بالمثل على شروط سيد القصر الكبير.

ولما لم يكن ي استطاعة السيد الصغير أن يعطي السيد الكبير شيئا مما ينتجه الحقل، لأنه لم يكن زراعا أو منتجا، فقد وعد أن يقدم اليه مساعدة حربية، بمعنى أن يحارب معه عند الحاجة.

وفي مقابل ذلك كان السيد الكبير أن يحمي السيد الصغير، وبهذا أصبح الأخير مولى لسيد كبير أو أمير. وخطوة خطوة أخذوا يتدرجون من سادة ونبلاء كبار الى سادة ونبلاء أكبر حتى وصلوا الى الملك في قمة في هذا النظام الاقطاعي. ولدى هؤلاء أن كل شئ، حتى السماء، قد أسهم بنصيب في النظام الاقطاعي بأقانيمه أو ثالثوثه الأقدس الذي ترأس عليه عليه الاله!

كان هذا هو النظام الذي نشأ شيئا فشيئا من الاضطراب الذي غشي أوربا. ويجب أن تتذكري أنه لم يكن هناك في ذاك الوقت حكومة مركزية تقريبا، أو شرطة يحافظون على الأمن أو ما أشبه ذلك. انما كان مالك أي قطعة من الأرض هو حاكمها وسيدها وسيد كل من أقاموا عليها. لقد كان أشبه بملك صغير، وكان مفروضا فيه أن يحميهم في مقابل خدمتهم له وحصوله على نصيب مما تنتجه حقولهم. لقد كان سيدا أو ملكا لهؤلاء الناس ممن كانوا يسمون بالعبيد الأرقاء. ولما كان ما لديه من أرض قد حصل عليها من سيده الأعلى، فانه بذلك قد صار مولى اقطاعيا له يتبعه ويقدم اليه المساعدات الحربية.

وحتى رجال الكنيسة قد أصبحوا جزءا من النظام الاقطاعي، ومن ثم

كانوا قساوسة وسادة اقطاعيين. وفي المانيا مثلا كان نصف الأرض والثروة تقريبا في أيدي الأساقفة ورؤساء الاديرة. وكان البابا نفسه سدا اقطاعيا.

فهذا النظام كله — كما تلاحظين — كان نظام درجات وطبقات. ولم يكن فيه مكان للمساواة. ففي أسفل السلم نرى العبيد الأرقاء يحملون ثقل البناء الاجتماعي كله، ومن فوقهم نرى الأسياد الصغار، فالأسياد الكبار، فالأسياد الأكبر، فالملك. وعلى عاتق العبيد الأرقاء، كانت تقع أيضا أعباء تكاليف الكنيسة والأساقفة ورؤساء الأديرة والكرادلة والقساوسة.

أما الأسياد الصغار والكبار، فما كانوا ليزاولوا أي عمل من شأنه أن ينتج طعاما، أو أي مورد آخر من موارد الرق والروة، لاعتقادهم أن هذه أعمال محطة لا تليق بأمثالهم. لقد كان القتال عملهم الرئيسي، فاذا لم يجدوا ما يدعوهم الى ممارسة هذه الحرفة فانهم كانوا يشغلون أنفسهم بالصيد، أو بالانهماك في المبارزات وفي ضروب من القتال صورية مصطنعة. وكانوا بالاضافة الى ما تقدم، قوما آميين ذوي خشونة وغلظة، لا يعرفون من وسائل اللهو وامتاع النفس، سوى القتال والطعام والشراب.

وهكذا وقع العبء كله في انتاج الطعام وغيره من ضروبات الحياة على الزراع والصناع. وفي قمة النظام كله نرى الملك، وكان مفروضا فيه أنه مولى للاله.

هذه كانت هي الفكرة من وراء النظام الاقطاعي. فنظريا كان على الأسياد الاقطاعيين أن يحموا مواليهم وعبيدهم، وعمليا كان أولئك الأسياد

يعتبرون أنفسهم هم القانون. وقلما أوقفهم أسيادهم أو الملك عند حدهم. وكان الزراع أضعف من أن يقاوموا مطالبهم، ولكونهم أقوى من عبيدهم استغلوهم وأخذوا من جهدهم أقصاه وأسلموهم الى حياة تعيسة بائسة.

ذلك كان حال ملال الارض دائما وجميع الأقطار. فملكية الأرض منحت مالكيها النبالة والشرف. فالفارس اللص الذي استولى على أرض وبنى قصرا يتحصن به أصبح سيدا نبيلا يحترمه الناس. وهذه الملكية منحت أربابها السلطان والنفوذ، ولهذا استعمل مالك الأرض سلطانه ونفوذه في أن يأخذ أقصى ما يستطيع أن يأخذ من الزراع والمنتج أو العامل. وحتى القوانين ساعدت ملاك الأراضي في ذلك، لأن القوانين كانت من وضعهم هم وأصدقائهم. وهذا هو السبب في أن كثير من الناس يرون أن الأرض يجب أن تكون ملكا شائعا للجميع، ممثلين في الدولة، لا للأفراد. فاذا كانت الارض ملكا للدولة أو الجماعة فذلك يعني أنها ملك لكل أبناء الدولة، ومن ثم لا يستطيع أحد أن يستغل الآخرين ممن يعملون فيها أو أن يحصل منها على منافع فيها اجحاف بالغير.

ولكن هذه الأفكار كانت. لم تعرف ولم تشع بعد. فأهل العصر الذي نتكلم عنه لم يفكروا في هذا الاتجاه. لقد كان عامة الناس وقتئذ يائسين، ولكنهم لم يروا لأنفسهم مخرجا مما كانوا يقاسونه من بؤس وشقاء، ولهذا تحملوا المشاق والصعاب، وواصلوا حياة العمل الذي لا أمل فيه.

ان عادة الخضوع والطاعة ظلت تفرض وتلح عليهم حتى تأصلت فيهم، واذا حدث ذلك فان الناس يكادون ويتحملون أي شئ.

وهكذا نرى مجتمعنا ينمو وقد تألف من الأسياد الاقطاعيين ومواليهم وخدمهم من جهة، ومن الفقراء من جهة أخرى. وحول قصر السيد الاقطاعر المشيد من الصخر كانت تتجمع أكواخ العبيد المقامة من اللبن أو الخشب. لقد كان هناك دنييان تعبد احداهما عن الأخرى كل البعد، وأعني بذلك دنيا السيد، ودنيا العبد. ومن المحتمل أن السيد قد اعتبر العبد يبعد بعض درجات فقط عن الماشية التي يرعاها.

وقد حدث أحيانا أن حاول بعض القساوسة الصغار أن يحملوا العبيد من سادتهم، لكن القساوسة ورجال الدين على العموم كانوا يقفون في صف الأسياد الاقطاعيين، وكان الأساقفة ورؤساء الأديرة في الواقع ونفس الأمر أسيادا اقطاعيين.

وهذا النوع من النظام الاقطاعي لم يوجد عندنا في الهند، ولكن وجد شئ شبيه به. فالدول الهندية في الحقيقة بحكامها ونبلائها وأسيادها لا تزال تحتفظ بعادات اقطاعية كثيرة. ونظام الطوائف الهندي مع اختلافه كل الاختلاف عن النظامالاقطاعي قد قسم المجتمع الهندي الى طبقات.

وفي الصين، كما أظن أني أخبرتك، لم يوجد مطلقا نظام الحكم الفردي، أو نظام الطبقة المفضلة، كما هو الحال في النظام الاقطاعي، ولكنهم عن طريق نظامهم القديم القائم على أساس الاختبارات فتحوا الباب أمام كل فرد ليصل الى أعلى منصب ومركز. ولكن ربما كان هناك من الناحية العملية قيود كثيرة.

وهكذا لم يكن في النظام الاقطاعي أي فكرة عن المساواة أو الحرية وانما كان هناك فكرة عن الحقوق والالتزامات بمعنى أن يتلقى

السيد الاقطاعي كحق له جزءا من انتاج الارض، وأن يقوم له مواليه بكل ضروب العمل والخدمة. وفي مقابل ذلك ألزم نفسه حمايتهم. ولكن الحقوق تذكر دائما، والالتزامات كثيرا ما تتجاهل. وانه ليوجد حتى الآن ملاك أراض كبار في الأقطار الأوربية وفي الهند ممن يحصلون على أموال طائلة من مستأجري أراضيهم من غير أن يقوموا أنفسهم بعمل أي عمل. أما فكرة الالتزام طال نسيانها.

وانه لشئ غريب أن نرى كيف أن قبائل أوربا البربرية التي كانت مغرفة بالحرية تسلم نفسها شيئا الى النظام الاقطاعي الذي أنكر عليها الحرية انكارا تاما. لقد كانت هذه القبائل تنتخب رؤساءها وتكبح من جماحهم اذا اقتضى الأمر، أما الآن فينتشر الاستبداد وحكم الفرد فيكل مكان، مع اهمال موضوع الانتخاب.

وليس من السهل أن أعلل لماذا حدث هذا التغير. فلعل العقائد والتعاليم التي نشرتها الكنيسة قد ساعدت على نشر هذه الأفكار غير الديمقراطية. فالملك أصبح ظل الله على الأرض. وكيف نستطيع أن نعصي أو نجادل ظل الاله القادر على كل شئ؟ ويبدو أن النظام الاقطاعي قد أدخل السماء والأرض فيطياته.

وفي الهند أيضا نجد أن التصورات الآرية القديمة عن الحرية تتغير تدريجيا، وهي في تغيرها هذا تصير أضعف حتى لتكاد تنسى.

ولكن في أوائل القرون الوسطى، كما أوضحت لك من قبل، كانت

هذه التصورات لا تزال حية الى حد ما كما ينبئنا بذلك "نيتيسارا شكرا تشاريا"[٧] والكتابات والنقوش الموجودة في جنوب الهند.

وقد عاد بعض الحرية في بطء الى أوربا عن طريق النظم الجديدة التي أخذت في الظهور. فجانب ملاك الأراضي وعمالها وارباب القصور الاقطاعيين وعبيدهم، كان هنا طبقتان أخريان من الصناع والتجار. وهؤلاء الصناع والتجار، كمل هم، لم يكونوا جزءا من النظام الاقطاعي. ففي عهد الاضطراب والفوضى لم تزدهر الحرف والصناعات، وكادت التجارة أن تنعدم. ولكن على توالي الأيام أخذت حركة التجارة تزداد شيئا فشيئا، وأهمية الصناع والتجار تظهر وتنمو. ونتيجة لذلك أصبح هؤلاء الصناع والتجار أغنياء، يقصدهم الاقطاعيون لاقتراض المال منهم. وكان الصناع والتجار يقرضونهم، ولكنهم كانوا يصرون على سادة الاقطاع المقترضين منهم أن يتنازلوا لهم عن بعض الامتيازات. وقد أدت هذه الامتيازات الى زيادة الصناع والتجار قوة على قوة.

ولهذا نجد، بدل أكواخ العبيد المتجمعة حول قصر السيد الاقطاعي، مدنا صغيرة تظهر وتنمو من منازل تحيط بكنيسة كبيرة أو صغيرة أو قاعة عامة للمدينة. وقد بدأ الصناع والتجار يكونون نقابات أو جمعيات، واتخذوا مراكز رئيسية لها من القاعات العامة للمدن والتي صارت تعرف فيما بعد بقاعات البلديات.

---

٧ كتاب هندي قديم عن النظرية السياسية. وقد كتب عل صورة قصص ليقرأها المهتمون بالسياسة من أمراء وغيرهم. "المترجم"

فهذه المدن التي أخذت في الظهور، مثل كولونيا **Cologne** وفرانكفورت وهامبورج، أصبحت تنافس الأسياد الاقطاعيين في قوتهم ونفوذهم.

أشعر المدن وأمثالها كانت طبقة جديدة تنمو ممثلة في الصناع والتجار الذين بلغوا من الثراء حدا جعلهم يتحدون حتى النبلاء. لقد كان كفاحا طويلا، وكثيرا ما كان الملك في حالة خوفه من نبلاء يقف في صف المدن.

أشعر بهذا القول أني مسرع الى الأمام أكثر مما ينبغي. لقد حدثتك في مستهل هذه الرسالة بأن فكرة القومية أو الشعور بالقومية، لم يكن موجودا في تلك العصور البعيدة. وكل ما كان هو أن الناس كانوا يفكرون في واجبهم وولائهم لسيدهم الأعلى. لقد أقسموا على أن يخدموه هو، لا أن يخدموا الوطن الذي ينتمون اليه. وحتى الملك في تلك العصور كان شخصا غامضا وبعيدا جدا. فاذا ثار السيد الاقطاعي ضد الملك، كان هذا انذارا للملك بأن يأخذ حذره، لأن عبيد السيد الاقطاعي ومواليه يتبعونه في كل شئ.

وهذا كان شئيا مختلفا جدا عن فكرة القومية التي ظهرت وانتشرت بعد ذلك بزمن طويل.

٧٢- نهاية العصور الوسطى

أول يولية سنة ١٩٣٢

دعينا ننظر مرة ثانية الى أوربا من القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر. ويبدو أنه كان في أوربا في هذه الفترة قدر هائل من الاضطراب والعنف والصراع. وكانت الأحوال وقتئذ في الهند أيضا سيئة نوعا، ولكن يغلب على الظن أن الهند كان يسودها الهدوء والسلام اذا ما قورنت بأوربا.

في تلك الفترة من التاريخ جلب المغول الباردو الى أوربا، وبدأتالأسلحة النارية تستخدم في القتال. وقد انتهز الملوك هذه الأسلحة فاستغلوها في القضاء على نبلائهم الاقطاعيين الثائرين عليهم.

وكان من عادة النبلاء أن يشن بعضهم على بعض حروبا خاصة. واذا كانت هذه الحروب قد أضعفتهم، فانها في الوقت ذاته سببت الفزع والقلق والمتاعب لأهل اقطاعياتهم الخاصة. ولما ازداد الملك قوة وضع نهاية لتلك الحروب الخاصة التي كانت تنشب بين النبلاء أنفسهم. وفي بعض الأماكن قامت حروب أهلية بين اثنين متنافسين كل منهما يدعي التاج والملك لنفسه.

ففي انجلتزة مثلا حدث صراع على الملك بين أسرتين: أسرة يورك وأسرة لانكاستر. فكل من هذه البيتين اتخذ وردة شعارا له. وكان شعار

أحدهما وردة بيضاء وشعار الآخر وردة حمراء. ولهذا سميت الحروب التي قامت بينهما "حروب الوردتين".. وقد قتل في هذه الحروب الأهلية عدد كبير من النبلاء الاقطاعيين، كما قتل كثيرون منهم في الحروب الصليبية.

وهكذا أمكن تدريجيا اخضاع النبلاء الاقطاعيين وكبح سلطانهم. ولطن هذا لم يعن أن السلطة التي كان يتمتع بها أولئك النبلاء قد انتقلت منهم الى العامة، وانما يعني أن الملك هو الذي ازداد قوة على قوة. وقد ظل الشعب كما هو لم يطرأ عليه غير تحسن قليل بسبب قلة الحروب الخاصة التي كانت تقوم بين النبلاء. أما الملك فقد آلت اليه كل القوة، واستحال الى ملك مستبد، ولم يكن الصراع بينه وبين طبقة التجار الجديدة قد ظهر بعد.

وأفظع من الحروب وحتى من المذابح كان الطاعون الكبيرة الذي تفشى في أوربا نحو عام ١٣٤٨ ميلادية. لقد انتشر هذا الوباء في جميع أرجاء أوربا من روسيا وآسيا الصغرى الى انجلترة، كما امتد الى مصر، وشمال افريقية، وآسيا الوسطى ثم الغرب.

وكان هذا الطاعون يسمى بالموت الأسود، لأنه قضى على حياة الملايين من البشر، وراح ضحيته نحو ثلث سكان انجلترة، وفي الصين وغيرها كانت قائمة الوفيات هائلة. ومن العجيب المدهش أن هذا الطاعون لم يأت الى الهند.

وقد أدت هذه الكارثة الشنعاء الى نقص كبير في سكان العالم.

وفي جهات كثيرة لم يكن هناك من الأيدي العاملة ما يكفي لحرث الارض وزرعها. ونتيجة لقلة الرجال، أخذت أجور العمال تميل الى الارتفاع بالقياس الى المستوى المنحط الذي كانت عليه من قبل.

ولكن ملاك الأراضي وأرباب الملكيات تحكموا في البرلمانات وأصدروا قوانين تقضي باجبار الناس على أن يعملوا بالأجور الضئيلة القديمة دون مطالبة بأية زيادة. ولما بلغ استغلال الزراع والفقراء وظلمهم مبغا يفوق طاقتهم واحتمالهم، لم يجدوا أمامهم الا أن يثوروا وقد قامت ثورات الزراع هذه واحدة بعد الأخرى في جميع أنحاء غرب أوربا.

وفي عام ١٣٥٨ قامت في فرنسا ثورة فلاحين سميت **Jacquerie** وفي انجلترة وجدت ثورة "وات تيلور" **Wat Tyler** والتي قتل فيها "تيلور" أمام ملك الانجليز في عام ١٣٨١. وقد أخمدت هذه الثورات، وكثيرا ما استدعى اخمادها استعمال منتهى القسوة والوحشية.

ولكن أفكارا جديدة عن المساواة كانت قد أخذت تنتشر في بطء. فالناس كانوا يسألون أنفسهم: لماذا يتحتم أن يكونوا فقراء، وأن يموتوا سغبا وجوعا في الوقت الذي يكون بعض الناس سادة نبلاء ويكون الآخرون عبيدا؟ ولماذا يرتدي بعض الناس أفخر الثياب، ثم لا يجد من عداهم حتى الثياب المهلهلة البالية يسترون بها أنفسهم.

لقد انهارت فكرة الخضوع القديمة للسلطة والتي كانت أساس النظام الاقطاعي كله. ومن ثم ثار الزراع مرة اثر مرة، ولكنهم كانوا ضعافا

غير منظمين، ولم تكن ثوراتهم تخمد الا ليندلع لهيبها من جديد فيما بعد.

وكانت الحروب بين انجلترة وفرنسا تكاد سجالا متصلة. فمنذ أوائل القرن الرابع عشر الى منتصف القرن الخامس عشر، كان بينهما ما يسمى بـ "حروب المائة سنة". وكانت "برجندي" في شرق فرنسا دولة قوية تتبع اسميا ملك فرنسا، ولكنها كانت دولة مشاغبة مثيرة للقلاقل والمشاكل. وقد تآمر الانجليز معها ومع دولة أخرى ضد فرنسا. وحدث أن كانت فرنسا لفترة من الزمن محاصرة من كل الجهات، كما حدث أن جزءا كبيرا من فرنسا الغربية كان لعهد طويل في حيازة انجلترة، ولهذا بدأ ملك انجلترا يسمي نفسه ملك انجترة وفرنسا.

وحينما بلغت فرنسا أحط دركات اضمحلالها وضعفها وبدت كائن الأمل قد تخلى عنها، عاد الامل والنصر اليها في صورة فتاة ريفية صغيرة هي جان دارك فتاة أورليانس.

وأنت تعرفين شيئا عن قصة جان دارك لأنها، كما أعلم، احدى البطلات الائي تعجبين بهن. فقد استطاعت جان دارك الفتاة الريفية أن ترد الى أبناء وطنها اليائسين ثقتهم بأنفسهم، وأن توحي اليهم بعمل عظيم هو طرد الانجليز من وطنهم. وكان جزاؤها أن حوكمت أمام محكمة التفتيش التي تضت باعدامها حرقا. فالانجليز بعد أن وقعت في أيديهم وتمكنوا منها جعلوا الكنيسة تدينها بالكفر وتحكم عليها بالاعدام ثم قاموا بحرقها في سوق مدينة "وران" عام ١٤٣٠. وبعد ذلك بسنوات

كثيرة نقضت الطنيسة الرومانية قرار الكنيسة السابق. ثم بعد عهد طويل اعتبروها قديسة !

لقد تكلمت جان دارك عن فرنسا وعن انقاذ وطنها من الاجنبي الدخيل، فكان هذا نوعا جديدا من الكلام. ففي ذاك الوقت كان الناس متشبعين بالأفكار الاقطاعية، ولم يكن يدور بخلدهم شئ عن القومية، ولهذا أدهشهم كلام جان دارك عن الوطن والوطنية وقلما فهموها. ونستطيع أن نرى في فرنسا منذ عهد جان دارك مطالع القومية.

وعندما طرد ملك فرنسا الانجليز من بلاده التفت الى "برجندي" التي سببت له كثيرا من المتاعب والقلاقل. وقد استطاع أخيرا أن يخضع هذهالدولة القوية التابعة له وأن يصيرها منذ حوالي سنة ١٤٨٣ ميلادية جزءا من فرنسا. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل حطم أو كبح جماح كل نبلاء الاقطاعيين. وهكذا نرى ملك فرنسا يصير ملكا قويا.

ومنذ امتصاص فرنسا لبرجندي وجعلها جزءا منها نرى فرنسا وألمانيا تقفان وجها لوجه، وتتصل حدود احداهما بحدود الأخرى. ولكن بينما كانت فرنسا ملكية مركزية قوية، نرى المانيا ضعيفة منقسمة الى دول كثيرة.

وحاولت انجلترة فتح سكتلندة التي كثيرا ما حاربت في صف فرنسا ضدها، وكان هذا أيضا كفاحا طويلا، ولكن الاسكتلنديين بقيادة "روبرت بروس" هزموا الانجليز عام ١٤١٣ في "بنوك بيرن" **"Bannockburn"**

وحتى قبل هذا التاريخ حاول الانجليز أكثر من مرة في القرن الثاني عشر أن يفتحوا ارلندة. كان ذلك منذ سبعمائة سنة، وكثيرا ما قامت في ارلندة منذ هذا التاريخ حروب وثورات وارهابات. فهذا القطر الصغير أبى أن يخضع ويستسلم لسيطرة أو سيادة دولة أجنبية، وقد ثار من جيل معلنا أنه لن يخضع ويستسلم.

وفي القرن الثالث عشر، أعلن شعب صغير من شعوب أوربا، هو الشعب السويسري، حقه في الحرية. فسويسرا كانت تكون جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة التي كانت تحكمها النمسا. ولا بد أنك قرأت قصة "وليام تل" William Tell وابنه، ولكن المحتمل أن هذا ليس صحيحا. ولكن الأعجب من هذا هو قصة ثورة الفلاحين السويسريين ضد الامبراطورية الكبرى ورفضهم الخضوع لها. فقد ثارت أولا ثلاث مقاطعات وكونت في عام ١٢١٩ ميلادية "عصبة أبدية" كما سموها، وقد انضمت اليهم مقاطعات أخرى، وفي عام ١٤٩٩ أصبحت سويسرية جمهورية حرة تتكون من اتحاد مقاطعات مختلفة يسمى بالاتحاد السويسري. هل تذكرين شعل النيران التي شاهدناها على قمم جبال كثيرة في سويسرا في أول أغسطس؟ لقد كان ذلك يوم السويسريين القومي، وعيد ثورتهم الذي كانت الشعلة فيه شارة التمرد على الحاكم النمسوي.

وفي شرق أوربا، مذا كان يحدث في القسطنطينية؟ تذكرين أن الصليبيين الاتينيين استولوا على هذه المدينة من الاغريق سنة ١٢٠٤

ميلادية. ولكن الاغريق طردوهم منها سنة ١٢١٦ وأعادوا تأسيس الامبراطورية الشرقية مرة أخرى.

بيد أن خطرا آخر أكبر كان في طريقه الى الظهور. ذلك أن المغول حينما تقدموا عبر آسيا فر منوجههم خوفا خمسون ألفا من الأتراك العثمانيين. وهؤلاء الأتراك العثمانيون يختلفون عن الأتراك السلاجقة، ويمتون الى عثمان مؤسس الدولة العثمانية. ومن ثم سموا بالعثمانين أو "الأتراك العثملي".

وهؤلاء العثمانيون الفارون احتموا بالسلاجقة في آسيا الغربية ويبدو أن العثمالنيين أخذوا في القوة والانتشار حينما بدأ السلاجقة في الضعف.

وبدل أن يهاجموا القسطنطينية، كما فعل كثيرون غيرهم من قبل، نراهم يمرون بها ويجتازونها الى أوربا سنة ١٣٥٣. وفي أوربا نراهم ينتشرون انتشارا سريعا ويحتلون بلغاريا والصرب ويتخذون من "أدرنة" **Adrianople** عاصمة لهم. وهكذا انتشرت الامبراطورية العثمانية على جانبي القسطنطينية في آسيا وأوربا، وأحاطت بها، ولكن هذه المدينة ظلت خارجها.

بيد أن الامبراطوريى الرومانية الشرقية المزهوة بنفسها والبالغة من العمر ألف سنة ظلت تنكمش وتنكمش حتى استحالت في النهاية الى مدينة في النهاية الى مدينة القسطنطينية واقتصرت عليها وحدها. وعلى الرغم من ابتلاع الاتراك للامبراطورية الشرقية، فان الصلات بين أسرتي السلاطين العثمانيين وأباطرة هذه الامبراطورية كانت – كما يبدو –

صلات ود وصداقة ومصاهرة متبادلة. وأخيرا سقطت منذ الآن الى الأتراك العثمانيين ونلغي الاتراك السلاجقة من حسابنا.

ان سقوط القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين كان حدثا تاريخيا خطيرا هز أوربا هزا عنيفا. فسقوطها يعني القضاء النهائي على الامبراطورية الشرقية الاغريقية القديمة التي دامت ألف عام، كما يعني غزوا اسلاميا آخر لأوربا. وقد استمر توسع الاتراك العثمانيين، حتى لقد بدا أحيانا أنهم يسفتحون كل أوربا، ولكنهم أوقفوا عند أبواب مدينة فينا.

وقد حول الأتراك العثمانيون كنيسة القديسة صوفيا الكبرى التي بناها الامبراطور جستنيان في القون السادس الميلادي الى مسجد أسموه "أيا صوفيا" كما نهت بعض نفائس هذه الكنيسة. وقد أثار هذا الحادث مشاعر أوربا، ولكنها وقفت حياله عاجزة لا تستطيع أن تفعل شيئا.

ومهما يكن من أمر فالواقع أن سلاطين العثمانيين كانوا متسامحين جدا مع الكنيسة الاغريقية الأرثوذكسية، حتى أن السلطان محمد الثاني نصب نفسه بعد سقوط القسطنطينية راعيا للكنيسة الاغريقية. ثم جاء سلطان آخر يسمى سليمان القانوني واعتبر نفسه ممثل الأباطرة الشرقيين ولقب نفسه بلقب القيصر الذي كان رمزا على السلطان والقوة في القديم.

ولا يبدو أن اغريق القسطنطينية لم يرحبوا بالأرتاك العثمانيين. لقد رأوا أن الامبراطورية القديمة في تدهور وانهيار. وفي الوقت ذاته لم ينسوا أن تجربتهم مع الصليبيين اللاتينيين كانت تجربة قتسية سيئة، ولقد آثروا

الأتراك وفضلوهم على البابا وعلى مسيحيي الغرب. ويروى أن نبيلا بيزنطيا قال أثناء حصار القسطنطينية الأخير عام **١٤٥٣**: "ان عمامة النبي أفضل من تاج البابا المرصع باللآلئ".

وقد أنشأ الأتراك فرقة عسكرية غريبة تدعى "فرقة الانكشارية" [٨]، وذلك بأن أخذوا بعض الأطفال المسيحيين، كنوع من الجزية المفروضة منهم على المسيحيين وربوهم ونشئوهم منذ الصغر تنشئة عسكرية خاصة. لقد كان حرمان صبية صغار من حنان الآباء والأمهات والتفريق بينهم ضربا من القسوة والوحشية، ولكن أولئك الصبية جنوا من وراء ذلكأيضا بعض المزايا، فقد تدربوا تدريبا عاليا، وصاروا بهذا التدريب يمثلون الارستقراطية العسكرية. وكان السلاطين العثمانيون ينظرون الى فرقة الانكشترية أنها دعامة من دعائم قوتهم.

وفي أسلوب مشابه تكونت في مصر فرقة تدعى "المماليك" وهي تقابل فرقة الانكشارية. وقد يبغ المماليك من القوة مبلغا جعلهم لفترة من التاريخ سلاطين مصر وحكامها.

ويبدو أن السلاطين العثمانيين باستيلائهم على القسطنطينية قد ورثوا عمن سبقهم من الأباطرة البيزنطيين كثيرا من الفساد وعادات الترف والبذخ السيئة. فنظام البيزنطيين الامبراطوري المنحط قد غشيهم وأطبق عليهم حتى أوهن في بطء قوتهم وأضعفهم شيئا فشيئا. ولكنهم ظلوا

---

٨ الانكشاري كلمة معناها الفدائي .

حقبة من الزمن أقوياء، وظلت أوربا المسيحية في خوف منهم.

كذلك فتحوا مصر، واستولوا على لقب الخلافة من ممثل العباسيية الضعيف الذي لا حول له ولا قوة، والذي كان يلقب وقتئذ بالخليفة. ومنذ ذلك الوقت أسمى السلاطين العثمانيون أنفسهم خلفاء، واستمر الأمر كذلك حتى جاء مصطفى كمال باشا منذ عدة سنوات، فألغى كلا من السلطنة والخلافة.

ان تاريخ سقوط القسطنطينية له اعتبار هام في التاريخ. فهو ينظر اليه على أنه نهاية عصر وبداية عصر آخر. فالعصور الوسطى قد انتهت، وكذلك عصور الظلام التي دامت ألف سنة. ثم ظهرت حركة انتعاش في أوربا، وبدأنا نلمح في أفقها حياة ونشاطا جديدين. وهذا ما يسمى ببدء عصر النهضة، أو عصر احياء العلوم والفنون.

فالناس في أوربا يبدون وكأنما قد أفاقوا واستيقظوا من نوم طويل. ونراهم يرجعون بأبصارهم في الماضي عبر القرون الى اليونان القديمة، أيام مجدها وعظمتها، ليستمدوا منها الوحي والالهام. وتكاد تكون هناك ثورتان شنهما العقل: ثورة على نظرة الحياة الكئيبة القاتمة المرعبة التي تشجع عليها الكنيسة، وثورة على السلاسل والأغلال التي تقيد النفس الانسانية. فحب الاغريق القديم للجمال يظهر، وأوربا تزهر بأعمال الفن الرائعة في التصوير والنحت والعمارة.

وكل ذلك لم يحدث بطبيعة الحال فجأة كنتيجة لسقوط

القسطنطينية، وانه لسخف من القول أن يزعم زاعم ذلك. ان استيلاء الأتراك على المدينة قد ساعد قليلا في سرعة عجلة التغير، ذلك لأنه أدى بعدد كبير من العلماء وذوي المعرفة الى أن يغادروا المدينة ويرحلوا الى الغرب. وهؤلاء حملوا معهم الى ايطاليا نفائس الآداب والثقافة الاغريقية في القوت الذي كان فيه الغرب متهيئا لأن يتقبلها ويقدرها. وبهذا المعنى ساعد سقوط المدينة قليلا في ظهور النهضة.

ولكن هذا ليس الا سببا ثانويا من أسباب التغير الهام النخطير. فالأدب والفكر الاغريقي لم يكن شيئا جديدا في ايطاليا أو في الغرب المعروف في القرون الوسطى. فالثقافة الاغريقية كان يدرسها الناس في الجامعات، كما كان العلماء يعرفونها. ولكنها كانت قاصرة على قلة قليلة، ولعدم التئامها مع نظرة الحياة السائدة لم تنتشر.

السبب الأساسي هو أن ابتداء الشك في عقول الناس مهد التربة وهيأها في بطء لبذور نظرة جديدة في الحياة. فالناس كانوا غير راضين عن الأوضاع، كما كانت، ومن ثم أخذوا يبحثون عن الأشياء التي ترضيهم أكثر. وبينما كانوا في حالة الشك والتوقع هذه اكتشفت عقولهم فلسفة الاغريق الجاهلية القديمة وشربت من أغوار أدبها. وقد بدا لهم أن هذا هو ما كانوا ينشدونه، ولهذا ملأهم الاكتشاف حماسة.

ان بدء النهضة كان في ايطاليا، ولكنها انتشرت بعد ذلك في فرنسا وانجلترة وغيرهما، ولم تكن النهضة مجرد اعادة اكتشاف الفكر والأدب

الاغريق، وانما أكبر كثيرا وأعظم. لقد كانت المظهر الخارجي لعملية الجيشان التي ظلت مختمرة تحت السطح في أوربا عهدا طويلا، وهذا الجيشان المختمر كان لا بد أن يظهر في صور شتى، وكانت النهضة صورة من هذه الصور.

٧٣- اكتشاف الطرق البحرية

٣ يوليو سنة ١٩٣٢

لقد وصلنا الآن في حديثنا عن أوربا الى المرحلة التي أخذت عندها القرون الوسطى تنقرض وتزول وتفسح المكان لدنيا جديدة ونظام جديد. في هذه المرحلة نرى عدم القناعة والرضا بالأحوال القائمة، وهذا الشعور هو باعث التغير والتقدم. فكل الطبقات التي استغلها النظام الاقطاعي والنظام الديني كانت تسودها حال من عدم القناعة والرضا.

فنحن نرى أن ثورات الزراع تأخذ طريقها الى الظهور. ولكن الزراع كانوا لا يزالون مختلفين ضعافا، ولم يستطيعوا، على الرغم من ثوراتهم، أن يكسبوا لأنفسهم شيئا يذكر. فاليوم الذي يصبحون فيه قوة لها وزنها وحسابها كان لم يحن بعد.

والصراع الحقيقي كان بين الطبقة الاقطاعية القديمة وبين الطبقة الوسطى الجديدة التي بدأت تستيقظ وتشق سبيلها الى القوة والسلطة. فالنظام الاقطاعي كان قائما على أساس أن الأرض هي مصدر الثروة، ولكننا نرى الآن أن نوعا جديدا من الثروة كان يتراكم ويتدس وليس مصدره الأرض، وانما كان مصدره الصناعة والتجارة، وقد انتفعت الطبقة الوسطى الجديدة أو الطبقة البرجوازية بمصدر الثروة هذا واستمدت منه قوة.

وهذا الصراع كان في الواقع صراعا قديما، وما نرى الآن ليس الا تغيرا في المواقف النسبية لكل من الفريقين. فالنظام الاقطاعي، ولو أنه كان لا يزال مستمرا، نراه يأخذ موقف الدفاع، بينما الطبقة البرجوازية الواثقة من قوتها الجديدة تقف موقف الهجوم. ويدوم هذا الصراع والكفاح مئات من السنين يكون في خلالها أكثر فأكثر في جانب الطبقة البرجوازية وصالحها، وهو يتنوع في أقطار أوربا المختلفة، ففي أوربا الشرقية لا يكاد يكون لهذا الصراع والكفاح أثر ظاهر ملموس، وانما تظهر البرجوازية أول ما تظهر في غرب أوربا.

فتحطيم الحواجز القديمة كان ايذانا في اتجاهات وميادين كثيرة. لقد كان ايذانا بالتقدم في ميدان العلم، وميدان الفن، وميدان الأدب، وميدان العمارة، وميدان الاكتشافات الحديثة. فالتقدم يحدث دائما على هذا النحو عند ما تحطم النفس الانسانية أغلالها وتخرج من محيطها الضيق المحدود الى عوالم فسيحة منبسطة، وحتى في الهند بلادنا سنرى عند ما تعود الحرية اليها أن شعبنا سينطلق بعبقريته وينتشر في كل الاتجاهات والميادين.

وعند ما يتراخى ويضعف نفوذ الكنيسة وسلطانها نرى الناس أقل انفاقا على الكنائس الكبيرة والصغيرة وأضن بالمال من أن يذهب في هذا الاتجاه. وبدل تشييد الكنائس نرى مباني جميلة تظهر في أماكن كثيرة، ولكنها لا تعدو قاعات بلديات أو ما أشبه ذلك. كذلك نرى الطراز القوطي في البناء يتقهقر ويحل محله طراز جديد.

وفي الوقت الذي كانت فيه أوربا الغربية ممتلئة بنشاط جديد بدأ بريق ذهب الشرق يخطف الأبصار ويغرى به ذوي الطموح. فقصص "ماركوبولو" وغيره من الرحالة الذين رحلوا الى الهند والصين أثارت خيال أوربا، ودفعت الى البحر بكثيرين ممن يطمعون في الثراء الذي لا يحد ولا يوصف.

وفي هذا سقطت القسطنطينية، وتحكم الأتراك العثمانيون في الطرق البرية والبحرية المؤدية الى الشرق، ولم يشجعوا التجارة كثيرا. وقد استفز موقف الأتراك هذا غضب التجار الكبار والصغار، كما أثار حفيظة طبقة المخاطرين الجديدة ممن يحلمون بذهب الشرق ويطمعون في الحصول عليه. ومن ثم حاولوا اكتشاف طرق جديدة توصلهم الى الشرق الذهبي.

ومن المسلم به أن كل تلميذ في مدرسة يعرف الآن أن الأرضي التي نعيش عليها كروية الشكل وأنها تدور حول الشمس، هذا شئ واضع لنا جميعا، ولكنه لم يكن واضحا جدا في العصور القديمة، وكان كل من يفكر على هذا النحو أو يقول مثل هذا القول يسبب لنفسه المشاكل والمتاعب مع الكنيسة.

ولكن على الرغم من خشية الكنيسة والخوف منها أخذ عدد من يقولون بكروية الأرض يتزايد ويتزايد، ومن هؤلاء من قال: "اذا كانت الأرض كروية فلا بد أن يكون الوصول اذن الى الهند والصين من جهة الغرب ممكنا". وقد رأى فريق آخر امكانية الوصول الى الهند بالطواف حول افريقية.

ويجب أن تتذكري أن قناة السويس لم تكن موجودة وقتذاك، وأن السفن لم تكن تستطيع أن تذهب من البحر الأبيض المتوسط الى البحر الأحمر. انما كانت السلع والبضائع تنقل بين هذين البحرين عن طريق البر محمولة في الغالب على ظهور الابل والجمال حيث تنتظرها على كلا الجانين في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر سفن جديدة تنقلها الى حيث يراد لها أن تصل شرقا وغربا. وقد أصبح هذا الطريق أكثر صعوبة بعد استيلاء تركيا على الشام ومصر.

ولكن الطمع في الحصول على غنى الهند وخيراتها ظل يغري الناس ويستثيرهم ويجتذبهم. وقد كانت اسبانيا والبرتغال أسبق دول الغرب الى الاضطلاع بأسفار البحر والاكتشافات، فاسبانيا في ذلك العهد كانت قد طردت آخر من بقي من عرب الأندلس في غرناطة. وزواج فرديناند صاحب أراجونة من ايزابلا صاحبة قتشالة وحد اسبانيا المسيحية. وفي عام ١٤٩٢ أي بعد أن استولى الأتراكعلى القسطنطينية على الجانب الآخر من أوربا بنحو خمسين سنة سقطت غرناطة العربية، وأصبحت اسبانيا عقب ذلك دولة مسيحية كبرى في أوربا.

ثم نرى المنافسة تظهر بين البرتغال واسبانيا، فالبرتغاليون يحاولون الوصول الى الشرق والاسبانيون يحاولون الوصول الى الغرب، وكان أول تقدم كبير هو اكتشاف البرتغاليين للرأس الأخضر. فهذا الرأس واقع في أقاصي غرب افريقية، فاذا نظرت الى خريطة افريقية فانك سترين أن

الانسان اذا أبحر من أوربا الى هذا الرأس فانه سيتجه الى الجنوب الغربي، وعند رأس فردي يطوف الانسان حول الزواية ومن هناك يتجه الى الجنوب الشرقي. فاكتشاف هذا الرأس كان علامة على الرجاء القوي، لأنه جعل الناس يعتقدون أن في امكانهم أن يطوفوا حول افريقية في اتجاههم الى الهند.

على أية حال لقد مرت أربعون سنة أخرى قبل أن يتمكن الناس من الطوفان حول افريقية. ففي عام ١٤٨٦ أبحر برتغالي آخر يدعى "برثلوميو دياز" وطاف حول طرف افريقية الجنوبي، وهذا الجزء هو ما يعرف الآن برأس الرجاء الصالح. وبعد هذا التاريخ بسنوات قليلة استغل برتغالي آخر يدعى "فاسكو دا جاما" هذا الاكتشاف وأبحر الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح، وقد وصل فاسكو دا جاما "كاليكوت" على شاطئ "مالابار" عام ١٤٩٨.

وهكذا فاز البرتغال في سباق الوصول الى الهند. ولكن في الوقت ذاته كانت هناك أشياء عظيمة هامة تعود بالنفع على اسبانيا تحدث على الجانب الآخر من العالم. فكرستوفر كولومبوس كان قد وصل الى العالم الأمريكي عام ١٤٩٢، وكولومبوس هذا كان رجلا فقيرا من أهل "جنوه"، ولما كان يعتقد بكروية الأرض فانه أراد أن يصل الى اليابان والهند عن طريق البحر غربا، ولم يفكر أن الرحلة تستغرق من الزمن بمقدار ما استغرقت فعلا، وقد ظل يتنقل من بلاط ملك آخر لعله يستطيع أن يجد

ملكا أو أميرا يعينه على تحقيق رحلته الاستطلاعية، وفي النهاية وافق فرديناند وايزابلا ملكا اسبانيا على مساعدته وبدأ كولومبوس رحلته في قافلة مؤلفة من ثلاث سفن صغيرة عليها ثمانية وثمانون بحارا.

لقد كانت رحلة الى المجهول تجلت فيها الشجاعة والمخاطرة، فلم يكن أحد يدري ماذا كان يكنه القدر له في الطريق، ولكن كولومبوس كان مؤمنا، وكان له ما يبرر ايمانه. وبعد تسعة وستين يوما من ابحاره وصل كولومبوس ورجاله الى أرض ظنها الهند، ولكنها كانت في الواقع احدى جزائر الهند الغربية.

وكولومبوس لم يصل أبدا الى القارة الأمريكية، ولكنه ظل يعتقد الى آخر حياته أنه وصل الى آسيا، وقد استمرت غلطته الغريبة هذه حتى اليوم، فهذه الجزائر لا تزال تدعى جزائر الهند الغربية، ولا يزال سكان أمريكا الأصليون حتى الآن يسمون بالهنود أو الهنود الحمر.

ثم عاد كولومبوس الى أوربا، وفي العام التالي لعودته أبحر الى الجزيرة التي اكتشفها في قافلة من السفن أكثر عددا من القافلة الأولى.

ان اكتشاف الطريق الجديد الى الهند، كما كان يعتقد وقتذاك أثار اهتمام أوربا اثارة شديدة، وقد دفع نجاح كولومبوس فاسكو دا جاما الى أن يسرع في رحلته ويصل الى "كاليكوت". وكان ورود أنباء الاكتشافات الجديدة في الشرق والغرب الى أوربا يهز مشاعر أهلها ويزيد من اهتمامهم وحماسهم.

وكانت اسبانيا والبرتغال تناقس كل منهما الأخرى على سيادة ما اكتشف من الأراضي الجديدة. عندئذ ظهر البابا على المسرح ،ولكي يمنع أي صراع بين الاسبانيين والبرتغاليين، قرر أن يكون كريما على حساب غيره من الناس. ففي عام ١٤٩٣ أصدر أمرا بابويا يدعى أمر الحد الفاصل، فقد رسم خطأ أو حدا وهميا من الشمال الى الجنوب ويمتد مائة فرسخ غرب جزائر الأزور، وأعلن أن سيادة البرتغال تتضمن كل الأقطار غير المسيحية حتى شرق هذا الحد الخيالي، وأن سيادة اسبانيا تتضمن كل ما هو غرب هذا الحد من الأقطار. وهذه هدية عظيمة من البابا لاسبانيا والبرتغال تتضمن كل العالم تقريبا ما عدا أوربا، وفي الوقت نفسه لم تكلفه هو أي شئ!

والأزور جزائر في المحيط الأطلسي، والحد الذي يمتد مائة فرسخ أو ثلثمائة ميل غربها من شأنه أن يترك كل أمريكا الشمالية ومعظم أمريكا الجنوبية للغرب. وهكذا جعل البابا من الأمريكتين تقريبا هدية لاسبانيا، ومن الهند والصين واليابان وغيرها من الأقطار الشرقية وكذلك افريقية هدية للبرتغال.

وقد بدأ البرتغاليون يستولون على هذا الملك أو العالم الشاسع المترامي الأطراف، ومع أن هذا الأمر لم يكن سهلا فانهم تقدموا بعض التقدم واستمروا يتوسعون شرقا، وقد بلغوا "جوا" عام ١٥١٠ و"ملقا" في شبه جزيزة الملايو عام ١٥١١، و"جاوا" استولوا على هذه الأقطار، وانما معناه أنهم استولوا على بعض أماكن قليلة فيها. أما الدور الذي

قاموا به فيما بعد في الشرق فسيكون موضوع رسالة قادمة.

ومن بين البرتغاليين الذين وفدوا الى الشرق رجل يدعى "فرديناند ماجيلان"، وقد حدث أن اختلف ماجيلان هذا مع أسياده البرتغاليين، ولهذا عندما عاد الى أوربا اكتسب الجنسية الاسبانية وصار اسبانيا. ولما كان قد رحل الى الهند والجزائر الشرقية بالطريق الشرقي مارا برأس الرجاء الصالح فانه أراد أن يذهب الى الهند والجزائر الشرقية مرة أخرى بالطريق الغربي مارا بأميركا، ومن المحتمل أنه عرف أن الأرض التي اكتشفها كولومبوس لا يمكن أن تكون آسيا. وقد حدث في الواقع أن اسبانيا اسمه "بلبوا" عبر عام ١٥١٣ جبال بنما **Panama** في أمريكا الوسطى ووصل الى المحيط الهادي، ولسبب غير معروف سمى "بلبوا" هذا المحيط البحر الجنوبي، ثم وقف على شاطئه وأعلن أن البحر الجديد وكل الأرض التي يحيط بها ماؤه انما ملك لسيده ملك اسبانيا.

وفي عام ١٥١٩ بدأ ماجيلان رحلته الغربية والتي تعتبر أكبر وأعظم هذه الرحلات جيمعا، وقد تألفت قافلته من خمس سفن ومائتين وسبعين رجلا. وبهذه القافلة عبر المحيط الأطلسي الى امريكا الجنوبية واستمر متجها جنوبا حتى وصل الى نهاية القارة، ولم يفقد في كل هذه الرحلة غير سفينتين، احداهما غرقت والأخرى لاذت بالهرب والفرار. وبالسفن الثلاث الباقية عبر ماجيلان المضيق الضيق بين الطرف الجنوبي لقارة أمريكا الجنوبية وجزيرة أرض النار، وخرج الى البحر على الجانب

الآخر. وقد سمى ماجيلان هذا البحر "المحيط الهادي" لأنه كان هادئا جدا بالقياس الى المحيط الأطلسي. أما المضيق فأطلق عليه اسمه، ويعرف الآن باسم "مضيق ماجيلان".

ثم استمر ماجيلان مبحرا بشاجعة صوب الشمال ثم الشمال الغربي عبر البحر المجهول، وكان هذا أخطر جزء في الرحلة التي لم يدر ولم يقدر أحد أنها ستستغرق كل الوقت الذي استغرقته، وقد ظلموا وسط المحيط نحو أربعة أشهر، أو على التحديد مائة يوم وثمانية أيام يعيشون على قليل من الزاد والماء.

وأخيرا وبعد حرمان شديد وصل ماجيلان ورفاقه الى جزائر الفيلبين، وقد أحسن سكان هذه الجزائر لقاءهم وأمدوهم بالطعام وتبادلوا الهدايا معهم، ولكن الاسبانيين كانوا مستفزين متغطرسين، وقد اشترك ماجيلان في بعض حروب صغيرة نشبت بين زعيمين من زعماء هذه الجزائر وقتل فيها، كذلك قتل سكان هذه الجزائر بعض الاسبانيين بسبب موقفهم المتغطرس المتعجرف.

وكان الاسبانيون يبحثون عن جزائر التوابل التي ترد منها التوابل النادرة الثمينة.وقد استمروا يبحثون عنها، وأثناء ذلك عطبت احدى السفن الثلاث الباقية ولما يئسوا منها أحرقوها. عندئذ قرروا أن تعود احدى السفينتين الباقيتين الى اسبانيا عن طريق المحيط الهادي، وأن تعود الأخرى عن طريق رأس الرجاء الصالح.

ولكن لم تكد السفينة الأولى تبحر قليلا عائدة الى اسبانيا حتى أسرها البرتغاليون. أما السفينة الثانية واسمها "فيتوريا" فمضت في سبيلها زاحفة حول افريقية حتى وصلت "اشبيلية" في اسبانيا وعليها ثمانية عشر رجلا فقط عام ١٥٢٢، أي بعد ثلاث سنوات من ابحارها. لقد طافت حول العالم، وكانت أول سفينة فعلت ذلك.

أشعر بأني كتبت في شئ من الاسهاب عن رحلة السفينة "فيتوريا" لأنها كانت في الواقع رحلة عجيبة. ونحن الآن نعبر البحار على سفن كبيرة مزودة بكل وسائل الراحة، ولكن فكري في أولئك الرحالة الأوائل الذين واجهوا كل أنواع المخاطر والأهوال، والذين ألقوا بأنفسهم في المجهول، ثم اكتشفوا الطرق البحرية لمن جاء بعدهم. ان الاسبانيين والبرتغاليين في تلك العصور كانوا متكبرين ومتعجرفين ومتوحشين، ولكنهم كانوا ممتلئين بروح المخاطرة وكانت شجاعتهم تستدعي العجب والاعجاب.

وبينما يطوف ماجيلان حول العالم كان كورتيز **Cortés** يدخل مدينة المكسيك ويغزو الامبراطورية الأزتكية باسم ملك اسبانيا. لقد حدثتك قليلا من قبل عن هذه الامبراطورية وعن الحضارة المايوية التي ظهرت في أمريكا. وقد وصل كورتيز المكسيك عام ١٥١٩، ووصل "بيزارو" **Pizarro** امبراطورية الانكا حيث بيرو **Peru** الآن في أمريكا الجنوبية عام ١٥٣٠. ولقد نجح كورتيز وبيزارو في القضاء على هاتين الامبراطوريتين القديمتين بالشجاعة والجراءة والغدر والوحشية واستغلال

الخلافات الداخلية التي كانت بين أبنائهما، ولكن كلتا الامبراطوريتين كانت متخلفة عن عصرها، وكانت من بعض النواحي بدائية جدا، وهكذا انهارتا كما ينهار بيت من الورق المقوى عند أول دفعة.

والى حيث ذهب الرواد والمستكشفون الكبار خرجت جيوش من المجازفين المخاطرين طمعا في السلب والنهب والغنائم. وقد قاست أمريكا الاسبانية خاصة من هؤلاء، حتى كولومبوس عومل منهم أسوأ معاملة، وفي الوقت نفسه تدفق سيل الذهب والفضة بلا انقطاع على اسبانيا من بيرو والمكسيك، فالكميات الهائلة التي كانت تصل الى اسبانيا من هذين المعدنين النفيسين أذهلت أوربا وخطفت ببريقها ولألائها أبصار أهلها وجعلت اسبانيا دولة أوربا السائدة.

وقد انتشر هذا الذهب وهذه الفضة في أقطار أوربية أخرى، ولهذا كان هناك وفرة من المال تستخدم في شراء منتجات الشرق.

وكان طبيعيا أن يلهب نجاح اسبانيا والبرتغال أخيلة الشعوب في أقطار أخرى، ولاسيما في فرنسا وانجلترا وهولندة والمدن الالمانية الشمالية. لقد أجهدوا أنفسهم أول الأمر في أن يجدوا طريقا لآسيا وأمريكا بواسطة طريق شمالي شمال النرويج يؤدي الى الشرق، وعن طريق الأرض الخضراء "جرينلاند" الى الغرب، ولكنهم فشلوا في هذا. فلم يكن أمامهم الا أن يتخذوا الى الشرق والغرب الطرق التي صارت معروفة مألوفة.

فما أعجب هذا العصر الذي بدت فيه الدنيا وكأنما تكشف عن نفسها وتظهر كل كنوزها وعجائبها! ففيه بدأت الاكتشافات الجديدة تتوالى واحدا بعد الآخر من محيطات وقارات، وفيه الغنى الذي لا يعد ولا يحصى ينتظر كلمة السر السحرية: "افتح يا سمسم"! ولا بد أن الهواء نفسه كان يشيع فيه سحر تلك المخاطرات.

ان الدنيا في عصرنا الحاضر مكان ضيق، ولا يكاد يكون هناك أجزاء منها لم تكتشف بعد. هكذا يبدو الامر. ولكن ذلك ليس كذلك، لان العلم قد فتح آفاقا وعوالم كبيرة تنتظر من يردوها ويكشفها. أما روح المخاطرة فلا تنقص الدنيا اليوم، ولاسيما الهند!

٨٧- انجلترة تقطع رأس ملكها

٢٩ أغسطس سنة ١٩٣٢

سنشغل الآن بعض وقتنا بالحديث عن تاريخ انجلترة . ولم يكن تغاضينا عن ذلك من قبل الا لأنه لم يكن في انجلترة خلال العصور الوسطى شئ هام يستحق الذكر، فقدكانت أكثر تخلفا من فرنسا وايطاليا.

على أية حال ان جامعة أكسفورد كانت قد أصبحت أحد مراكز العلم الشهيرة، ثم تلتها بعد قليل في الشهرة والمكانة العملية جامعة كمبردج . والفضل يرجع الى جامعة أكسفورد في اخراج "وايكليف" **Wycliffe** الذي كتبت لك عنه من قبل.

والاهتمام الرئيسي في تاريخ الانجليز القديم يتمركز حول تطور البرلمان والحياة البرلمانية، فمنذ العصور الأولى والنبلاء الانجليز يبذلون الجهد في الحد من قوة الملك وسلطته . وفي هذا السبيل ظهر "المجنا كارتا" عام ١٢١٥، وفيما بعد ذلك بقليل أخذت بوادر ابرلمان تلوح في الأفق، ولو أنها كانت بوادر فجة.

لقد تمثل أول طور لبرلمانها في مجلس لوردات مكون من النبلاء والأساقفة الكبار، ثم تلا ذلك طور أكثر أهمية تمثل في مجلس منتخب من الفرسان وملاك الأراضي الصغار وبعض الممثلين للمدن . وفيما بعد

تطور هذا المجلس المنتخب الى ما يعرف الآن بمجلس العموم، وقد مثل كلا هذين المجلسين ملاك الأراضي والأغنياء والتجار.

وكان لمجلس العموم سلطة قليلة، وقد تقدم أعضاؤه بالتماسات الى الملك ضمنوها مطالبهم وشكايتهم، وشيئا فشيئا بدءوا يتدخلون في الضرائب . ولهذا استن الملك تقليدًا جديدًا هو الحصول على موافقتهم في كل ما يتصل بالضرائب.

ان قوة المال قوة عظيمة دائمًا، ولهذا ازداد البرلمان، ولا سيما مجلس العموم، قوة وهيبة بمقدار ما اكتسبه من حق مراقبة الشئون المالية والتصديق عليها.

وكثيرًا ما كان هناك خلاف بين الملك ومجلس العموم، ولكن البرلمان ظل أداة ضعيفة، بيد أن حكام العهد التيودوري، كما أخبرتك، كانوا ملوكًا لا معقب على حكمهم تقريبًا، وقد استطاعوا بذكائهم ومهارتهم أن يتفادوا الدخول مع البرلمان في صراع سافر.

لقد نجت انجلترة من شتى أنواع الصراع الديني المؤلم التي كانت منتشرة في أوربا . نعم حدث فيها كثير من الاضطراب والصراع والتعصب الديني، وحدث أن حكم فيها بالموت حرقًا على عدد هائل من النساء لاعتبارهن ساحرات، ولكن انجلترة كانت تعتبر على الرغم من ذلك مكانًا هادئًا اذا قورنت بأوربا.

وكان مفروضًا أن تنقلب انجلترة في عهد هنري الثامن بروتستانتية،

ولكن كان فيها بطبيعة الحال كثيرون من الكاثوليك وكثيرون من الروتستانت المتعصبين أيضًا على أية حال كانت الكنيسة الانجليزية الجديدة شيئًا وسطًا بين المذهبين، كانت تسمي نفسها بروتستانتية، ولكن ربما كانت كاثوليكية أكثر منها بروتستانتية، وفي الحقيقة كانت ادارة حكومية على رأسها الملك . وقد انفصلت تمامًا عن كنيسة رومة، وقامت فيها ثورات كثيرة ضد البابا.

وقد استهوى اكتشاف طرق الملاحة الجديدة للشرق وأمريكا كثيرين من الانجليز في عهد الملكة اليصابات ابنة هنري الثامن، كما افتتح هذا الاكتشاف أمامهم فرصًا جديدة، ومن شدة افتتان انجلترة بنجاح البحارة الاسبان والبرتغال، ولطمها في الثراء الذي يمكن الحصول عليه نراها تخرج الى البحار للملاحة فيها.

وفي أول الأمر نرى السير فرانسيس دريك وآخرين مثله ينقلبون قراصنة في البحار، حيث ينهبون السفن الاسبانية القادمة من أمريكا، وبعد ذلك نرى دريك يقوم برحلة جبارة حول العالم، ثم نرى السير وولتر رولي **Raleigh** يعبر المحيط الأطلسي ويحاول أن يقيم مستعمرات على الشاطئ الشرقي لما يعرف الآن بالولايات المتحدة. وكان هذا الجزء يسمى فرجينيا كذكرى لأليصابات الملكة العذراء. وكان رولي أول من نقل عادة تدخين التبغ من أميركا الى أوربا.

ثم ظهر الأسطول الاسباني المعروف بالأرمادا، ولكن الفشل التام

الذي مني به هذا الأسطول شجع انجلترة الى درجة كبيرة.

ولم يكن لكل هذا كبير أثر في الصراع الذي كان قائمًا على قدم وساق بين الملك والبرلمان، اللهم إلا أنه أبقى عقول الناس مشغولة، ولا سيما بالشئون الخارجية. ولكن حتى في العصور التيودورية كانت الاضطرابات والقلاقل تختمر تحت السطح الظاهري.

ويتميز عهد اليصابات بأنه أحد العهود المشرقة في انجلترة، فاليصابات كانت ملكة عظيمة، وفي عهدها ظهر كثيرون من عظماء الرجال . وأعظم من الملكة وفرسانها المخاطرين، كان الشعراء وكتاب المسرحيات الذين ظهروا كالابراج الشوامخ في هذا الجيل وعلى رأسهم وليام شكسبير الخالد، فمسرحياته معروفة طبعا للعالم حتى اليوم، وان كنا نعرف القليل عنه شخصيًا . لقد كان أحد الشموس المتألقة التي أثرت اللغة الانجليزية وأغنتها بالدرر الغوالي التي ملأتنا بالانشراح والبهجة والفرح. حتى قصائده الغنائية الصغيرة عن عصر اليصابات لها جمال خاص لا يوجد في أشعار غيره من الشعراء. ففي أبسط وأعذب لغة تخطو مقطوعاته الغنائية في خطى خفيفة سريعة مرحة تحدثنا عن أحداث كل يوم بطريقتها الخاصة.

وقد حدثنا ليتون استريتشي الناقد الانجليزي عن "هذا الرعيل الفائق من الأليزابيثيين. الذين استطاعت روحهم الفتية العظيمة أن تنفح انجلترة في مدى جيل واحد معجز بأروع ما عرف العالم من تراث المسرحية".

لقد توفيت اليصابات عام ١٦٠٣ أي قبل وفاة "أكبر" العظيم في الهند بسنتين. ثم تبوأ العرش بعدها ملك اسكتلندة في ذاك الوقت لأنه هو الذي كان يليها فرضا في أحقيته بالملك، وقد عرف هذا الملك باسم جيمس الأول: وبذلك أصبحت انجلترة واسكتلندة مملكة واحدة. وهكذا تحقق بالسلام ما لم تستطع انجلترة أن تحققه بالحرب والقوة.

وكان جيمس الأول يؤمن بحق الملوك الالهي ويكره البرلمان. ولم يكن في ذكاء اليصابات ومهارتها، ولهذا فسرعان ما نشأ الخلاف بينه وبين البرلمان . وفي عهده حدث أن كثيرين من البروتستانت المتشددين رحلوا عن انجلترة وطنهم نهائيًا، وأبحروا عام ١٦٢٠ على سفينة تدعى "زهرة مايو" ليستقروا في أمريكا، فهؤلاء كانوا قد اعترضوا على طريقة جيمس الأول الاستبدادية، كما كرهوا كنيسة انجلترا الجديدة ولم يعتبروها بروتستانتية الى درجة كافية، ومن ثم هجروا بيوتهم ووطنهم وأبحروا الى الأرض الجديدة البرية عبر المحيط الأطلسي.

وقد نزل هؤلاء على الشواطئ الشمالية في مكان أسموه" بليموث الجديدة" ثم تبعهم عدد أكثر من المستعمرين، وشيئًا فشيئًا زاد عدد المستعمرات حتى بلغ ثلاث عشرة مستعمرة على امتداد الشاطئ الشرقي وهذه المستعمرات نمت وتطورت الى ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية، مجتازة في سبيل تحقيق ذلك طريقًا طويلا.

وفي عام ١٦٥٢ اعتلى العرش شارل الأول بعد أبيه جيمس الاول،

وسرعان ما وصلت الأحوال بعد ذلك الى حد تطلب عملا حاسما. ولهذا رفع اليه البرلمان عام ١٦٢٨ "عريضة الحق" التي هي أشهر وثيقة في التاريخ الانجليزي.. في هذه العريضة أخبر الملك أنه ليس ملكًا مطلقًا، وأن هناك أشياء كثيرة لا يستطيع أن يفعلها وليست من حقه . فهو لا يستطيع وليس من حقه أن يفرض ضريبة، أو أن يسجن الناس بلا سند قانوني . كما حرموا عليه أن يرتكب في القرن السابع عشر ما كان يرتكبه حاكم الهند الانجليزي في القرن العشرين من اصدار قوانين يسجن الناس بمقتضاها.

وقد ضايق شارل أن يحدد له ما يستطيع ومالا يستطيع أن يفعله، ولهذا حل البرلمان وحكم بدونه. وعقب ذلك ببضع سنوات كان في حاجة قصوى إلى المال، ولما لم يجد مخرجا لما هو فيه من عسر مالي اضطر الى استدعاء برلمان آخر.

ولم يمر حل البرلمان مرورًا عابرًا سهلا، فالواقع أن ما كان يفعله شارل بدون البرلمان وفي غبته قد أحدث استياء وغضبًا شديدة، ومن ثم كان البرلمان الجديد متلهفًا ومتأهبًا للدخول في قتال معه.

وفي خلاص عامين، وعلى التحديد في عام ١٦٤٢، اندلعت نار الحرب الأهلية بين الملك من جانب يؤيده كثيرون من النبلاء، وجزء كبير من الجيش، والبرلمان من جانب آخر يؤيده التجار الأغنياء ومدينة لندن.

وقد استمرت هذه الحرب بضع سنوات حتى ظهر في الجانب

البرلماني قائد عظيم يسمى "أوليفر كرومويل". كان كرومويل منظمًا بارعًا، وأستاذًا صارمًا في ضبط النظام، ورجلا مفعمًا بالحماسة الدينية من أجل القضية التي كان يحارب من أجلها.

وقد قال كارليل عن كرومويل: "وفي مخاطر الحرب السوداء، وفي مواقع الميدان الكبرى، كان الأمل يشتعل في صدره كأنه عمود من نار في الوقت الذي يخبو فيه الأمل من صدور الآخرين".

وقد بنى كرومويل جيشا أسماء "الجيش الحديدي" وبث في نفوس جنوده من حماسته وصرامته في النظام . وقد واجه غلاة المتدينين في جيش البرلمان فرسان شارل، وأخيرًا انتصر كرومويل وأصبح الملك شارل سجين البرلمان.

وأراد كثيرون من أعضاء البرلمان أن يصلوا مع الملك إلى حل وسط، ولكن جيش كرومويل الجديد لم يصغ الى هذا، وتقدم ضابط من هذا الجيش اسمه "برايد" بشجاعة الى داخل البرلمان وطرد كل الأعضاء الذين نادوا بالحل الوسط، وقد عرفت عملية التطهير هذه بعملية تطهير "برايد" . لقد كانت علاجًا عنيفًا ولم تكن مشرفة جدًا للبرلمان.

فإذا كان البرلمان قد اعترض على استبداد الملك، فها هي قوة أخرى، ممثلة في جيشهم هم، لم تكترث أي اكتراث بمراوغاتهم القانونية. وهذا هو طريق الثورات.

وقد دعت البقية الباقية من أعضاء مجلس العموم البرلمان المحتقر

وقرروا محاكمة شارل على الرغم من اعتراض مجلس اللوردات، وحكموا عليه بالاعدام على أنه طاغية وخائن وسفاك للدماء وعدو لوطنه. وفي عام ١٦٤٩ وفي "هوايت هول" بمدينة لندن قطع الانجليز رأس هذا الرجل الذي كان ملكهم، والذي تكلم عن حقه الالهي في أن يحكم.

فالملوك يموتون كما يموت سائر الناس. وكثيرون منهم في التاريخ قد ماتوا حقًا ميتات شنيعة منكرة. فالاستبداد والملكية يولدان الاعتيال والقتل، وقد صادف الملوك الانجليز في الماضي اغتيالات كثيرة. ولكن الشئ الظريف العجيب هو أن نرى مجلسًا نيابيًا منتخبًا ينصب من نفسه محكمة ويحاكم ملكًا ويحكم عليه بالاعدام ويقطع رأسه! والغريب في الأمر هو أن الشعب الانجليزي الذي كان دائمًا محافظًا كل المحافظة، ونافرًا من التغيرات والتطورات السريعة يضرب مثلا في كيف يعامل ملك طاغن خائن. ولكن هذا لم يكن عمل الشعب الانجليزي في مجموعه بمقدار ما هو عمل جيش كروموبل.

وقد هز هذا الحادث هزًا عنيفًا كل ملوك أوربا وقياصرتها وأمرائها وحكامها. فماذا يمكن أن يحدث لهم اذا أصبح عامة الشعب عتاة وقحين وحذوا حذو انجلترة؟ كثيرون من هؤلاء الملوك والقياصرة كان يمكنهم أن يهاجموا انجلترة ويحطموها، ولكن مصير انجلترا وقتئذ لم يكن في يد ملك ضعيف عاجز.

فانجلترة بعد قتل الملك شارل الأول أصبحت لأول مرة جمهورية،

وكان هناك كروميل وجيشه ليدافعوا عنها ويحموها، وكان كروميل ديكتاتورا تقريبا، وسمى "السيد الحامي".

وفي عهد حكمه الصارم النافذ ازدادت قوةانجلترا، وطردت أساطيلها بعيدًا الاساطيل الهولندية والفرنسية والاسبانية، ولأول مرة أصبحت انجلترة القوة البحرية الرئيسية في أوربا.

ولكن الجمهورية الانجليزية لم تعمر أطول من أحد عشر عامًا بعد وفاة شارل الأول. وقد مات كروميل عام ١٦٥٨، وبعد وفاته بعامين سقطت الجمهورية.

ثم نرى ابن شارل الأول الذي قد التجأ الى بعض الأقطار الاجنبية يعود الى انجلترة ويرحب به ويتوج ملكًا، ويسمى شارل الثاني. ولكن شارل الثاني هذا كان شخصًا وضيعًا سيئ السمعة، وكانت فكرته عن املك لا تعدو أن يعيش في رغد وترف متمتعًا بكل ملذات الحياة. ولكنه عرف بذكائه ومهارته أن من الخير له ألا يقف في وجه البرلمان أو يعارضه كثيرًا. وكان في الحقيقة يتلقى اعانات سرية من ملك فرنسا. وقد فقدت انجلترة المكانة التي تبوأتها في أوربا في عهد كروميل، وأتى الهولنديون الى انجلترة وأحرقوا الأسطول الانجليزي في نهر التاميز.

وولى العرش بعد شارل أخوه جيمس الثاني، وسرعان ما نشأ الخلاف والصراع بينه وبين البرلمان. فجيمس كان كاثوليكيًا ورعا، وأراد أن يؤسس سلطة البابا ونفوذه ثانية في انجلترة.

ولكن مهما كانت أفكار الانجليز عن الدين، وهذه كانت أفكارًا غامضة، فان غالبيتهم كانوا ضد البابا وضد كل ما هو بابوي بشكل حاد وعنيف. ولم يستطع جيمس الثاني أن يفعل شيئًا ضد هذا الشعور السائد بين الشعب، ولما كان قد أثار سخط البرلمان وغضبه، فانه اضطر أن يهرب إلى فرنسا ويتخذ لنفسه ملجأ فيها.

وهكذا انتصر البرلمان ثانية على الملك، ولكن انتصاره في هذه المرة كان سليما وبدون حرب أهلية. وبفرار جيمس الثاني أصبحت انجلترة بلا ملك، ولكنها ما كانت بتعود الى الجمهورية مرةى أخرى.

فالانجليزي، كما يقال، يجب أن يكون له سيد، وأكثر من ذلك يحب مواكب الملكية ومهرجاناتها وعظمتها وأبهتها. ولهذا بحث البرلمان عن ملك جديد، وأخيرًا وجده في "بيت أورانج" الذي قبل هذا التاريخ بمائة سنة هيأ لوليم الصامت أن يقود كفاح دول اسكندنافيا الكبير ضد اسبانيا.

ففي الوقت الذي فر فيه جيمس كان هناك في بيت أورانج وليم آخر ،وكان أميرًا وكان متزوجًا من سيدة الاسرة الملكية اسمها ماري. وهكذا نصب وليم وماري ملكًا وملكة عام ١٦٨٨ ليحكما معًا.

وأصبح البرلمان سيد الموقف، وأدت الثورة الانجليزية دورها كاملا، بعد أن أعطت الشعب السلطة ممثلة في البرلمان. ومنذ ذلك التاريخ صار غير ممكن لأي ملك انجليزي أو ملكة انجليزية أن يجرؤ أو تجرؤ على تحدي سلطة البرلمان. ولكن هناك بالطبع طرق كثيرة للمؤتمرات والتأثير

بدون معارضة أو تحد سافر، وقد سلك بعض ملوك انجلترة هذه الطرق.

أصبح البرلمان سيد الموقف ومصدر السلطة، ولكن ماذا كان هذا البرلمان؟ لا تظني أنه كان يمثل شعب انجلترة، وانما كان يمثل في الواقع جزءًا صغيرًا منه. فمجلس اللوردات، كما يدل اسمه، مثل اللوردات، أو ملاك الأراضي الكبار والأساقفة. وحتى مجلس العموم كان مجلسًا من الاغنياء ما بين ملاك أراض وتجار كبار. وقليل من أفراد الشعب هم الذين كان لهم حق الانتخاب. وكان في انجلترة الى عهد قريب لا يزيد على مائة سنة ما يسمى "دوائر الجيب" أي الدوائر الانتخابية التي كانت تقريبا في جيوب بعض الناس. وربما تكونت كل الدائرة. من ناخب أو ناخبين ينتخبان عضوا للبرلمان! ويقال ان مائة وستين شخصا في عام ١٧٩٣ انتخبوا ثلثمائة وستة أعضاء لمجلس العموم! ويقال ان دسكرة من الدساكر اسمها "صاروم القديمة" مثلها عضوان في البرلمان.

وهكذا ترين أن أغلبية الشعب العظمى لم كن لها حق الانتخاب، ولم تكن ممثلة في البرلمان. ومجلس العموم كان بعيدًا جدًا عن كونه مجلسًا يمثل العامة، أو حتى الطبقات الوسطى الجديدة التي بدأت تظهر في المدن. انما كان يمثل طبقة ملاك الأراضي وبعض التجار الأغنياء فقط.

وكانت مقاعد البرلمان تباع وتشترى، وكان هنا كثير من الرشوة. وقد حدث ذلك حتى ١٨٣٢، أي منذ مائة[٩] سنة عندما مرت في

[٩] كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٢ .

البرلمان لائحة الاصلاح بعد هياج شديد، والتي أصبح لكثير من الناس بمقتضاها حق الانتخاب.

من ذلك نرى أن انتصار البرلمان على الملك كان معناه انتصار قلة من الأغنياء. وهذه القلة المؤلفة من ملاك الأراضي وبعض التجار هي التي كانت في الواقع تحكم انجلترة. أما كل الطبقات الأخرى التي كانت تمثل غالبية الشعب العظمى فلم يكن لها مشاركة في الحكم أو رأي فيه. ولعلك تذكرين أن الجمهورية الهولندية التي وجدت بعد الكفاح الكبير مع اسبانيا كانت أيضًا جمهورية الرجل الغني.

وبعد الملك وليموالملكة ماري نصبت "أن" شقيقة ماري ملكة على انجلترة. وعند وفاتها عام ١٧١٤ وجد بعض صعوبة فيمن يلي الملك بعدها. ولكن البرلمان اختار في النهاية لعرش انجلترة المانيا من بيت "هانوفر" وأسماه جورج الأول ملك انجلترة. ومن المحتمل أن البرلمان اختاره لأنه كان بعيدًا عن الذكاء والمهارة والفهم. ولم يستطع جورج الأول أن يتكلم الانجليزية، لأن ملك الانجليز كان يجهل اللغة الانجليزية. وحتى ابنه الذي أصبح، جورج الثاني، قلما عرف الانجليزية.

وبهذه الطريقة تأسس في انجلترة بيت هانوفر، أو الدولة الهانوفرية التي لا تزال مزدهرة هناك. وقلما يمكن القول بأنها تحكم لأن السلطة والحكم في يدي البرلمان.

وفي القرنين السادس عشر والسابع عشر، نشب كثير من النزاع

والاضطراب بين ارلندة وانجلترة. وكانت هناك محاولات لغزو ارلندة وفتحها، كما حدثت ثورات وفتن ومذابح في عهد كل من اليصابات وجيمس الأول.

فجيمس صادر كثيرًا من الأراضي المملوكة في "ألستر" في شمال ارلندة. واستقدم بروتستانتين من اسكتلندة ليستقروا في تلك المناطق. ومنذ هذا التاريخ بقي أولئك المستعمرون البروتستانت هناك، وانقسمت ارلندة من حيث السكان والدين قسمين: ارلنديين أصليين، وهؤلاء كانوا من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ومستعمريت اسكتلنديين، وهؤلاء من أتباع المذهب البروتستانتي. وكان هناك حقد شديد بين الأثنين، وقد أفاد الانجليز بطبيعة الحال من هذا الانقسام، لأن حكامهم يؤمنون بالسياسة القائلة "فرق تسد". ولا تزال أكبر مشكلة حتى الآن في ارلندة هي مشكلة "ألستر".

وفي أثناء الحرب الأهلية في انجلترة ذبح بعض الانجليز في ارلندة. ولكن كرومويل انتقم لهذه المذبحة انتقامًا وحشيًا بذبح الارلنديين، ولا يزال الارلنديون حتى اليوم يذكرون هذا الحادث بألم ومرارة.

ثم حدث بين انجلترة وارلندة حروب أخرى، ثم انتفاقيات ومعاهدات، ولكن الانجليز نقضوا كل هذه. وانه لتاريخ طويل مؤلم، تاريخ عذاب ارلندة.

وقد يهمك أن تعرفي أن "جوناثان سويفت "مؤلف"رحلات جليفر" عاش في هذا العصر من ١٦٦٧ – ١٧٤٥م. وهذا الكتاب من كتب الأطفال الكلاسيكية، ولكنه في حقيقته هجاء مؤلم لانجلترة في عصره. وكان دانيال ديفو مؤلف كتاب روبنسن كروزو معاصرًا للكاتب سويفت.

١١٢- كيف حكمت انجلترة الهند؟

٥ ديسمبر ١٩٣٢

كتبت إليك من قبل ثلاث رسائل مطولة عن الهند في القرن التاسع عشر. وقصة الهند قصة طويلة تتضمن كفاحًا مروعًا متصلا فاذا اقتضبتها أكثر مما ينبغي فأخشى ما أخشاه أني أجعلها صعبة يستعصى فهمها.

ومن المحتمل أني أولي هذا العصر من قصة الهند اهتماما أكثر مما أوليه لأقطار أو عصور أخرى. وليس هذا أمرًا غير طبيعي، فلكوني هنديًا فان اهتمامي بالهند أكثر من اهتمام غيري بها، ولكوني أعرف عن الهند أكثر مما يعرف غيري فاني أستطيع أن أكتب عنها كتابة وافية تعني بالنسبة لنا شيئًا أكثر كثيرًا من مجرد اهتمام أو عرض تاريخي.

فالهند الحديثة كما نجدها اليوم قد تكونت وتشكلت في مطلع القرن التاسع عشر. فاذا شئنا أن نفهم الهند على حقيقتها فعلينا أن نعرف شيئًا عن القوى التي تضافرت على خلقها أو الاضرار بها، فعن طريق هذا وحده نستطيع أن نخدمها بعقل وذكاء، وأن نعرف ما يلزم أن نفعله، وأي طريق يجب أن نسلك.

وأنا لم أنته بعد من الحديث عن هذه الفترة من تاريخ الهند، فلا يزال لدي الكثير عنها مما أود أن أحدثك به. وأنا في هذه الرسائل أجعل موضوع

الحديث نقطة أو أكثر، ثم أعلج كل نقطة على انفراد لتكون أيسر فهما.

ولكنك تعرفين بطبيعة الحال أن كل التغيرات وضروب النشاط التي حدثتك عنها، وكل التغيرات وضروب النشاط التي سأصفها لك في هذه الرسالة وما يليها من رسائل قد حدثت في وقت واحد تقريبًا، وأثر أحدها في الآخر، وأنتجت فيما بينها هند القرن التاسع عشر.

وقراءتك عن حسنات الانجليز وسيئاتهم في الهند الهند تشعرك أحيانًا بالغضب من السياسة التي اتبعوها، ومن البؤس الذي انتشر نتيجة لهذه السياسة.

ولكن على من تقع تبعة ما حدث؟ أليس الخطأ فيما حدث ناشئًا عن ضعفنا وجهلنا نحن؟ فالضعف والجهل دعوة الى الطغيان واغراء به. واذا كان الانجليز يفيدون من وراء انقساماتنا وخلافاتنا، فالخطأ خطؤنا في أننا ننقسم على أنفسنا ونختلف فيما بيننا.

واذا كانوا يقسموننا ليضعفونا، واذا كانوا يحققون مأربهم في ذلك باللعب على أوتار الأنانية الفاشية بين أحزابنا وطوائفنا المتنافرة، فلا شك أن سماحنا بذلك هو في ذاته علامة على تفوق الانجليز. فاذا شئت أن تغضبي فاغضبي من الضعف والجهل والصراع المتبادل بين أحزابنا وطوائفنا، لأن هذه الأشياء هي المسئولة عن مشاكلنا ومآسينا.

ونحن نقول انه ظلم الانجليز واستبدادهم. فظلم من؟ واستبداد من في الواقع؟ ومن يفيد منه؟ لا يفيد منه كل الانجليز، لأن ملايين منهم هم

أنفسهم أشقياء مغلوبون على أمرهم. ومما لا شك فيه ان في الهند طبقات وجماعات صغيرة قد أفادت قليلا من الاستغلال الانجليزي للهند. فأين نرسم الحد الفاصل اذن؟

وليس الموضوع موضوع أفراد ولكنه موضوع نظام. فنحن نعيش تت آلة ضخمة استغلت الملايين من أبناء الهند وحطمتهم. وهذه الآلة هي آلة الاستعمار الجديد اللذي هو نتيجة الرأسمالية الصناعية. فمكاسب هذا الاستغلال وأرباحه تذهب كلها تقريبا الى طبقات معينة. وبعض مكاسب وأرباح هذا الاستغلال تبقى في الهند ولكنها تئول الى طبقات معينة أيضًا.

ولهذا يكون من الجهل أن نغضب من الأفراد أو من الانجليز عامة. فاذا كان النظام جائرًا وضارًا بنا فان المصلحة تقضي بتغييره، ولا يهم مطلقًا من يديره ويشرف عليه، فالنظام الفاسد يعجز فيه حتى خير الناس وأكفؤهم. ولا تستطيعين، حتى لو رزقت أقوى ارادة في الدنيا، أن تحولي الحجارة والأرض الى طعام حسن مهما أجدت طبخها. وكذلك الحال، على ما أعتقد، مع الاستعمار والرأسمالية. فليس من المستطاع تحسبنهما أو اصلاحها، والتحسين أو الاصلاح الحقيقي بالنسبة لهما هو في القضاء عليهما معا قضاء مبرمًا.

هذا هو رأيي، وان كان البعض يخالفني فيه. ولست في حاجة الى أن تأخذي أي شئ على أنه حقيقة واقعية. وتستطيعين، عند ما يحين

الوقت، أن تدرسي الأشياء وتكوني رأيك الشخصي عنها. ولكن معظم الناس متفقون على شئ واحد، وذلك الشئ هو أن الخطأ في النظام، وأنه لا فائدة ولا نفع من التضايق والغضب من الأفراد. فاذا أردنا تغييرا فدعينا نهجم على النظام ونغيره.

لقد رأينا بعض آثار النظام الضارة في الهند. واذا درسنا أحوال الصين ومصر وأقطار أخرى كثيرة فاننا نرى نفس النظام ونفس آلة الاستعمار الرأسمالي تعمل في استغلال أبناء هذه الشعوب.

وبعد فنعود الى قصتنا. لقد أخبرتك عن المرحلة المتقدمة في صناعات النسيج الهندية عند ما أتى البريطانيون الى الهند. فمع التقدم الطبيعي في طرق الانتاج وبدون أي تدخل من الخارج، كان من المحتمل أن تدخل آلات الصناعة الحديثة الهند، فالحديد والفحم يوجدان في بلادنا، وهذان، كما رأينا في انجلترة، ساعدا كثيرًا في حركة التصنيع بها، ومهدا لها الى حد ما. وهذا كا يمكن أن يحدث في النهاية أيضًا في الهند، وان كان حدوثه ربما تأخر قليلا نظرًا للأحوال السياسة المضطربة.

على أية حال لقد تدخل البريطانيون في الأمر، وكانوا يمثلون قطرًا ومجتمعًا انتقلا في الصناعة باستخدام الآلات الحديثة الكبيرة في الانتاج الصناعي.

وربما يظن الانسان، لهذا، أنهم يرحبون بحدوث تغير كهذا في الهند أيضًا، ويشجعون طبقة رجال الصناعة في الهند ممن كان يحتمل

منهم جدًا أن يمهدوا لهذا التطور. ولكنهم لم يفعلوا شيئًا من هذا القبيل، وانما فعلوا عكس ذلك تمامًا. فقد نظروا الى الهند نظرة منافس لهم في المستقبل ولهذا قضوا على صناعتها، ولم يشجعوا نمو صناعات الآلات الحديثة الكبيرة.

وهكذا نجد أحوالا عجيبة في الهند. فنحن نجد البريطانيين الذين هم أكثر شعوب أوربا تقدما في ذاك الوقت يتخذون لأنفسهم حلفاء في الهند من بين أكثر الطبقات الهندية تخلفا ومحافظة. فنراهم يساندون طبقة اقطاعية محتضرة، ويخلقون طبقة من ملاك الأراضي، ويؤيدون مئات الحكام الهنود غير المستقلين في دولهم نصف الاقطاعية. وفي الحقيقة نراهم يقوون النظام الاقطاعي في الهند.

ومع هذا فهؤلاء البريطانيون كانوا في أوربا رواد ثورة الطبقة الوسطى أو الطبقة البورجوازية التي أعطت برلمانهم السلطة والقوة، كذلك كانوا رواد الثورة الصناعية التي استحدثت في العالم الرأسمالية الصناعية. فبسبب قيادتهم وأسبقيتهم في هذه الأمور تقدموا كثيرا على منافسيهم ومزاحميهم وأسسوا امبراطورية مترامية الأطراف.

وليس صعبًا أن يفهم المرء لماذا تصرف البريطانيون على هذا النحو في الهند، فأساس الرأسمالية كله هو المنافسة والاستغلال، والاستعمار مرحلة متقدمة من هذا. فالبريطانيون ومعهم القوة قتلوا منافسيهم الحقيقين، ومنعوا متعمدين ظهور منافسين آخرين.

ولم يكن من الممكن لهم أن يصادقوا الجماهير، لأن الهدف كل الهدف من وجودهم في الهند هو استغلالهم لهؤلاء الجماهير، ولا عجب فمصالح من يقع منهم الاستغلال لهؤلاء الجماهير، ولا عجب فمصالح من يقع منهم الاستغلال ومصالح من يقع عليهم الاستغلال ليست واحدًا، ومن ثم وقع البريطانيون على من بقي من الاقطاعيين الذين كانوا لا يزالون في الهند. وهؤلاء لم تكن لهم قوة حقيقية حتى حينما جاء البريطانيون الى الهند. ولكن البريطانيين ساعدوهم وأعطوهم نصيبًا ضئيلا في استغلال البلاد، وهذه المساعدة استطاعت أن تعطي فقط اسعافًا مؤقتًا لطبقة استنفذت زمن نفعها. وكانت هذه الطبقة تعتقد أن البريطانيين اذا تخلوا عنها، فاما أن تنهار وتتهاوى، واما أن توافق بين نفسها وبين الأحوال الجديدة.

وقد كان في الهند نحو ٧٠٠ دولة ما بين صغيرة وكبيرة معتمدة كلها على حسن نوايا البريطانيين. وأنت تعرفين بعض هذه الدول مثل حيدر أباد، وكشمير، وميسور، وبارودا، وكولوير الخ. ولكن الغريب أن معظم حكام هذه الدول الهنود لم يتحدروا من طبقة الأشراف الاقطاعية القديمة، وهم في ذلك مثل معظم ملاك الأرض الكبار الذين لا ترجع تقاليدهم الى عهد بعيد جدًا. وعلى أية حال هناك حاكم واحد يستطيع أن يرجع تقاليدهم الى عهد بعيد جدًا. وعلى أية حال هناك حاكم واحد يستطيع أن يرجع بنفسه الى ما قبل التاريخ، وذلك هو "المهارانا" حاكم يوديبور وزعيم القبيلة التي تسمى نفسها قبيلة الشمس، وربما كانت الشخصية الحية التي

تضارعه وتنافسه من هذه الناحية هو ميكادو اليابان.

وقد ساعد الحكم البريطاني أيضًا الطوائف الدينية المحافظة. وهذا يبدو غريبًا، فالبريطانيون يدعو اعتناق المسيحية، ومع ذلك فمجيئهم جعل الهندوكية والاسلام في الهند أشد صرامة وتصلبًا. ورد الفعل هذا كان الى حد ما طبيعيًا، لأن الغزو الأجبني من شأنه أن يدفع الأديان والثقافة في البلد الغزو الى أن تحمي نفسها بالصرامة والتصلب. وقد حدث بنفس الأسلوب أن أصبحت الهندوكية أشد صلابة وأن قويت الطائفية العنصرية بعد الفتوح الاسلامية في الهند. والآن نرى أن الهندوكية والاسلام كليهما يقفان هذا الموقف الصارم المتصلب ازاء الانجليز في الهند قد ساعدت عمدًا ولا شعوريًا العناصر المحافظة من المسلمين والهندوس.

ولم يكن اهتمام الانجليز منصبا على الدين أو على تغيير معتقدات الهنود وأديانهم وانما كان اهتمامهم موجها الى تحقيق الغنى والثراء. لقد كانوا مهتيبين من التدخل في الشئون الدينية خشية أن يؤدي تدخلهم إلى غضب الشعب فيثور عليهم. ولكي يتفادوا حتى مظنة التدخل بالغوا في حماية ومساعدة أديان الهند، أو بمعنى أصح بالغوا في حماية ومساعدة شعائر الأديان المظهرية. وكثيرًا ما كانت النتيجة أن نرى الشكل الخارجي يبقى دون أن يكون بداخله أي شئ.

وهذا الخوف من اثارة المتشددين في الدين جعل الحكومة تقف

بجانبهم في كل ما يمس شئون الاصلاح، فكان في ذلك تعويق للاصلاح. وقلما تستطيع حكومة أجنبية أن تحدث اصلاحًا اجتماعيًا. لأن كل تغيير تحاول ادخاله لا يقابل من الشعب بالقبول والارتياح.

ومن نواح كثيرة كانت الهندوكية والقانون الهندوكي يتطوران ويتقدمان، ولو أن تقدمهنا في العصور الحديثة قد أخذ في البطء بشكل ملحوظ. والقانون الهندوكي في جملته ينبثق من العادة، والعادات تتغير وتتطور وتنمو. وهذه المرونة التي تميز بها القانون الهندوكي قد تلاشت تحت الحكم البريطاني وحل محلها تشريعات قانونية غير مرنة وضعت بعد استشارة أكثر العناصر جمودًا وتشددًا. وهكذا نرى القانون الهندوكي الذي كان ينمو نموًا بطيئًا قد أوقف نموه. أما مسلمو الهند فكانوا أشد استياء من الأوضاع الجديدة وانكارًا لها، ولهذا لم أمامهم الا أن ينعزلةا عن مجتمعهم وينطووا على أنفسهم.

وكثيرًا من الفضل يعزي الى الحكم البريطاني في ابطال عادة حرق الأرملة الهندوكية نفسها في النار الجائزية التي تحرق فيها جثة زوجها. فالبريطانيون يستحقون بعض الفضل في هذا، ولكن الحكومة في الواقع ونفس الأمر لم تهتم بالأمر الا بعد سنوات كثيرة من ثورة المصلحين والهنود بزعامة "راجا رام موهان روي"، ومن قبل البريطانيين قام حكام آخرون بتحريم هذه العادة، كما قام البوكيرك البرتغالي بالغائها في جوا. وقد ألغاها البريطانيون نتيجة لثورة الرأي العام الهندي ومجهودات

المبشرين المسيحيين. وعلى قد ما أذكر ان هذا هو الاصلاح الوحيد الذي اضطلعت به الحكومة البريطانية وكان له مغزى أو أهمية دينية.

وقد تحالف البريطانيون مع كل العناصر المتخلفة والمحافظة في الهند، ولم يألوا جهدًا في أن يجعلوا من الهند قطرًا زراعيًا فقط ينتج الخامات اللازمة لصناعاتهم. وبعض الأقطار الأخرى أولت صناعاتها المحلية كل تشجيع واهتمام. فاليابان مثلا، كما سنرى فيما بعد، جرت أشواطًا بعيدة الى الأمام في ميدان التصنيع. ولكن الحكومة البريطانية في الهند وضعت ما استطاعت من العقبات والصعاب في طريق الصناعات الهندية.

فنتيجة للضرائب التي فرضتها على استيراد الآلات الصناعية والتي لم ترفع حتى عام ١٨٦٠ كان بناء مصنع في الهند يتكلف أربعة أمثال ما يتكلفه نظيره في انجلترة، على الرغم من أن الأيدي العاملة في الهند أرخص منها في انجلترة. وكل ما تستطيعه سياسة التعويق هذه هو أن تؤخر حدوث الأشياء فقط، ولكنها لاتستطيع أن تقف سير الحوادث الذي لا مفر منه.

ونحو منتصف القرن التاسع عشر بدأت المصانع التي تقوم على الآلات الحديثة تنمو في الهند، فصناعة الجوت بدأت في البنغال برأس مالي بريطاني، وظهور الطرق الحديدية ساعد في نمو الصناعات، وبعد عام ١٨٨٠ أخذت مصانع النسيج التي أنشئ معظمها برءوس أموال هندية تنمو وتكثر في بومباي وأحمد أباد. ثم بدأ التعدين والكشف عن

المعادن. وباستثناء مصانع النسيج قامت حركة التصنيع البيطئة هذه معتمدة في جملتها على رأس المال البريطاني، ويكاد يكون هذا على الرغم من الحكومة.

وقد تكلمت الحكومة عن سياسة السماح للأشياء بأن تأخذ طريقها الطبيعيى، وكذلك عن سياسة عدم التدخل في المشروعات الخاصة، ولكن الحكومة تدخلت في التجارة الهندية في انجلترة وحطمتها بالضرائب الجمركية ووسائل التحريم عند ما كانت هذه التجارة مزاحمة ومنافسة للتجارة البريطانية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر. ولما صارت السيادة والغلبة للتجارة البريطانية أمكن للحكومة أن تتحدث عن سياسة السماح للأشياء بأخذ طريقها الطبيعي وعدم التدخل في المشروعات الخاصة.

ومهما يكن من أمر فان الحكومة في الواقع لم يكن موقفها مجرد عدم اكتراث أو مبالاة، فالثابت فعلا أنها عمدت الى سياسة تثبيط الهمم بالنسبة لبعض الصناعات الهندية وخاصة صناعة النسيج النامية في بومباي وأحمد أباد. فقد فرضت ضريبة جمركية على منتجات هذه المصانع الهندية، وسميت ضريبة رسم الجمارك على القطن. وكان الغرض من هذه الضريبة هو مساعدة مصانع المنسوجات القطنية البريطانية في لانكشير على منافسة المنسوجات القطنية الهندية. والمعروف أن كل دولة تقريبًا تفرض بعض الضرائب الجمركية على بعض

الواردات والمنتجات الأجنبية حماية لصناعاتها المحلية أو زيادة في دخلها. ولكن الحكومة البريطانية في الهند أقدمت على شئ مدهشًا جدًا وغير مألوف. وعلى الرغم من شدة احتجاج الشعب وثورته ضد ضريبة رسم الجمارك هذه فانها ظلت مفروضة وتحصل الى سنوات قريبة.

على هذا النحو ظهرت الصناعات الحديثة في الهند وانتشرت انتشارًا بطيئًا فيها. فالطبقات الأكثر غنى في الهند قامت بمشروعات كثيرة في سبيل التنمية الصناعية. وعلى ما أذكر أنشأت الحكومة مصلحة للتجارة والصناعة عام ١٩٠٥، وحتى هذه المصلحة لم تقم بأي مجهود يذكر حتى قامت الحرب العالمية الأولى. فنمو النشاط الصناعي هذا خلق طبقة من العمال الصناعيين الذين اشتغلوا في مصانع المدن. وقد دفع ضغط السكان على الأرض الذي حدثتك عنه، والأحوال التي أدت إلى شبه مجاعة في المناطق الريفية – أقول لقد دفع ذلك كثيرًا من القرويين الى تلك المصانع والى المزارع التي كانت قد بدأت تنتشر في البنغال وأسام. وهذا الضغط أيضًا دفع الكثيرين الى الهجرة لأقطار أخرى طمعًا في الحصول على أجور عالية. وقد اتجهت الهجرة خاصة الى جنوب افريقية، وفيجي، وسيلان، وموريشس **Mauritius**

ولكن هذا التغيير والانتقال لم يفد أولئك العمال المهاجرين كثيرًا، فقد عوملوا في بعض الأقطار كما لو كانوا عبيدًا، وفي مزارع الشاي في أسام لم تكن حالتهم أحسن مما كانوا عليه من قبل. وقد اضطر الكثيرون

بعد ما صادفهم من تثبيط العزيمة وعدم التشجيع أن يعودوا من المزارع الى قراهم الأولى، ولكنهم لم يجدوا ترحيبًا بهم في قراهم لعدم وجود أرض لهم يعملوان فيها.

وسرعان ما وجد عمال المصانع أن أجورهم المرتفعة نسبيًا لا تكاد تنهض بمطالبهم لارتفاع أسعار الحاجيات في المدن، ولكون تكاليف المعيشة فيها أعلى مما هي عليه في القرى. أما عن الأماكن التي اضطروا الى السكنى فيها فلم تكن أكواخًا وعششا بائسة قذرة رطبة فقط، بل كانت مظلمة غير صحية أيضًا.

كذلك كانت الأحوال التي يعملون تحت وطأتها سيئة قاسية، ففي القرى كثيرًا ما كانوا يتعرضون للجوع القاتل ولكنهم كانوا يأخذون حظهم من الشمس والهواء النقي. أما وقد انقلبوا الى عمال في المصانع فقد صار حظهم من الشمس ضئيلا جدًا، ولا حظ لهم في الهواء النقي. وأجورهم لم تكن كافية لمقابلة تكاليف المعيشة المرتفعة. وحتى النساء والأطفال اضطروا أن يعملوا ساعات طويلة، واعتادت الأمهات اللائي يحملن أطفالهن على أذرعتهن أن يعطوهم أدوية منومة مخدرة حتى يتمكن من القيام بعملهن والتفرغ له.

وهكذا كان العمال الصناعيون يشتغلون بالمصانع في مثل هذه الحالات التعيسة المضنية. لقد كانوا أشقياء طبعًا، ولما عيل صبرهم بدوءا يتذمرون ويتبرمون، وأحيانًا في حالات اليأس أضربوا بالامتناع عن

العمل. ولكنهم كانوا ضعافًا عاجزين، وكان من اليسير على مستخدميهم الأغنياء مؤيدين من الحكومة أن يحطموهم اذا شاءوا. ولكنهم عرفوا شيئًا فشيئًا وفي بطء وبعد تجربة مؤلمة قاسية قيمة العمل المشترك الموحد، ومن ثم أنشئوا اتحادات العمال.

لا تظني أن هذا وصف للأحوال الماضية، فقد طرأت بعض تحسينات واصلاحات في أحوال العمل في الهند، كما صدرت بعض قوانين تضمن نوعا من الحماية للعامل الفقير.

ولكنك اذا زرت "كونبور" أو "بومباي" أو غيرهما من المناطق الصناعية فانك ستجدين أن مساكن العمال لا تزال الى اليوم على حال من السوء تثير الفزع والأسى في قلب من يراها.

ولقد كتبت اليك في هذه الرسالة وغيرها من الرسايل عنالبريطانيين والحكومة البريطانية في الهند. فكيف حال هذه الحكومة؟ وكيف كانت تمترس الحكم ؟

فهناك كانت شركة الهند الشرقية أولا، ولكن البرلمان الانجليزي كان من ورائها. وفي عام ١٨٥٨ وبعد الثورة الكبرى تولي البرلمان الانجليزي مسئولية مباشرة. وفيما بعد أصبح ملك الانجليز – أو بمعنى أصح ملكة الانجليز الجالسة على العرش وقتئذ – قيصرة الهند.

ففي الهند كان كان الحاكم العام الذي صار نائب الملك أيضًا في أعلى السلم، ومن تحته كان هناك جماهير وجموع حاشدة من الموظفين.

وكانت الهند مقسمة كما هي الآن تقريبا الى امارات ودول. وكان مفروَا في حكام الدول الهنود أنهم نصف مستقلين، ولكنهم كانوا في حقيقة الأمر معتمدين كل الاعتماد على الانجليز. وكان يعيش في كل دولة من الدول الكبرى موظف انجليزي يسمى "المقيم" له الرقابة العامة على الحكومة، ولم يكن يعنيه من شئون الاصلاح الداخلي أي شئ، لا ولم يكن يهمه في كثير أو قليل أن تكون حكومة الدولة سيئة أو غير سيئة، أو أن تباشر سلطتها على طراز قديم أو حديث.

كل ما كان يعنيه ويهمه هو أن يمكن للسلطة الانجليزية في الدولة. وفد كان ثلث الهند تقريبا مقسمًا الى هذه الدولة، أما الثلثان الآخران فكانت تحكمهما الحكومة الانجليزية في الهند حكما مباشرًا. وكان الموظفين الكبار في الهند البريطانية من الانجليز، وقد ظل الأمر كذلك الى ما يقرب من نهاية القرن التاسع عشر حينما بدأ بعض الهنود يتسللون الى الوظائف الحكومة، وحتى مع هذا فان كل القوة والسلطة طبعا بقيتا ولا تزالان باقيتين في أيدي الانجليز. وهؤلاء الموظفين الكبار، باستثناء العسكريين، كانوا أعضاء فيما يسمى بالادارة الهندية. وهكذا كانت كل حكومة الهند محكومة بهذه الادارة. والحكومة التي قوامها موظفون يعين بعضهم بعضًا، وليسوا مسئولين أمام الشعب عما يفعلون تسمى حكومة موظفين أو حكومة "بيروقراطية".

ونحن نسمع كثيرًا عن الادارة الهندية ومن فيها من أشخاص في

غاية الغرابة والعجب، وان كانوا أكفاء في بعض النواحي. فهؤلاء نظموا الحكومة، ومكنوا للحكم الانجليزي، وانتفعوا هم أنفسهم كثيرًا. فجميع المصالح الحكومية التي ساعدت في تدعيم الحكم الانجليزي وجباية الضرائب قد نظمت تنظيمًا تتجلى فيه الكفاية، أما غير ذلك من المصالح الحكومية فأهملت.

ولما كان موظفوا الادارة الهندية غير مسئولين أمام الشعب ولم يعينهم الشعب في وظائفهم فانهم لم يوجهوا أي اهتمام أو عناية بالمصالح الحكومية الأخرى التي تهم معظم طبقات الشعب. ولما كان ذلك طبيعيًا تحت هذه الظروف فانهم انقلبوا متعجرفين متغطرسين يستخفون بالرأي العام ويزدرونه. ومع أنهم كانوا ضيقي الأفق محدودين في نظرتهم، فانهم أخذوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أعقل العقلاء وأحكم الحكماء على الأرض.

وكان خير الهند يعني في المنزلة الأولى بالنسبة لهم الخير الذي يعود عليهم شخصيًا من الوظائف التي يعملون بها. وقد كونوا نوعًا منجمعية استلطاف واستحسان متبادل، يمدح فيها بعضهم بعضا، ويثني فيها هذا على ذاك، وذاك على هذا.. وقد أدت القوة والسلطة المطلقتان في النهاية الى هذا، وأصبح موظفوا الادارة الهندية أسياد الهند تقريبا. وكان البرلمان الانجليزي من البعد بحيث لا يستطيع التدخل في الأمر، وعلى أية حال فلم يكن هناك مناسبة لتدخله، لأن موظفي الادارة الهندية

كانوا يخدمون مصالحه ومصالح الصناعة البريطانية. أما مصالح الشعب الهندي فلم يكن هناك وسيلة االتأثير عليهم في أن يولوها شيئًا من الرعاية ولو الى درجة ما. وقد كان حتى مجرد النقد الواهن الخفيف يستثير سخطهم واستياءهم، ولهذا كانوا متعصبين لا يحتملون ولا يطاقون!

ومع هذا فقد عمل في الادارة الهندية كثير من الموظفين الأمناء الأكفاء، ولكن هؤلاء لم يستطيعوا أن يغيروا غرض السياسة المرسومة أو يحولوا التيار الذي كان يدفع بالهند أمامه دفعًا. فموظفوا الادارة الهندية كانوا، بعد كل ما ذكر، عملاء رجال المال والصناعة في انجلترة ممن كان همهم الأساسي استغلال الهند.

وقد ازدادت كفاية حكومة الهند البيروقراطية هذه في كل ماله اتصال بمصالحها الخاصة ومصالح الصناعة البريطانية. أما نشر التعليم والصحة وانشاء المستشفيات والاضطلاع بضروب النشاط الأخرى الكثيرة التي من شأنها أن تنشئ شعبا سليما متقدما، فكان حظها الاهمال كل الاهمال. ولم يكن هناك تفكير في هذه الأشياء الى عهد قريب. فمدارس القرى تلاشت واندثرت. ثم بدأت الحكومة تنشر التعليم في بطء وعلى غير ارادة منها مدفوعة الى ذلك بمطالبها الخاصة. فالموظفون الانجليزي قد احتلوا كل الوظائف العالية، ولكنهم لم يستطيعوا أن يملئوا الوظائف الصغيرة أو الكتابية. ولما كانت الحكومة في حاجة الى كتبة، فقد أنشأ الانجليز المدارس والكليات في أول الأمر

لتخريج الكتبة وصغار الموظفين. ومنذ ذاك التاريخ أصبح هذا غرض التعليم الأساسي في الهند، وغالبية من أخرجهم هذا النظام التعليمي كانوا صالحين للأعمال الكتابية فقط. ولكن سرعان ما صار عدد الكتبة المتخرجين في المدارس والكليات أكثر مما تستوعبه دواوين الحكومة والمصالح الأخرى. ومن ثم ترك كثيرون منهم بلا عمل فكونوا طبقة جديدة من المتعطلين المتعلمين. ومن أجل ذلك كانت الكثرة الغالبة من الكتبة في أول الأمر بنغاليين.

وفي عام ١٨٧٥ أنشئت ثلاث جامعات في كلكتا، وبومباي، ومدارس. وهناك حقيقة تستحق التسجيل، وهي أن المسلمين في الهند لم يتحمسوا للتعليم الجديد أو يتقبلوه، ولهذا تخلفوا في سباق الكتبة والوظائف الحكومية. وقد أصبح ذلك فيما بعد سببًا من أسباب شعورهم بالغبن وعدم المساواة.

وهناك حقيقة أخرى تستحق التسجيل، وهي أن البنات أهملن اهمالا تاما من حيث التعليم حتى عندما بدأت الحكومة تضطلع بنشره. ولم يكن ذلك بالأمر المدهش أو المستغرب، لأن الغرض من التعليم الذي كانت تنشره الحكومة هو، كما ذكرت آنفا، اعداد طبقة من الكتبة، وكان الرجال هم المطلوبون وقتئذ، نظرا للتقاليد الاجتماعية المتخلفة. ومن ثم أهملت البنات اهمالا تاما، ولكن حدث بعد ذلك بزمن طويل أن بدأت العناية قليلا بتعليمهن.

١١٤- إنجلترة تفرض الأفيون على الصين

١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢

لقد حدثتك في اسهاب عن التأثير الذي أحدثته الثورة الصناعية وثورة الآلات الحديثة فيالهند، كما حدثتك عن أساليب الاستعمار البريطاني في بلادنا.

ولكوني هنديا فأنا وطني متعصب لوطني، ومن أجل ذلك لا أستطيع أن أرى الأشياء الا بعين الوطني المتشيع لوطنه. ولكني حاولت، كما أود لك أن تحاولي، النظر الى هذه القضايا نظرة العالم الذي يختبر الحقائق بلا محاباة، لا نظرة الوطني الذي يركز كل همه في البرهنة على القضية من جانب واحد.

فالوطنية أو القومية حسنة في موضعها، ولكنها صديق لا يعتمد عليه ومؤرخ خطر لا يؤمن جانبه، فهي تعمينا عم رؤية كثير من الأحداث، وتشوه الحقيقة.. أحيانا، ولا سيما اذا كانت هذه الحقيقة تتصل بنا أو بوطننا. ولهذا علينا أن نكون في غاية اليقظة والحذر عندما ننظر في تاريخ الهند الحديث، فلا نلقى بكل اللوم والتعية في ضعفنا وتخلفناومتاعبنا على الانجليز.

لقد رأينا من قبل كيف استغل الهند رجال الصناعة ورجال المال

الانجليز في القرن التاسع عشر. والآن دعينا ننتقل الى الصين أكبر قطر في آسيا، وصديق الهند القديم، والذي يعتبر من أعرق الشعوب وأقدمها. فهنا سيطالعنا نوع آخر من استغلال الغرب.

فالصين لم يقدر عليها أن تصير مستعمرة أو تابعة لدولة أوروبية كما حدث للهند. أجل، نجت الصين من هذا القدر، بفضل ما أتيح لها من حكومة مركزية قوية نوعا ما، حكومة استطاعت أن تبقي على البلاد متماسكة حتى قبيل منتصف القرن التاسع عشر.

أما الهند، كما رأينا، فقد تفتتت الى أجزاء قبل هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة، وعلى التحديد عندما سقطت الامبراطورية المغولية.

ومع أن الصين با عليها الضعف في القرن التاسع عشر، فانها ظلت متماسكة الى النهاية. وتحاسد الدولة الأجنبية وغيرة بعضها من بعض منعتها من أن تتدخل في شئون الصين وتنتفع كثيرا من ضعفها.

وقد أخبرتك في رسالتي الرابعة والتسعين أن الانجليز قاموا بمحاولات كثيرة لزيادة تجارتهم مع الصين. وفي هذه الرسالة أيضًا اقتبست لك نبذة طويلة[١٠] من الرسالة الشامخة التي رد بها امبراطور

[١٠] هذه النبذة هي: "... أنت أيها الملك الذي يعيش عبر بحار كثيرة ومع ذلك تدفعك رغبة متواضعة للانتفاع من خيرات حضارتنا. أنت يا من أوفدت بعثة تحمل في احترام رسالتك، ولكي تظهر ولاءك أرسلت أيضا هدايا من منتجات بلادك. لقد قرأت رسالتك التي تظهر عباراتها الجادة ذلة محترمة من جانب تستحق عليها الثناء. ومع تحكمي في الدنيا الواسعة

الصين "تشين لون" على رسالة ملك الانجليز جورجالثالث التي بعث بها مع السفارة التي أوفدها لانشاء علاقات تجارية بين الصين وانجلترة.

لقد حدث ذلك عام ١٧٩٢. وهذا التاريخ سيذكرك بالفترات العاصفة التي مرت بها أوربا وقتئذ. سيذكرك بفترة الثورة الفرنسية، فترة نابليون والحروب النابليونية، وبانشغال انجارتة بقتالها المستميت ضد نابليون. ولهذا لم يكن هناك بالنسبة لانجلترة تفكير في التوسع التجاري مع الصين حتى سقط نابليون وتنفست هي الصعداء.

وفي عام ١٨١٦ نرى انجلترة توفد بعثة أخرى الى الصين، ولكن حدث أن قامت صعوبة بسبب طريقة استقبال هذه البعثة، فقدكان مفروضا أن تسجد البعثة أمام الامبراطور اظهارًا للخضوع والذلة، ولكن المبعوث البريطاني لورد أمهيرست امتنع عن ذلك فرفض امبراطور الصين مقابلته وأمره بالرجوع الى بلاده. وعلى ذلك لم تكلل مهمة هذه البعثة بالنجاح.

وعلى الرغم من ذلك فقدكانت هناك تجارة جديدة تنمو سريعا، هي تجارة الأفيون. وقد لا يكون صحيحا أن تسمى هذه تجارة جديدة، لأن الصين كانت تستورد الأفيون من الهند منذ القرن الخامس عشر. وقد

ليس لي غير أمل واحد هو أن أحافظ على حكمي الكامل وأن أضطلع بواجبات الدولة. أما الأغراض الغريبة الباهظة الثمن فلا تهمني. ولست في حاجة إلى استعمال مصنوعات بلادك. وانه ليليق بك أيها الملك أن تحترم عواطفي، وأن تضمن السلام والرفاهية لشعبك بعد اليوم ...

وأطعني في خوف ولا تظهر الاهمال وعدم الاكتراث! "

أرسلت الهند الى الصين في الماضي أشياء كثيرة حسنة، وكان الأفيون في الحقيقة أحد الأشياء السيئة التي أرسلتها الهند اليها. ولكن هذه التجارة كانت محدودة، ثم أخذت تنمو وتنشر في القرن التاسع عشر على أيدي الأوربين، ولا سيما شركة الهند الشرقية التي احتكرت التجارة البريطانية.

ويقال ان الهولنديين في الشرق اعتادوا أن يخلطوا الأفيون بتبغهم ثم يدخنوه وقاية من الملاريا. وعن طريقهم انتقلت عادة تدخين الأفيون الى الصين، ولكن على صورة أسوأ، لان الصينين كانوا يدخنونه نقيا غير مخلوط. ثم أرادت الحكومة أن تحول دون انتشار هذه العادة، فقد رأت أن للأفيون أثرا بالغا وخطرا شديدا على الشعب، وأن تجارته أيضًا تمتص جزءا كبيرا من ثورة البلاد الى الخارج.

من أجل ذلك أصدرت الحكومة الصينية عام ١٨٠٠ مرسومًا يقضي بتحريم استيراد الأفيون ودخوله الى الصين لأي غرض من الأغراض. ولما كانت تجارته رابحة جدًا بالنسبة للأجانب فانهم أخذوا في تهريبه الى الصين، وفي رشوة الموظوفين الصينين ليتغاضوا عنه.

عندئذ أصدرت الحكومة الصينية أمرا يحرم على موظفيها مقابلة التجار الاجانب ويفرض عقوبات صارمة على من يعلم أي أجنبي اللغة الصينية أو لغات المانشو. ولكن ذلك لم يجد نفعا في مقاومة تجارة الأفيون، فقد استمرت على الرغم من هذه القيود والعقوبات مستعينة في وجودها بالرشوة والفساد.

وقد تطورت هذه المشكلة بالنسبة للصين من سيئ الى أسوأ بعد عام ١٨٣٤ حينما أنهت الحكومة البريطانية احتكار شركة الهند الشرقية لتجارة الصين وجعلت هذه التجارة حرة لكل التجار البريطانيين. وترتب على ذلك أن ازدادت فجأة حركة تهريب الأفيون لدرجة اضطرت الحكومة الصينية معها أن تأخذ اجراء قويا لقمعها.

وقد تمثل هذا الاجراء في اختيار الحكومة لرجل قوي من رجالها يدعى "لين تسي شي" وتعيينه رئيسا لادارة مقاومة حركة تهريب الأفيون. ولم يكد "لين تسي شي" يكلف بهذه المهمة حتى قام بعمل سريع قوي. لقد انتقل في الحال الى "كانتون" في الجنوب حيث كانت مركزًا رئيسيًا لهذه التجارة غير المشروعة، وأمر كل التجار الأجانب هناك أن يسلموه كل ما عندهم من أفيون. ورفض هؤلاء التجار أن يطيعوا هذا الأمر أولا، ولكن"لين" أجبرهم على اطاعته بعزلهم في مصانعهم، وبحمل عمالهم وخدمهم الصينيين على أن يتركوهم، وبمنع الطعام من الوصول اليهم من الخارج. وازاء هذه الشدة والصرامة وهذا التصرف المحكم لم يسع التجار الأجانب الا أن يسلموا مكرهين للمسئولين الصينيين عشرين ألف صندوق من الأفيون. وقد أخذ "لين" هذه الكميات الهائلة التي كانت معدة للتهريب وأتلفها. ولم يكتف "لين" بهذا، بل أخبر التجار الأجانب بأنه لن يسمح لأي سفينة بالدخول الى كانتون حتى يعطي ضابطها تعهدا بأنه لا يحمل أفيونا عليها. فاذا نقض هذا التعهد فان الحكومة الصينية

تكون في حل من مصادرة السفينة بما عليها. ومما لا شك فيه أن "لين" كان شخصا كفئا، أنه قام بما أسند اليه من عمل خير قيام، ولكنه لم يدرك أن نتائج تصرفاته ستعود بالوبال على الصين.

وتتلخص هذه النتائج في اشتباك الصين مع بريطانيا في حرب، وفي هزيمة الصين في هذه الحرب، وتوقيعها معاهدة مذلة، وفي دفع الأفيون الذي حاولت الحكومة الصينية تحريمه الى حلوق الصينيين كرها. وسواء أكان الأفيون خيرا أو شرا للصينيين فان هذا لم يكن أمرا مهما. انما كان المهم هو أن تهريب الأفيون كان عملا مربحا للتجار البريطانيين، وأن بريطانيا لم تكن مستعدة لأن تتسامح في ضياع هذا الدخل.

ولما كان معظم الأفيون الذي أتلفه "لين" يخص التجار البريطانيين فان بريطانيا اشتبكت عام ١٨٤٠ في حرب مع الصين باسم الدفاع عن الشرف الوطني، وقد سميت هذه الحرب بحق "حرب الأفيون"، لأنها حوربت وكسبت بغية الوصول الى حق فرض الأفيون على الصين.

ولم تستطع الصين أن تفعل شيئا ضد الأسطول البريطاني الذي حاصر كانتون موانئ أخرى. وقد اضطرت الصين بعد حرب دامت عامين أن تستسلم. وفي عام ١٨٤٢ وقعت معاهدة نانكين التي نصت على وجوب فتح خمس موانئ صينية للتجارة الأجنبية، وهذا يعني بوجه خاص فتحها لتجارة الأفيون حينئذ. وهذه الموانئ الخمس هي كانتون، وشنغهاي، وأموي، وننجبو، وفوتشنو، وقد سمين هذه بموانئ المعاهدة. ولم تكتف بريطانيا

بذلك، بل استولت أيضًا عنوة مبالغ طائلة كتعويض لأفيون تجارها الذي أتلف ولتكاليف الحرب التي فرضتها فرضا على الصين.

وهكذا حقق البريطانيون انتصار الأفيون. وقد بعث امبراطور الصين بالتماس خاص الى الملكة فيكتوريا ملكة انجلترة وقتئذ مبينا لها في أدب واحترام الآثار الشنيعة المنكرة الناشئة من فرض تجارة الأفيون على الصين، ولكنه لم يتلق أي جواب من الملكة على التماسه. فما أعظم الفرق بين هذا الالتماس المهذب وبين الرسالة الشامخة التي بعث بها منذ نحو خمسين سنة أحد أسلافه الامبراطور "تشين لون" الى ملك الانجليز جورج الثالث!

هذا كان بدء متاعب الصين ومشاكلها مع دول الغرب الاستعمارية. لقد انتهي عصر عزلتها، وصار عليها أن تقبل التجارة الأجنبية، وأن تقبل، بالاضافة الى ذلك، المبشرين المسيحيين الذين لعبوا دورًا هامًا في الصين، هو دور الطليعة في جيش الاستعمار.

ومعظم متاعب الصين التي تلت كان لها اتصال بالمبشرين. فكثيرا ما كان مسلك هؤلاء وتصرفهم وقحا مثيرا، ولكن لم يكن من المستطاع محاكمتهم أمام المحاكم الصينية، لأن معاهدة نانكين الجديدة نصت على عدم محاكمة الأجانب الغربيين الموجودين في الصين أمام المحاكم الصينينة، أو بمقتضى قوانين الصين، وانما يحاكمون أمام محاكمهم الخاصة، وقد سمي هذا بـ "الامتياز الخاص" ولا يزال هذا الامتياز

قائمًا[١١] حتى الآن على شدة حنق الصينيين عليه. ومن العجيب أن الصينيين الذين تحولوا الى مسيحيين على أيدي المبشرين ادعوا لأنفسهم هذه "الحماية الخاصة".. وهؤلاء لم يكن لهم بأي حال من الأحوال حق في هذه الحماية الخاصة، ولكن هذا لم يغير من الوقف في شئ، لأن المبشرين الكبار الذين يمثلون الشعب الاستعماري القوي كانوا يقفون من ورائهم.

وكان المبشرون أحيانا يؤلبون قرية ضد قرية أخرى، وكان القرويون وغيرهم، اذا بلغ بهم الغيظ والسخط أقصاه، يثورون ويهجمون على المبشرين، وفي بعض الأحيان كانوا يقتلونهم. عندئذ كانت الدولة الاستعمارية التي تقف من خلف هؤلاء المبشرين تنقض على الثوار وتأخذ منهم ما تشاء من تعويض.

وقد استغلت الدول الأوربية الى أقصى الحدود بعض حوادث القتل التي وقعت في الصين على المبشرين من أجناسهم، فجعلت منها فرصا لمطالبة الصين بمزيد من الامتيازات والحصول عليها.

وثورة "تابن" التي تعتبر من أفظع وأبشع الثورات التي ظهرت في الصين قد بدأها أيضا مرتد اعتنق المسيحية على أيدي المبشرين. وقد قام بها عام ١٨٥٠ شخص نصف مجنون يدعى "هن شو تشوان"..

---

١١ كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٢ أي منذ ربع قرن. وقد ألغى هذا الامتياز بعد ذلك من الصين. " المترجم "

فهذا المجنون الديني نجح نجاحا بعيد المدى وانطلق في كل مكان يدعو الى الحرب صائحًا: "اقتلوا عباد الأوثان". ونتيجة لذلك قتلت جموع كثيرة. وقد خربت هذه الثورة أكثر من نصف الصين وقدر عدد من راحوا ضحيتها خلال اثنى عشر عامًا تقريبا بنحو عشرين مليونا من السكان. وليس من العدل في شئ أن نحمل المبشرين المسيحين والدول الأجنبية وزر هذه الثورة ومن قتلوا بسببها، واذا كان يبدو أن المبشرين باركوها في أول الأمر فانهم فيما بعد أنكروا "هن شوتشوان".

ولكن الحكومة الصينية ظلت على آية تعتقد أن المبشرين المسيحيين مسئولون عنها. وهذا الاعتقاد يجعلنا ندرك مدى سخط الصينيين على نشاط المبشرين وقتذاك وبعد ذاك. فالمبشرون في نظر الصينيين لم يفدوا الى بلادهم كرسل دين ودعاة خير وسلام، وانما وفدوا اليها كعملاء للاستعمار، أو كما قال كاتب انجليزي: "المبشر أولا، ثم السفينة الحربية، ثم احتلال البلاد وخطفها". هكذا تنظر العقلية الصينية الى موكب الحوادث. وجدير بك أن تتذكري هذا لأن المبشر كثيرًا ما يتسلل أكثر مما ينبغي في شئون الصين ومشاكلها.

ومن الغريب المدهش أن ثورة يقودها متعصب ديني مجنون يتاح لها كل هذا النجاح قبل القضاء عليها نهائيا. والسبب الحقيقي في هذا هو أن النظام القديم في الصين كان قد بدأ في التداعي والانهيار. وأذكر أني أخبرتك في آخر رسالة عن الصين عن عبء الضرائب فيها، وعن

أحوالها الاقتصادية المتغيرة، وعن ضجر الشعب المتزايد. فالجمعيات السرية كانت تثور ضد حكومة المانشو في كل مكان، وكانت بوادر التمرد العامة تلوح في الجو.

وما من شك في أن التجارة الاجنبية، وتجارة الأفيون والسلع الأخرى قد زادت الأحوال سوءا. لقد كانت التجارة الاجنبية ترد طبعا الى الصين في الماضي، ولكن الأحوال كانت قد تغيرت في العصر الذي نتحدث عنه.

فمصانع الغرب الحديثة الآلات بدأت تنتج في سرعة كثيرًا من السلع التي لا يمكن بيعها كلها في بلادها. لهذا كان على الدول الغربية أن تجد لمنتجات مصانعها أسواقا في أماكن مختلفة من العالم. فهذه المنتجات وبخاصة الأفيون قبلت نظم التجارة القديمة رأسا على عقب، ومن ثم زاد الاضطراب الاقتصادي سوءا على سوء. وكما حدث في الهند بدأت أسعار السلع في الأسواق الصينية تتأثر بالأسعار العالمية. وكل هذا زاد من بؤس الصينيين وضجرهم وقوى من ثورة "تابن".

تلك كانت الأوضاع في الصين عند ما بدأت الدول الغربية تتدخل في شئونها وتدل عليها بقوتها وعظمتها. فليس عجيبًا اذن ترى الصين نفسها غير قادرة على الصمود أمامهم ورفض مطالبهم. ولم تكد الدول الغربية – واليابات حديثا جدًا كما سنرى فيما بعد – يرون ما عليه الصين من حيرة واضطراب وما تعانيه من متاعب وقلاقل حتى استغلوا هذه

الفرصة السانحة كل الاستغلال، بالاستيلاء على امتيازات جديدة منها واعتصاب أجزاء من أراضيها أيضًا.

وكان من الممكن حقًا أن تسير الصين في نفس الطريق التي سارت فيها الهند فتصبح امبراطورية لليابان ولدولة أو أكثر من الدول الغربية لولا ما كان بين هذه الدول من المنافسة والتحاسد والغيرة المتبادلة.

لقد حدثتك عن حالة الصين العامة خلال القرن التاسع عشر، كما حدثتك عن انهيارها الاقتصادي، وعن ثورة "تابن"، وعن المبشرين والاعتداء الغربي عليها. وأشعر أني بذلك قد انحرفت عن مجرى القصة الرئيسي أن يتتبع بفهم سرد الحوادث. أقول ذلك لأن حوادث التاريخ لا تقع كالمعجزات، وانما تحدث لأن أسبابا شتى تتضافر على وجودها، وكثيرًا ما تختفي هذه الأسباب وتكمن تحت سطح الحوادث.

ولا بد أن حكام الصين الذين كانوا الى عهد قريب في غاية القوة والعظمة قد اعتراتهم الدهشة للتغير المفاجئ الذي طرأ على عجلة الحظ بالنسبة لهم. ولعلهم لم يتبينوا أن جذور انهيارهم تمتد بعيدًا في ماضيهم، ولعلهم أيضًا لم يقدروا تقدم الغرب الصناعي ونتائجه الخطيرة على نظام الصين الاقتصادي.

ولم يملكوا ازاء كل الا أن يحنقوا كل الحنق على هجمات الاجانب "البرابرة" واعتداءاتهم عليهم. ويروى أن امبراطور الصين في ذاك العصر استعمل في معرض الاشارة الى هذه الهجمات والاعتداءات

تعبيرا لطيفا من تعابير اللغة الصينية الفصحى معناه أنه "لا يسمح لأحد أن يغط ويشخر وبالقرب من سريره"! ولكن حكمة اللغات القديمة أو فكاهتها لا تسطيع، مع ما تعلمه من ثقة مطمئنة وشجاعة فائقة وضبط للنفس في ساعات المحن والشدائد، أن تصد الاجنبي وترده.

لقد فتحت معاهدة نانكين الباب لبريطانيا في الصين، ولكن بريطانيا ما كان ليسمح لها أن تفوز بأطايب الغنيمة وحدها، ففرنسا والوليات المتحدة دخلتا الصين أيضا وأكرهتاها على توقيع معاهدة تجارية معهما. لقد كانت الصين وقتئذ ضعيفة مغلوبة على أمرها، ولكن هذا الاكراه الذي فرض عليها لم يجعلها تحب الأجانب أو تحترمهم. أجل، كان حنقها وسخطها شديدين على وجود هؤلاء "البرابرة" بين ظهرانيها، بيد أن الأجانب كانوا أبعد ما يكونون عن الرضا بما ظفروا. فشهوتهم في استغلال الصين قد بدأت تنمو وتقوى، وكانت بريطانيا أسبق الدول الأخرى في هذا المضمار.

وقد كان هذا الوقت مناسبا جدا للأجانب لتحقيق مآربهم منها، فقد كانت مشغولة بثورة "تابن"، ومن ثم لم يكن في مقدورها أن تقاوم هؤلاء الدخلاء. وحدث في عام ١٨٥٦ أن قبض والي كانتون على بحارة صينين بتهمة القرصنة. وكانت السفينة التي يعمل فيها هؤلاء البحارة سفينة صينية لا صلة لها بالدول الأجنبية، ولكنها كانت ترفع العلم البريطاني بتصريح من حكومة هونكونج، ومع أن هذا التصريح كانت مدته

قد انتهت فان الحكومة البريطانية ممثلة دور الذئب والحمل في القصة المشهورة، اعتبرت هذا الحادث عذرًا كافيا للحرب.

لهذا أرسلت بريطانيا جنودها الى الصين، ولكن حدث وقتئذ أن قامت في الهند ثورة ١٨٥٧ فحولت بريطانيا هؤلاء الجنود من الصين الى الهند، واضطرت حرب الصين أن تنتظر حتى تفرغ بريطانيا من القضاء على ثورة الهند.

وفي عام ١٨٥٨ بدأت حرب الصين الثانية، وقد اكتشفت فرنسا في مقتل مبشر فرنسي في مكان ما في الصين تكأة وعذرا لها للاشتراك في هذه الحرب. ولهذا انقض الانجليز والفرنسيون على الصينيين الذين كانوا مشغولين بمكافحة ثورة "تابن".

وحاولت حكومتا انجلترة وفرنسا أن تستميلا روسيا والولايات المتحدة الامريكية للاشتراك أيضا في هذه الحرب، ولكنهما لم توافقا، وان كان لم يكن لديهما مانع من المشاركة في الغنائم والأسلاب!

وقد اضطرت الصين أن تنزل في النهاية على ارادة هذه الدول الأربع فتوقع معها معاهدات جديدة أكرهت بمقتضاها على أن تعطيهم امتيازات أكثر من قبل، وعلى أن تزيد في عدد الموانى الصينية المفتوحة أمام التجارة الأجنبية.

ولكن قصة حرب الصين الثانية لم تنته بعد الى هذا الحد، فقد كان لا يزال هناك فصل آخر من المآساة آثاره ونتائجه أشد ايجاعا وايلاما.

فالعادة عند ما تعقد معاهدات بين الحكومات أن تصدق عليها أو تؤكدها الدول المتعاقدة، ولهذا اتفق عند عقد هذه المعاهدات الجديدة أن يتم التصديق عليها بين الصين من جهة، وانجلترة وفرنسا وروسيا والولات المتحدة الأمريكية من جهة أخرى في مدينة بكين. فلما حان موعد هذا التصديق حضر ممثلو روسيا مباشرة الى بكين طريق البر، بينما حضر ممثلو الدول الثلاث الأخرى بطريق البحر.وقد أرادوا أن يحضروا بسفنهم الى بكين عن طريق نهر البيهو **Peiho** الذي أقيمت عليه وقتذاك استحكامات وتحصينات دفاعا عن هذه المدينة التي كانت مهددة بثوار تابن.

من أجل ذلك طلبت الحكومة الصينية الى ممثلي انجلترة وفرنسا والولايات المتحدة أن يتفادوا الحضور الى بكين عن طريق النهر وأن يحضروا اليها عن طريق البر. ولم تكن الصين في طلبها هذا متعنتة أو غير معقولة.

وقد استجاب ممثل أمريكا لهذا الطلب، أما ممثلا بريطانيا وفرنسا فرفضاه وحاولا أن يشقا طريقهما بالقوة في نهر البيهو الى بكين غير عابئين بوجهة نظر الحكومة الصينية. عندئذ أطلق الصينيون النيران على سفنهما وأكرهوهما على العودة بعد خساشر فادحة.

ولكن حكومتي بريطانيا وفرنسا المتعجرفتين المتغطرستين اللتين لم تقبلا حتى مجرد الاصغاء الى التماس الحكومة الصينية لم تستطيعا أن

تغتفرا لها هذا التصرف أو تحتملاه منها. ولهذا أرسلتا فرقا كثيرة من جنودهما للانتقام. وفي عام ١٨٦٠ زحفت هذه الجنود على مدينة بكين القديمة، وتمثل انتقامهما في صورة تدمير ونهب وحرق لمبنى من أجمل وأعجب المباني في المدينة. ذلك المبنى هو قصر الصيف الامبراطوري، المعروف باسم "يوان مين يوان" **Yuen-Ming-Yuen** والذي أكمل بناؤه في عهد "تشين لون". لقد كان هذا القصر حافلا بذخائر الفن والأدب النادرة، وبأعمال قديمة من البرونز ذات جمال فائق، وبقطع فنية من الخزف الصيني التي تستولى على الألباب، وبمخطوطات وصور نادرة. وعلى الاجمال كان حافلا بكل لون من ألوان الفنون وبأرفع وأرقى ما أنتجته الصين واشتهرت به منذ ألف سنة.

فهؤلاء الجنود البريطانيون والفرنسيون، أو هؤلاء الونداليون الجهلة المغرمون بتخريب الآثار القديمة وأعمال الفن النادرة قد نهبوا من هذه الذخائر القيمة ما نهبوا ثم دمروا ما بقي منها وأضرموا فيه النيران التي ظلت مشتعلة أياما كثيرة!

فهل يكون أمرا عجبا أن ينظر الصينيون، ومن خلفهم ثقافة آلاف السنين، الى هذه الوندالية بألم مبرح في قلوبهم، وأن يعتبروا هؤلاء المحطمين جهلة برابرة لا يعرفون الا كيف يقتلون ويخربون؟ ولا بد أن ذكريات الهون **Huns** والمغول وكثيرين غيرهم من المخربين وبرابرة العصور القديمة قد عادت اليهم.

ولكن البرابرة الأجانب لم يهتموا أي اهتمام برأي الصينيين فيهم. لقد شعروا بالحماية والأمن في ظل سفنهم الحربية ومع أسلحة الحرب الحديثة. وماذا يهمهم اذا كانت الذخائر الثمينة النادرة التي جمعت خلال مئات السنين لم يعد لها وجود أي وجود؟ وماذا يعينهم من أمر الفن الصيني والثقافة الصينية؟ وكأني بهم يتمثلون بقول القائل: "مهما يحدث فقد حصلنا على حكمة المدفع، أما هم فلم يحصلوا على هذه الحكمة!" .

١٣١- تقدم الديمقراطية

١٠ فبراير سنة ١٩٣٣

حاولت في رسالتي الماضية أن أعطيك لمحة عن تقدم العلم في القرن التاسع عشر. والآن دعينا ننظر الى مظهر آخر من مظاهر هذا القرن، وأعني بذلك ظهور فكرة الديمقراطية.

ولعلك تذكرين أني حدثتك عن حرب الأفكار في فرنسا القرن الثامن عشر، تلك الحرب التي شنها فولتير أكبر مفكر وكاتب في عصره، والتي اشترك معه فيها غيره من مفكري فرنسا وكتابها. فهؤلاء قد تحدوا كثيرا من الأفكار الدينية والاجتماعية القديمة، وطلعوا في جرأة وشجاعة على الناس بنظريات جديدة.

وهذا التفكير السياسي كان في جملتها قاصرًا على فرنسا في ذلك الوقت. وفي المانيا شغل فلاسقتها أنفسهم بأعوص قضايا الفلسفة وأعمقها. أما في انجلترة فقد كانت الصناعة والتجارة في ازدياد وانتشار، ولم يكن أكثر الناس فيها ميالين الى التفكير الا اذا فرضت الظروف عليهم ذلك فرضا.

وعلى الرغم من ذلك فقد ظهر بانجلترة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كتاب مشهور هو كتاب آدم سميث المسمى "ثروة

الشعوب". لم يكن كتابا عن السياسة بمفهومها العام، وانما كان كتابا عن الاقتصاد السياسي. فهذا الموضوع، ككل الموضوعات الأخرى في ذاك العصر، كان مختلطًا بالدين والأخلاق، ومن ثم كان هنا كثير من سوء فهمه والحيرة في شأنه.

وقد عالجه آدم سميث بطريقة علمية غير عابئ بكل المشاكل الخلفية، وحاول أن يجد قوانين طبيعية تضبط الاقتصاد وتنظيمه. والاقتصاد، كما يحتمل أن تعرفي، يعالج سياسة دخل الأفراد والدول وصرفهم من حيث ما ينتجون ويستهلكون، ومن حيث صلاتهم بعضهم ببعض وبالدول والشعوب الأخرى.

وفي رأي آدم سيمث أن كل هذه العمليات المعقدة تقريبا قد حدثت بناء على قوانين طبيعية محددة أوردوها في كتابه. وفي رأيه أيضا أن الحرية الكاملة يجب أن تعطى من أجل تنمية الصناعة فلا يتدخل شئ في هذه القوانين أو يعترض سبيلها.

كان هذا بدء مذهب سياسة السماح للأشياء بأن تأخذ طريقها الطبيعي وسياسة عدم التدخل في المشروعات الخاصة، هذا المذهب الذي حدثتك قليلا عنه من قبل.

وكتاب آدم سميث لا علاقة له بالأفكار الديمقراطية الجديدة التي نمت وانتشرت في فرنسا وقتئذ. ولكن محاولته التي تمثلت في المعالجة العلمية لمشكلة من أهم المشاكل التي أثرت في الناس والشعوب تظهر

أن الناس كانوا يسيرون في اتجاه جديد بعيد عن الاتجاه اللاهوتي القديم، وعن نظرته الى كل شئ. ويعتبر آدم سميث واضح علم الاقتصاد، وكثيرون من علماء الاقتصاد الانجليز في القرن التاسع عشر قد استوحوا نظرياته، وتأثروا بأفكاره.

وكان علم الاقتصاد الجديد قاصرا على أساتذة الجامعات وبعض الكتاب المشهورين. ولكن أفكار الديمقراطية الجديدة كانت في الوقت ذاته آخذة في الانتشار، وقد أعطتها الثوتان الأمريكية والفرنسية شعبية وذيوعا هائلين. فالألفاظ والتعابير الخلابة التي اشتمل عليها اعلان الاستقلال الأمريكي واعلان الحقوق الفرنسي هزت الناس وبلغت الى الاعماق من نفوسهم وقلوبهم. كذلك حملت الى الملايين من المستعبدين والمستغلين نشوة الامل ورسالة الانقاذ والخلاص.

فكلا الاعلانين تحدث عن الحرية والمساواة، وعن السعادة التي هي حق طبيعي لكل انسان. ولكن هذا الاعلان المشتمل على هذه الحقوق القيمة لم يؤد الى حصول الناس عليها. ويمكن القول بأنه حتى الآن وبعد مرور قرن ونصف قرن على هذين الاعلانين لا يتمتع بهذه الحقوق الا القليل. ولكن حتى اعلان هذه المبادئ وحده كان أمرا غير عادي وباعثا على الأمل.

وكانت الفكرة القديمة في أوربا وغيرها من الأماكن، وفي المسيحية وغيرها من الأديان، هي أن الخطيئة والشقاء قضاء محتوم على الانسان

عامة، ويبدو أن الدين أعطى مكانة دائمة بل وموموقة أيضا للفقر والبؤس في هذه الدنيا. فكل ما وعد به الدين ومنى به الانسان من خير وثواب كان ليلقاه في الحياة الأخرى، وفي هذا يأمرنا الدين أن نحتمل كل ما هو مقدر علينا في استسلام، وألا نبغي أو ننشد أي تغيير جوهري. ومن ثم شجع الاحسان والتصدق على الفقير دون التفكير في القضاء على الفقر أو على النظام الذي أدى اليه. بل ان فكرة الحرية والمساواة ذاتها كانت تتعارض مع النظرة الاستبدادية للكنيسة والمجتمع.

والديمقراطية طبعا لم تزعم أن كل الناس في حقيقة أمرهم متساوون. لم تستطع الديمقراطية أن تزعم هذا، لأن من الواضح أن هناك فروقا بين مختلف الناس. فهناك عدم المساواة الجثمانية التي تؤدي الى أن يكون بعض الناس أقوى من بعض. وهناك عدم المساواة العقلية التي تؤدي الى أن يكون من الناس من هم أكفأ وأكثر عقلا وحكمة من الآخرين. وهناك عدم المساواة الخلقية التي تؤدي الى أن يكون بعض الناس أنانيين وبعضهم مؤثرين غير أنانيين.

ومن الجائز أن كثيرًا من ألوان عدم المساواة ناتج من اختلاف النشأة واختلاف التعليم، أو عدم التعليم. فاذا أخذنا اثنين متساويين في الاستعداد والقدرة والمهارة، وعلمنا أحدهما تعليما حسنا ولم نعلم الآخر أي تعليم، فاننا نرى بعد سنوات أن الفرق بينهما شاسع. واذا غذينا أحدهما تغذية صحية، والآخر تغذية رديئة ناقصة فان الأول يشب قويا

صحيحا على حين ينشأ الثاني هزيلا مريضا قليل النمو. ولهذا فالنشأة والبيئة والتعليم والتدريب من شأنها أن تحدث فرقا كبيرا بين انسان وانسان. ومن يدري فلعلنا اذا أعطينا نفس الظروف والفرص للجميع أن يكون عدم المساواة بين الناس أقل بكثير مما هو عليه الآن. وعندي أن هذا أمر محتمل جدا.

ولكن اذا نظرنا للموضوع من وجهة نظر الديمقراطية فاننا نرى انها في الوقت الذي تسلم فيه بأن الناس في الواقع غير متساوين، تقرر أن كل انسان يجب أن يعامل على أن له مثل ما لأي انسان آخر من قيمة سياسية واجتماعية متساوية. فاذا قبلنا هذه النظرية في جملتها فان الامر ينتهي بنا الى كل نوع من أنواع النتائج الثورية.

ولسنا بحاجة الى الخوف في هذه النتائج في هذه المرحلة، ولكن نتيجة واحدة من هذه النتائج هي أن كل شخص يجب أن يكون له صوت في انتخاب ممثل أو نائب للبرلمان. فالصوت هو رمز القوة السياسية، ومفروض أنه اذا كان لكل شخص صوت، فانه يكون له نصيب مساو لنصيب غيره في القوة السياسية. ولهذا فان التوسع في حق الانتخاب كان أحد المطالب الرئيسية للديمقراطية خلال القرن التاسع عشر. فحق الانتخاب لكل من بلغ سن الرشد يعني أن كل واحد من هؤلاء يجب أن يكون له صوت في الانتخاب. ولعهد طويل كان غير مسموح للنساء بالانتخاب. وحديثا جدا قامت النساء، ولا سيما في بريطانيا، بصخب شديد من أجل المطالبة بحقهن

الانتخابي. وفي معظم الدول التقدمية قد أعطى الآن حق الانتخاب لكل من بلغ سن الرشد من الرجال والنساء على السواء.

والعجيب في هذا الموضوع هو أن معظم الناس عندما حصلوا على حق الانتخاب وجدوا أنه لم يحدث فرقًا كبيرًا بالنسبة لهم. فعلى الرغم من اكتسابهم هذا الحق لم يكن لهم قوة أي قوة في الدولة، لأن اعطاء الحق في الانتخاب لرجل جائع أمر عديم الجدوى والنفع.

فالرجال ذوو القوة والسلطة الحقيقية يستطيعون استغلال جوعه ويجعلونه يؤدي أي عمل يعود عليهم بالمنفعة. وعلى هذا فالقوة السياسية التي افترض تولدها من حق الانتخاب وجد أنها بدون قوة اقتصادية خيال بلا حقيقة، كما أن الأحلام الجريئة التي حلم بها الديمقراطيون الأوائل من أن المساواة ستتلو حق الانتخاب لم تتحقق.

على أية حال ان هذا كان تطورا حديث العهد جدا. ففي نهاية القرن الثامن عشر، وبداية القرن التاسع عشر كان هناك تحمس شديد بين صفوف الديمقراطيين. فالديمقراطية كان ينظر اليها على أنها ستجعل كل انسان مواطنا حرا متساويا مع غيره، وأن حكومة الدولة ستعمل من أجل سعادة كل انسان.

كذلك وجد رد فعل شديد ضد استبداد ملوك وحكومات القرن التاسع عشر، وضد اساءة استعمال سلطتهم المطلقة. وقد أدى هذا بالناس الى المناداة بحقوق الأفراد في تصريحاتهم. ولا شك أن ما نادى

به الاعلانان الأمريكي والفرنسي من حقوق للأفراد دون ربطها بالتزاماتهم ازاء المجتمع كان نقطة ضعفهما. فليس بالأمر السهل في المجتمع المعقد أن تفصل الأفراد وتعطيهم حرية كاملة. فمصالح الفرد والجماعة قد تتصادم، بل انها تتصادم فعلا. ومهما يكن من أمر فقد ناصرت الديمقراطية الحرية الفردية الى حد كبير.

طبع الأمريكية والفرنسية. وكان رد الفعل الأول فيها هو الخوف من الأفكار الديمقراطية الجديدة، ومن احتمال وقوع ثورة اجتماعية، ومن ثم أصبحت طبقاتها الحاكمة أكثر محافظة ورجعية.

ولكن مع ذلك انتشرت الأفكار الجديدة بين المثقفين. فتوماس بين **Thomas Paine** كان من الشخصيات الانجليزية في هذا العصر. لقد كان في أمريكا ابان حرب الاستقلال وساعد الأمريكيين، ويبدو أنه كان مسئولا الى حد ما عن اعتناق الأمريكيين لفكرة الاستقلال التام، وقد ألف عند عودته الى انجلترة كتاب "حقوق الانسان" دفاعا عن الثورة الفرنسية التي كانت قد بدأت.

ففي هذا الكتاب هاجم الملكية ودافع عن الديمقراطية، وقد اعتبرته الحكومة الانجليزية بسبب ذلك مجرما خارجا عن حماية القانون، فاضطر عندئذ أن يفر الى فرنسا. وفي فرنسا سرعان ما أصبح عضوا في المجلس القومي، ولكن اليعاقبة سجنوه في عام ١٧٩٣ لمعارضته في اعدام لويس السادس عشر.

وفي سجن باريس كتب كتابا آخر هو "عصر العقل" انتقد فيه النظرة الدينية. وقد أفرج عنه بعد وفاة روبسبير. ولأنه كان خارج انجلترة حكمت المحاكم الانجليزية بالسجن على الناشر الانجليزي لكتابه "عصر العقل"، الذي اعتبر كتابا خطرا على المجتمع، لافتراض أن الدين ضروري للابقاء على الفقراء في مكانهم. كذلك حكم بالسجن على بعض ناشرين، من بينهم نساء، تجرءوا على طبع كتاب "بين". وانه لأمر ذو بال أن نرى شيلي الشاعر يرسل خطاب احتجاج الى القاضي.

وتعتبر الثورة الفرنسية في أوربا أم الأفكار الديمقراطية التي انتشرت أثناء النصف الأول من القرن التاسع عشر. وفي الحقيقة ان أفكار هذه الثورة فعالة على الرغم من الأحوال التي كانت تتغير تغيرا سريعا. فهذه الأفكار الديمقراطية كانت رد الفعل الذكي الواعي ضد الملوك والسلطة الاستبدادية، كما كانت مؤسسة على أحوال سابقة لدور التصنيع.

ولكن الصناعة الجديدة واستخدام البخار والآلات الضخمة الكبيرة قد قلبت النظام القديم رأسا على عقب. ومن الغريب مع هذا أن التقدميين والديمقراطيين في أوائل القرن التاسع عشر تجاهلوا هذه التغيرات والتطورات واستمروا يتكلمون بعبارات الثورة الخلابة وبلغة اعلان حقوق الانسان. وربما كانت هذه الأشياء بالنسبة لهم مجرد أمور مادية، لم ثؤتر في مطالب الديمقراطية العليا من روحية وخلقية وساسية.

يبد أن الأمور المادية لها طريقة ترفض بها أن تكون متجاهلة، ومن المهم

أن نعرف مدى صعوبة تخلي الناس عن الأفكار القديمة واعتناق الأفكار الجديدة. فهم يغمضون أعينهم ويقفلون عقولهم ويرفضون أن يروا. وهم يقاتلون من أجل القديم متمسكين به حتى ولو آذاهم وأضر بهم. ويكادون يفعلون أي شئ الا أن يتقبلوا الأفكار الجديدة وأن يوفقوا بين أنفسهم وبين الأحوال الجديدة، وذلك لأن قوة المحافظة قوة كبيرة غير عادية.

فالتقدميون الذين يتخيلون أنفسهم أسرع من غيرهم في فهم الجديد وتقبله، كثيرًا ما يتمسكون بالقديم الزائف ويقفلون أعينهم عن الأحوال المتغيرة. فلا عجب أن يكون التقدم بطيئًا، وأن يحدث تخلف كبير بين الأوضاع الحقيقية، وبين أفكار الناس، مما يؤدي إلى مواقف ثورية.

ولهذا كانت الديمقراطية لعشرات السنين استمرارا لتقاليد الثورة الفرنسية وأفكارها، ففشل الديمقراطية في أن توفق وتوائم بين نفسها وبين الأوضاع الجديدة أدى إلى ضعفها قبيل نهاية القرن التاسع عشر، والى انكار كثيرين من الناس لها فيما بعد في القرن العشرين. وفي الهند اليوم لا يزال كثير من ساستنا التقدميين يتكلمون بلغة الثورة الفرنسية وحقوق الانسان غير مقدرين أن أشياء كثيرة قد حدثت منذ قيام هذه الثورة.

وقد آمن الديمقراطيون الأوائل بالمذهب العقلي الذي يحكم العقل وحده ويرفض ما عداه. فمطالبتهم بحرية الفكر وحرية القول قلما يمكن التوفيق بينها وبين علم اللاهوت والدين الجازم القاطع. وهكذا انظمت الديمقراطية مع العلم في اضعاف موقف العقائد اللاهوتية. وقد بدأ الناس

يتجرءون على النظر في التوراة بعين مجردة كما لو كان كتابا عاديا وليس شيئًا يجب أن يتقبلوه قبولا أعمى وبدون نظر واختبار.

فهذا النقد للتوراة سمي "النقد الأسمى"، وقد انتهى النقاد الى أن التوراة مجموعة أعمال كتبها أشخاص مختلفون في عصور مختلفة. وكان من رأيهم أيضًا أن المسيح لم يقصد أن يؤسس ديانة. وقد تزعزعت بسبب هذا النقد كثير من المعتقدات القديمة.

ولما كان تقدم العلوم وانتشار الأفكار الديمقراطية قد أخذا يعملان على اضعاف أسس الديانة القديمة، فان محاولات بذلت لتشكيل فلسفة تحل محل الديانة القديمة. ومن هذه المحاولات محاولة الفيلسوف الفرنسي أوجست كونت الذي عاش من ١٧٩٨ الى ١٨٥٧.

فهذا الفيلسوف الفرنسي شعر بأن فلسفة الالهيات القديمة والأديان العقيدية قد استنفدت زمنها، ولكنه كان مقتنعا بأن نوعا ما من الدين ينبغي أن يبقى كضرورة اجتماعية. من أجل ذلك اقترح "دين الانسانية" وسماه "الايجابية". وقوام هذا الدين هو الحب والنظام والتقدم، ولم يكن في هذه الفلسفة الدينية شئ خارق للعادة لأنها أسست على العلم.

وفكرة تقدم الجنس البشري كانت من وراء هذه الفلسفة كما كانت حقيقة من وراء كل أفكار القرن التاسع عشر الشائعة تقريبا.

وقد ظلت ديانة "كونت" عقيدة قلة من المثقفين، ولكن تأثيره العام

على الفكر الأوربي كان تأثيرا كبيرا. ويقال انه هو أول من بدأ دراسة علم الاجتماع الذي يعالج المجتمع الانساني والثقافة الانسانية.

وكان يعاصر كونت، وان كان قد عاش سنوات كثيرة بعده، الفيلسوف والاقتصادي الانجليزي جون ستيوارت ميل، ١٨,٦ – ١٨٧٣. وقد تأثر ميل بتعاليم كونت وأفكاره الاجتماعية، وحاول أن يعطي توجيها جديدا لمدرسة الاقتصاد السياسي الانجليزية التي نشأت على تعاليم آدم سميث وأدخلت بعض المبادئ الاجتماعية على التفكير الاقتصادي.

ولكن ميل معروف أكثر كزعيم لمذهب المنفعة الذي يقول بأن سعادة الانسان هي أمنية الفضيلة ومرماها. فهذا المذهب كان نظرية جديدة بدأت مبكرة قليلا في انجلترة، ولكن الفضل يرجع الى ميل في ابرازها ولفت الأنظار اليها. وفلسفتها الموجهة، كما يوحي اسمها، هي المنفعة أو المصلحة. "فأكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس" كان المبدأ الاساسي لاتباع مذهب المنفعة والمقياس الوحيد عندهم للخطأ والصواب.

فالأعمال يحكم عليها بالصواب بالنسبة الى ما تحدثه عادة من سعادة، ويحكم عليها بالخطأ بالنسبة الى ما تحدثه عادة من عكس السعادة. وقد نادى أتباع هذا المذهب بتنظيم المجتمع والحكم على أساس وجهة النظر هذه، أي احداث أكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس.

فهذا المذهب مخالف تماما للمذهب الديمقراطي الذي يدعو الى حقوق متساوية لكل الناس. فأكبر قدر ممكن من السعادة لأكبر عدد ممكن من الناس يستوجب بصورة مدركة التضحية بأقل عدد منهم وعدم سعادتهم. لقد أردت فقط أن أبين لك هذا الفرق دون التعرض الى درسه أو تفصيله هنا. وهكذا أصبحت الديمقراطية تعني حقوق الأغلبية.

وكان جون ستيورت ميل مدافعا كبيرا عن الفكرة الديمقراطية القائلة بحرية الفرد. وقد ألف كتابا صغيرا اشتهر فيما بعد سماه "عن الحرية". ولكي تأخذي فكرة عن هذا الكتاب وأراء صاحبه أقدم اليك هنا نبذة منه عن حرية القول وحرية التعبير عن الرأي. قال:

"... إن كم الأفواه عن القول ومنعها من التعبير عن الرأي يعتبر شرا غريبا، انه نوع من سرقة الجنس البشري في الجيل الحاضر والأجيال القادمة. فاذا كان الرأي صوابا فان الناس محرومون من فرصة استبدال الصواب بالخطأ. واذا كان الرأي خطأ فانهم يفقدون ما يكاد يكون نفعا كبيرا، ألا وهو الادراك الأوضح والأثر الاشد للحقيقة الناشئة من اصطامها بالخطأ. ولا نستطيع أن نكون متأكدين من أن الرأي الذي نسعى جهدنا لخنقه رأي خاطئ. وحتى اذا كنا متأكدين من خطئه فان خنقه شر أيضا ".

فموقف كهذا لا يستطاع التوفيق بينه وبين الديانة العقيدية والاستبداد، ولا يعدو موقف فيلسوف ينشد الحقيقة ويسعى وراءها.

لقد أعطيتك أسماء بعض أعلام المفكرين في أوربا الغربية خلال القرن التاسع عشر لتظهر طريق تطور الأفكار ولتكون معالم في دنيا الفكر. ولكن تأثير هؤلاء المفكرين والديمقراطيين الأوائل عامة كان مقصورا تقريبا على الطبقات المثقفة. والى حد ما تسرب هذا التأثير من المثقفين الى غيرهم.

ومع أن التأثير المباشر على الجماهير كان تأثيرا ضئيلا فان التأثير غير المباشر للتصور الديمقراطي كان تأثير كبيرا. وحتى التأثير المباشر في بعض الأمور كالمطالبة بحق الانتخاب كان تأثيرا كبيرا. وحتى التأثير المباشر في بعض الأمور كالمطالبة بحق الانتخاب كان تأثيرا كبيرا.

وعندما اقترب القرن التاسع عشر من نهايته كانت حركات وأفكار أخرى قد تطورت، كحركة الطبقة العاملة وفكرة الاشتراكية. فهذه أثرت على الأفكار الديمقراطية الشائعة وتأثرت بها.

ومن الناس من نظر الى الاشتراكية على أنها بديل للديمقراطية، ومنهم من اعتبرها جزءًا ضروريا منها. وقد رأينا تشبع الديمقراطيين بأفكار الحرية والمساواة وحق كل انسان في السعادة على قدم المساواة مع غيره. ولكن سرعان ما أدركوا أن السعادة لا تتحقق بمجرد كونها حقا أساسا. واذا صرفنا النظر عن أشياء أخرى فان قدرا معينا من الحياة الحسنة أمر ضروري، فالشخص الذي يتضور جوعا لا يحتمل أن يكون سعيدا.

وقد قادهم هذا الى أن يفكروا في أن السعادة تعتمد على حسن

توزيع الثروة بين الناس، وهذا النحو من التفكير يدخل في الاشتراكية التي سأتحدث عنها في رسالتي القادمة.

وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر انضمت الديمقراطية الى القومية واتحدتا معا في كل قطر يخضع لحكم قطر آخر أو حيث الشعوب تقاتل من أجل الحرية. فمازيني الايطالي كان مثالا لهذا النوع من القومية الديمقراطية.

وفي أواخر هذا القرن فقدت القومية طابعها الديمقراطي تدريجا وأصبحت أشد اعتداء وسلطانا وزعامة. فالدولة أصبحت الاله الذي يجب أن يعبده كل فرد فيها.

وكان رجال الأعمال الانجليز هم زعماء الصناعة الجديدة، وهؤلاء لم يهتموا أو يبالوا كثيرا بالمبادئ الديمقراطية السامية، ولا بحق الناس في الحرية. ولكنهم اكتشفوا أناعطاء أكبر قسط من الحرية من شأنه أن يعود على أعمال التجارة والصناعة بالنفع والخير والازدهار. كما اكتشفوا أن الديمقراطية رفعت من مستوى العمال وأوهمتهم أن لهم بعض الحرية، وجعلتهم أكثر كفاية في أعمالهم. وكان نشر التعليم الشعبي لازما أيضًا للكفاية الصناعية.

وعندما أدرك رجال الأعمال والصناعة ما في ذلك من نفع وغنم لهم وافقوا في تقى وورع على أن يمنحوا الشعب هذه المنن الهبات. وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر انتشر بسرعة نوع من التعليم بين الجماهير في انجلترة وغرب أوربا.

١٣٢- ظهور الاشتراكية

١٣ فبراير ١٩٣٣

كتبت اليك عن تقدم الديمقراطية، ولكن تذكري أنه كان تقدما وليد حرب شاقة. فمن لهم مصالح من الناس في نظام قائم لا يريدون التغيير، ويقاومونه بكل ما أوتوا من قوة.

ومع هذا فالتقدم أو الترقي يعني التغيير، فأي نظام أو أسلوب للحكم محتوم عليه أن يفسح المكان لما هو خير منه. وهؤلاء الذين يرغبون في تقدم من هذا القبيل يتحتم عليهم بالضرورة أن يهاجموا النظم والعادات القديمة، ومن ثم يقودهم طريقهم الى الانكار الدائم للأوضاع القائمة والى الاصطدام بمن ينتفعون منها.

فالطبقات الحاكمة في أوربا الغربية قاومت كل تقدم خطوة خطوة. ففي انجارتة لم يستسلموا ويذعنوا الا عندما وجدوا أن الرفض قد يؤدي الى ثورة عنيفة. وسبب آخر لتقدمهم، كما ذكرت من قبل، هو الشعور بين رجال المال والأعمال بأن بعض الديمقراطية فيه غنم لهم، وأنه يعود على التجارة والصناعة بالرواج والازدهار.

وأود هنا أن أعود فأذكرك بأن هذه الأفكار الديمقراطية كانت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مقصورة الى حد كبير على

المثقفين. وقد تأثر العمال تأثرا قويا بنمو الصناعة، واضطروا تبعا لذلك أن يهجروا الأربعاء الى المصانع. ثم أخذت طبقة من العمال الصناعيين تظهر وتتكدس في مدن للمصانع قبيحة غير صحية، وعلى مقربة من مناجم الفحم عادة.

وكان هؤلاء العمال يتطورون تطورا سريعا، ويكشفون عن عقلية جديدة، كما كانوا يختلفون كل الاختلاف عن العمال الزراعيين وأرباب الحرف ممن ازدحموا على المصانع مدفوعين بدافع الجوع. ولما كانت انجلترة أسبق من غيرها في اقامة هذه المصانع، فانها كانت أيضا أول قطر ظهرت فيه طبقة العمال الصناعيين هذه.

وكانت الأحوال في المصانع مرعبة مفزعة، وأسوأ من ذلك كانت بيوت العمال وأكواخهم، وبين العمال كان يتفشى البؤس المؤلم الشديد. وكان الأحداث الصغار والنساء يشتغلون ساعات طوالا لدرجة لا يكاد العقل يصدقها.

ومع هذا فكل المحاولات التي بذلت لتحسين أحوال المصانع ومساكن العمال عن طريق التشريع قد باءت بالفشل لمعارضة أرباب المصانع لها معارضة قوية، فهؤلاء كانوا يردون على كل محاولة للاصلاح بأنها تدخل فاضح في حقوق الملكية واعتداء صارخ عليها. وحتى محاولة ادخال المرافق الصحية على المنازل اجباريا قد عورضت أيضا على أساس تدخل في حقوق الملكية.

وكان العمال الانجليز الفقراء يموتون من الجوع البطئ والارهاق في العمل، فبعد الحروب النابليونية كانت انجلترة مجهدة منهكة، تعاني انهيارا اقتصاديا، ويقاسي العمال فيها أكثر من أي طبقة أخرى. والنتيجة الطبيعية لذلك أن العمال أرادوا أن يكونوا جمعيات ليحموا أنفسهم ويقاتلوا من أجل الوصول الى أحوال خير من الأحوال التي كانوا عليها. نعم، كان لديهم من قبل نقابات من أرباب الحرف والعمال المهرة، ولكن هذه كانت شيئا مختلفا تمام الاختلاف، ولا بد أن ذكرى هذه النقابات كانت اغراء لعمال المصانع بأن يكونوا جمعيات خاصة بهم، ولكنهم منعوا من عمل ذلك.

فالطبقات الانجليزية الحاكمة قد أقلقتها الثورة الفرنسية وأفزعتها الى حد بعيد، ولهذا أصدرت قوانين تقضي بمنع العمال الفقراء من اجتماع بعضهم ببعض لبحث مشاكلهم وأسباب متاعبهم. وقد أدت دائما دعوى المحافظة على "القانون والنظام" في انجلترة، وكمل تؤدى الآن في الهند خدمة نافعة جدا في تحقيق مآرب الطبقة الحاكمة القليلة العدد، ومن جيوبها.

ولكن اصدار قوانين تحرم اجتماع العمال لم تحسن من أحوالهم. بل على العكس استثارت غضبهم وجعلتهم بسبب فقدان الأمل على أهبة الخروج عن طورهم. ومن أجل ذلك كونوا جمعيات سرية، وأخذ بعضهم على بعض المواثيق والعهود التي تحتم التزام السرية والاجتماع في غلس

الظلام وفي أماكن نائية بعيدة عن الأنظار. وكانوا، إذا خانهم أحد أو انكشف أمرهم، يقدمون الى القضاء فيوقع عليهم أفظع العقوبات. وفي حالات غضبهم حدث أحيانا أن خربوا الآلات التي كانوا يعملون عليها، وأشعلوا النيران في المصانع، حتى لقد قتلوا بعض أسيادهم.

وأخيرا، وعلى التحديد في عام ١٨٢٥، رفعت القيود جزئيا عن جمعيات العمال، فبدأت اتحاداتهم تتشكل وتظهر بواسطة العمال ذوي المهارة الفنية والأجور المرتفعة. أما الغالبية العظمى من العمال غير المهرة فقد ظلوا غير منظمين لمدة طويلة. وهكذا أخذت حركة العمال شكل اتحادات تكونت لتحسين أحوال العمال عن طريق المساواة الجماعية.

وكان سلاح العمال الوحيد الفعال هو حق الاضراب عن العمل الذي كان يترتب عليه تعطيل المصانع وشل حركتها. ولا شك أن هذا كان سلاحا قويا، ولكن كان في يد أرباب المصانع سلاح أمضى وأقوى وهو القدرة على اماتتهم جوعا حتى يذعنوا ويستسلموا. وهكذا استمر كفاح الطبقة العاملة مع تضحيات كثيرة من جانب العمال ومكاسب ضئيلة بالنسبة لهم. ولما كانوا لم ينالوا بعد حق الانتخاب فانه لم يكن لهم تأثير مباشر على البرلمان. ولائحة قانون الانتخاب المعدلة التي صدرت عام ١٨٣٢، والتي لقيت معارضة قوية، لم تعط حق الانتخاب الا لاغنياء الطبقة الوسطى فقط، أما الطبقة العاملة وفقراء الطبقة الوسطى فلم يكن لهم بمقتضى هذه اللائحة حق في الانتخاب.

وفي هذه الاثناء ظهر من بين أرباب المصانع في مدينة مانشستر رجل انساني تألم لأحوال العمال البائسة المحزنة. ذلك الرجل المحب للخير العام هو "روبرت أوين" **Robert Owen** وكان أول ما قام به هو أنه أدخل اصلاحات كثيرة على مصانعه وحسن من أحوال عماله هو. ولم يقف عند هذا الحد وانما أثار حركة وضجة قوية بين صفوف طبقته من أرباب المصانع محاولا أن يقنعهم عن طريق الحجة بضرورة معاملة العمال معاملة حسنة. ويرجع الفضل اليه نسبيا في موافقة البرلمان الانجليزي على أول قانون لحماية العمال من طمع أرباب المصانع وأنانيتهم. وقد صدر هذا القانون الذي سمي بقانون المصانع عام ١٨١٩. وكان من نصوص هذا القانون نص يحرم اشتغال الأطفال البالغين من العمر تسع سنوات فأكثر من اثنتي عشرة ساعة يوميا. فهذا النص في ذاته يعطيك فكرة عن الأحوال الشنيعة التي كان العمال مضطرين الى الخضوع والاذعان لها.

ويقال ان روبرت أوين هو أول من استعمل كلمة "الاشتراكية" حوالي عام ١٨٣٠. وطبيعي ان فكرة التقريب بين مستوى الأغنياء والفقراء، وتوزيع الملكية توزيعا متساويا تقريبا لم تكن فكرة جديدة، فكثيرون من الناس قد أيدوا هذه الفكرة وحبذوها في الماضي. وقد ظهر حتى في مجتمعات العصور الأولى نوع من الشيوعية حيث كانت الأرض وغيرها ملكا شائعا بين كل أفراد القرية أو الجماعة. وهذا يسمى بالشيوعية البدلئية، وقد وجدت فيأقطار كثيرة منها الهند.

ولكن الاشتراكية الجديدة كانت شيئًا أكثر جدا من الرغبة الغامضة في التسوية بين الناس. لقد كانت أكثر تحديدا، كما قصد بها أن تطبق على نظام الانتاج في النصانع، ومن ثم كانت وليدة النظام الصناعي.

وكانت فكرة أوين تتلخص في تكوين جمعيات تعاونية للعمال وفي أن يكون لهم حصة أو نصيب في المصانع. وقد أسس مصانع ومستعمرات نموذجية في انجلترة وأمريكا كان لها حظ من النجاح. ولكنه فشل في استمالة الحكومة أو اخوانه من أرباب المصانع إلى وجهة نظره. على أية حال لقد كان تأثيره كبيرا في حياته، كما يرجع اليه الفضل في شيوع كلمة الاشتراكية التي استهوت أفئدة الملايين من الناس.

وفي كل هذا الوقت كانت الصناعة الرأسمالية تنمو وتزداد، وكلما سجلت نجاحا اثر نجاح تزايدت مشكلة الطبقة العاملة. وقد أدت الرأسمالية الى انتاج أكثر فأكثر. وبسبب هذا ازداد تعداد السكان بسرعة هائلة حيث أصبح في مقدور أكثر الناس أن يعملوا ويتغذوا. وقد أنشئت مؤسسات تجارية وصناعية ضخمة عن طريق التعاون المعقد بين البقات المختلفة. وفي نفس الوقت قضى على منافسة المؤسسات التجارية والصناعية الصغيرة.

وقد أخذ الغنى والثراء يتدفق على انجلترة، ولكن كثيرا من هذا الغنى والثراء استخدام في انشاء مصانع جديدة أو طرق حديدية أو غير ذلك من مشروعات الاستشمار. وحاول العمال أن يحصلوا على امتيازاتوشروط أفضل عن طريق الاضرابات، ولكن هذه فشلت في العادة

فشلا ذريعا. عندئذ لم يجد العمال أمامهم الا أن ينضموا الى حركة الاصلاح التي ظهرت عام ١٨٣٧، ولكن حركة الاصلاح هذه انهارت في عام ١٨٤٨ المعروف بعام الثورة.

وقد أذهل نجاح الرأسمالية الناس وبهر أبصارهم، ولكن كان لا يزال هناك بعض التقدميين والانسانيين الذين لم يشعروا بالسعادة ازاء منافسة الرأسمالية القاتلة، وازاء الآلام التي سببتها للعمال على الرغم من ازدياد غنى الدولة وثرائها.

فهؤلاء التقدميون والانسانيون الذين ظهروا في انجلترة وألمانيا وفرنسا نظروا في أمور شتى يصح أن يكون كل واحد منها بديلا للرأسمالية، واقترحوا بعض حلول للمشكلة. وقد انضموا جميعا تحت على الاشتراكية أو التعاونية أو الديمقراطية الاجتماعية، وهذه الكلمات الثلاث تكاد كل واحدة منها تكون مرادفة للأخرى.

وكان هناك اتفاق عام بين هؤلاء المصلحين على أن التعب أو الخلل يكمن في الملكية الخاصة وتحكم الصناعة. فاذا كانت الدولة هي التي تملك وتتحكم بدل الرأسماليين، أو على الأقل اذا كانت تملك وسيلة الانتاج الأساسية كالأرض والمصانع الرئيسية فان خطر استغلال العمال لا يمكن عندئذ أن يكون.

من أجل ذلك بحث الناس بحثا مبهما تقريبا عن بديل للنظام الرأسمالي، ولكن النظام الرأسمالي لم تكن لديه النية على الانهيار بل كان ينتقل من قوة الى قوة.

وأول من دعا الى هذه الأفكار الاشتراكية ونادى بها هم المثقفون ورجال الفكر، وان كان قد انضم اليهم في هذا واحد من أرباب المصانع هو روبرت أوين. أما حركة اتحادات العمال فقد نمت وانتشرت لمدة ما لى سياسة مختلفة هي المطالبة بأجور مرتفعة وبأحوال من المعيشة والمعاملة خير من الأحوال التي كان عليها العمال، ولكن هذه الاتحادات تأثرت طبيعيا بهذه الأفكار ثم أثرت هي بدورها تأثيرا كبيرا في حركة الاشتراكية.

وكان أكثر الدول الأوربية تقدما في الصناعة هي انجلترة والمانيا وفرنسا. ففي كل دولة من هذه الدول الثلاث نمت الاشتراكية نموا مختلفا على حسب قوة الطبقة العاملة وشخصيتها في كل دولة. وعلى الاجمال كانت الاشتراكية الانجليزية اشتراكية محافظة تؤمن بطرق التطور والتقدم البطئ. أما اشتراكية أوربا فكانت أكثر نقدمية وثورية. وقلة الأيدي العاملة، ومن ثم لم تظهر فيها حركة عمالية قوية لعهد طويل.

وظلت السيادة للصناعة الانجليزية في العالم لمدة ثلاثين سنة تقريبا ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، وتبعا لذلك توفق الثراء على انجلترة من أرباح الصناعة ومن استغلال الهند وغيرها من المستعمرات. وقد تسرب جزء من هذا الثراء حتى الى العمال، وارتفع مستوى معيشتهم إلى درجة لم يعرفوها من قبل. ولما كان الرخاء والثورة لا يلتقيان فان روح العمال الانجليز الثورية قد اختفت. وحتى الاشتراكية الانجليزية أصبحت أكثر أنواع الاشتراكية اعتدالا، وسميت بالفابية نسبة إلى "فابيوس" القائد

الروماني القديم الذي رفض أن يلتحم مع هانيبال عدوه في معركة مباشرة، وانما أتعبه وأنهكه حتى قضى عليه شيئا فشيئًا[١٢]

وفي عام ١٨٦٧ أدخلت تعديلات على حق التصويت في الانتخابات. وبمقتضى هذه التعديلات صار لبعض عمال المدن حق الانتخاب. وقد كان مسلك اتحادات العمال مسلكا حميدا، لما كانت عليه من رخاء ويسر، حتى لقد انتخب العمال حزب الأحرار البريطاني.

وبينما كانت انجلترة راضية عن نفسها ومدلة بيسرها وثرائها كان مذهب جديد ينتشر في أوربا ويجد تأييدا حارا وانعطافا. ذلك هو المذهب "الفوضوي". وهذه كلمة تخيف وتفزع كثيرين ممن لا يعرفون شيئا عنها. فالفوضوية تعني مجتمعا بدون حكومة مركزية ما أمكن ومع قدر كبير من الحرية الفردية.

فالمثل الأعلى للفوضوى كان مرتفعا ارتفاعا عجيبا مخالفا للمألوف. فقد كان "يؤمن بفكرة حكم جمهوري قائم على الايثار والاحسان والتضامن واحترام حقوق الآخرين عن طواعية واختيار".

وفي نظره أنه ينبغي أن يكون هناك اكراه أو اجبار من جانب الدولة. وقد قال ثورو الامريكي: "ان أحسن حكومة لدى الفوضويين هي التي لا تحكم مطلقا. والحكومة التي يريدونها ويقبلونها هي التي يكون الناس مهيئين لها".

---

[١٢] أنظر ص ٢٣

فهذا التصور للحكم يبدو مثلا رفيعا جدا. فالحرية الكاملة لكل فرد، واحترام الناس بعضهم بعضا، وعدم الأنانية، والتعاون المنبعث عن الارادة، كل هذه أشياء جميلة. ولكن دنيا اليوم بكل أنانيتها وعنفها بعيدة كل البعد عن تلك التصورات.

ولا بد أن أمل الفروضويين في عدم وجود حكومة مركزية أو في وجود الحد الأدنى من حكومة قد نشأ كرد فعل للحكم الفردي الاستبدادي الذي عانى الناس منه طويلا. فالحكومات في نظرهم قد حطمت الناس واستبدت بهم، ولهذا فلا ينبغي وجود الحكومات.

وقد شعر الفوضويون أيضا أن الدولة في ظل بعض صور من الاشتراكية، وبحكم أنها صاحبة كل وسائل الانتاج قد تصبح هي نفسها طاغية مستبدة. من أجل ذلك كان الفوضويون اشتراكيون في صورة ما يعلقون أهمية عظمى على الحرية الفردية والمحلية. ومن ناحية أخرى كان كثيرون من الفوضويين مستعدين للموافقة على أن المذهب الفوضوي مثل أعلى، ولكنهم كانوا يرون أن الضرورة تقتضي أن تكون للدولة لمدة ما حكومة مركزية قوية أساسها الاشتراكية. ولهذا فمع ما كان من فرق كبير جدا بين الاشتاركية والفوضوية فانه كانت هناك ظلال كثيرة من كليهما يتلاقى ويتدلخل بعضها في بعض شيئا فشيئا.

وقد أدت الصناعة الحديثة الى ظهور طبقة منظمة من العمال والمذهب الفوضوي ما كان يمكن بطبيعته أن يكون حركة منظمة تنظيما

حسنا. ولهذا كانت الفرصة ضئيلة جدا أمام انتشار الأفكار الفوضوية في الدول الصناعية حيث كانت اتحادات العمال وما أشبهها آخذة في النمو والظهور. ونتيجة لذلك لم يكن في انجلترة والمانيا عدد كبير من الفوضويين. أما في جنوب أوربا وشرقها المتخلفين في حركة التصنيع فان التربة كانت أكثر خصوبة لنمو الأفكار الفوضوية. وكلما انتشرت الصناعة الحديثة في جنوب أوربا وشرقها أصبح المذهب الفوضوي أضعف فأضعف. ويكاد يكون اليوم مذهبا ميتا، ولكنه حتى الآن ممثل الى درجة ما في بعض الأقطار غير الصناعية كأسبانيا.

والمذهب الفوضوي كمثل أعلى قد يكون فكرة رفيعة جدا، ولكنه قدم ملجأ لا إلى الساخطين والناقمين فحسب، وانما للأنانيين أيضا ممن حاولوا منفعة أنفسهم تحت ستار المثل الأعلى. وقد قادهم هذا المذهب الى نوع من العنف الذي أصبح مرتبطا ومقترنا في ذهن كل انسان بكلمة "الفوضوية" والذي أدى الى فقدان الايمان بما في هذه الكلمة من حقيقة. ولما رأى بعض الفوضويين عجزهم عن القيام بأي عمل كبير لتغيير المجتمع كما أرادوا، فقد قرروا الدعاية لمذهبهم بأسلوب طريف. ولم يكن ذلك غير "الدعاية بالفعل لا بالقول". وبالتأثير بالمثال الشجاع، وبالأعمال الجريئة، وبمقاومة الطغيان والاستبداد، والتضحية بالنفس.

وقد قامت ثورات مشبعة بهذه الروح في أماكن مختلفة، وهؤلاء الذين اشتركوت فيها لم يتوقعوا أي نجاح في ذاك الوقت. وعن طواعية

واختيار عرضوا حياتهم للخطر بالاقدام على هذا النوع الطريف من الدعاية لقضيتهم. وبطبيعة الحال أخضعت هذه الثورات وقمعت، وعندئذ بدأ بعض الفوضويين يلجأوا الى الارهاب والقاء القنابل وقتل الملوك والموظفين الكبار. وهذا العنف الأحمق دل بوضوح على يأسهم وضعفهم المتزايد، وقبيل نهاية القرن التاسع عشر أخذت الفوضوية كحركة في الزوال شيئا فشيئا. وكثيرون من زعماء الفوصويين لم يستحسنوا القاء القنابل والدعاية بالفعل لا بالقول، ولهذا أنكروها وتبرءوا منها.

ويجدر بي الآن أن أعطيك أسماء بعض أعلام الفوضويين. ومن المفيد أن تلاحظي أن معظم هؤلاء الزعماء الفوضويين كانوا نبلاء مثاليين محبوبين في حياتهم الخاصة.

وأقدم الزعمال الفوضويين بيير برودون الفرنسي الذي عاش من ١٨٠٩ الى ١٨٦٥. وأصغر قليلا منه النيل الروسي ميخائيل باكونين، زعيم عمال أوربا المحبوب ولا سيما في الجنوب. وقد دخل في صراع مع ماركس الذي طرده هو وأتباعه من الاتحاد الدولي الذي أسسه. والاسم الثالث الذي ينقلنا الى عصرنا الحاضر هو روسي آخر ونبيل يدعى بطرس كروباتكن **Peter Kropatkin**، وقد ألف بعض كتب مهمة عن المذهب الفوضوي وعن موضوعات أخرى. والاسم الرابع والأخير الذي سأذكره هنا هو مالاتيستا الايطالي **Enerco Malatesta** الذي بلغ من العمر أكثر من ثمانين سنة. وهو آخر أثر من كبار الفوضويين الذين ظهروا في القرن التاسع عشر.

وهناك قصة طريفة عن مالاتيستا يجب أن أقصها عليك. لقد حوكم أمام محكمة في ايطاليا. وقد ادعى مدعي الحكومة العام أن تأثير مالاتيستا على عمال المنطقة كان تأثيرا كبيرا، وأن هذا التأثير قد غير من أخلاقهم تغييرا كليا، ووضع نهاية للجريمة والجرائم حتى لقد أصبحت نادرة. فاذا امتنعت الجرائم فماذا تكون وظيفة المحاكم؟ ولهذا ينبغي أن يسجن مالاتيستا! ونتيجة لذلك سجن مالا تيستا ستة أشهر!

ومن سوء الحظ أن المذهب الفوضوي اقترن أكثر مما ينغي في الأذهان بالعنف، وقد نسي الناس أنه فلسفة ومثل أعلى استهوى كثيرين من الرجال الممتازين. وكمثل أعلى لا يزال بعيدا جدا عن دنيانا الحاضرة غير الكاملة. وهيهات أن تجدي أدويته البسيطة في علاج مدنيتنا المعقدة غاية التعقيد.

١٣٧- الحرب الأهلية في أمريكا

٢٧ فبراير سنة ١٩٣٣

ان العالم القديم بحروبه ومؤمراته، وملوكه وثوراته، وأحقاده وقومياته قد استبد بجزء كبير من وقتنا. ولهذا دعينا نعبر الآن المحيط الأطلسي ونزور عالم أمريكا الجديد، لنرى ماذا كان حظه ومصيره بعد أن طوح بقبضة أوربا بعيدا عنه.

والولايات المتحدة على وجه الخصوص تستحق اهتمامنا وانتابهنا. فهذه الولايات التي بدأت صغيرة قد نمت وكبرت حتى ليبدو اليوم أنها تسود العالم وتتحكم في مصيره.

ولم يعد لانجلترة في العصر الحاضر مكانة مرموقة، فهي ليست دائنة العالم الآن وانما هي دولة بائسة مدينة مثل كل الدول الأوربية الأخرى، تلتمس من الولايات المتحدة معاملة كريمة رحيمة.

فدور الدائن أو مقرض المال قد وقع على عاتق أمريكا، حيث الثراء يتدفق عليها، وحيث تنبت أرباب الملايين في كثرة مذهلة. ولكن لمسها للذهب، كما هو الحال في قصة ميداس القديمة، لم يدخل عليها كثيرا من الفرح والسعادة، وان عامة الناس فيها ليقاسون اليوم من الحاجة والفقر على الرغم من أرباب ملايينها.

فالثلاث عشرة ولاية التي على الشاطئ والتي انفصلت عن انجلترة عام ١٧٧٥ كان تعدادها يقل كثيرا عن أربعة ملايين نسمة. واليوم يبلغ تعداد مدينة نيويورك وحدها نحو ضعفي هذا العدد، كما يبلغ تعداد كل سكان الولايات المتحدة مائة وخمسين مليون نسمة.

وقد ازداد الآن عدد الولايات المنضمة الى الاتحاد، واتسعت رقعتها حتى وصلت الى المحيط الهادي. وقد شهد القرن التاسع عشر نمو هذا القطر الشايع الأطراف، لا في المساحة وتعداد السكان فحسب، ولكن في الصناعة الحديثة والتجارة، والثراء والنفوذ أيضًا.

وواجهت الولايات المتحدة صعابا ومشاكل كثيرة، واشتبكت مع أوربا في بعض الحروب. ولكن أشد ما عانته من محن وشدائد قد نشأ من الحرب الأهلية المريرة المخربة التي نشبت بين ولايات الشمال وولايات الجنوب.

وحدث بعد أن استقلت أمريكا وتحررت بسنوات قليلة أن قامت الثورة الفرنسية وتلتها حروب نابليون. وحاول كل من انجلترة ونابليون أن يقضي كلاهما على تجارة الآخر، وفي سبيل تحقيق هذا الغرض دخلا في صراع مع الولايات المتحدة.

فنتيجة للتنافس بين فرنسا وانجلترا أصيبت تجارة أمريكا الخارجية بالشلل، وهذا بدوره أدى إلى حرب أخرى مع انجلترة عام ١٨١٢. ولم تسفر هذه الحرب التي دامت سنتين عن أي شئ يستحق الذكر. ففي خلال

هذه الحرب، وعلى التحديد عندما نفى نابليون الى جزيرة البا، أصبحت انجلترة حرة طليقة اليد، ولهذا نجحت في الاستيلاء على مدينة واشنجتون العاصمة، وأحرقتها، وخربت كل المرافق العامة بما فيها "الكبيتول" مبنى مجلس الشيوخ الأمريكي، والبيت الأبيض، مسكن رؤساء الجمهورية. ولكن الانجليز على الرغم من كل ذلك هزموا فيما بعد.

وقد أضاعت الولايات الى رقعتها، حتى قبل هذه الحرب، مساحات كبيرة في الجنوب. وتمثل هذا في لويزيانا المستعمرة الفرنسية القديمة التي باعها نابليون للولايات عندما أصبح غير قادر على أن يحميها ويدفع عنها شر هجمات الاسطول البريطاني. وبعد ذلك بسنوات قليلة باعت أسبانيا للولايات في عام ١٨٢٢ ولاية فلوريدا، وفي عام ١٨٤٨ وعلى اثر حرب ناجحة مع الكسيك انضمت الى الولايات المتحدة بعض ولايات أخرى في الجنوب الغربي بما فيها ولاية كاليفورنيا.. وكثير من أسماء المدن في هذا الجزء الجنوبي الغربي لا يزال اسبانيا، ويذكر بالأيام التي كان الحكم فيها للاسبان أو للمكسيكيين الذين يتكلمون اللغة الاسبانية.

وبينما كانت أوربا تعاني من المحاولات المتكررة للثورة وقمع الثورة استمرت الولايات في التوسع غربا. وقد ساعد قمع الثورات في أوربا على الهجرة، كما جذبت قصص الاراضي الشايعة والاجور المرتفعة الكثيرين من الأقطار الأوربية. وبانتشار السكان غربا نشأت ولايات جديدة انضمت الى الاتحاد.

وكان بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية اختلاف كبير من البدء. فالولايات الشمالية كانت صناعية تنتشر فيها بسرعة المصانع التي تعتمد على الآلات الكبيرة الحديثة، أما في الولايات الجنوبية فكانت تنتشر المزارع الكبيرة التي كان يعمل فيها عمال من العبيد.

فالعبودية في الجنوب كانت مشروعة قانونا. ولكنها لم تكن محبوبة أو ذات أهمية في الشمال. وكان العبيد طبعا من زنوج افريقية، أما الجنس الابيض فلم يكن منه عبيد. نعم لقد تضمن اعلان الاستقلال المبدأ القائل "كل الناس قد ولدوا متساوين". ولكن هذا ينطبق على البيض فقط، لأعلى السود.

وقصة جلب الزنوج من افريقية قصة بالغة الاسى والحزن. فتجارة العبيد بدأت في أوائل القرن السابع عشر وظلت مستمرة بانتظام حتى عام ١٨٦٣.

ففي أول الأمر كانت سفن البضائع التي تمر بساحل افريقية الغربي، والذي لا يزال جزء منه يسمى "ساحل العبيد"، تختطف الافريقيين وتلتقطهم كلما أمكن ذلك وتنقلهم الى أمريكا. وقلما كان بين الافريقيين أنفسهم عبودية، ولم يعاملوا أحدًا معاملة العبيد غير أسرى الحرب والمدنيين ممن لم يوفوا ديونهم. وقد وجد أن عملية نقل الافريقيين هذه الى أمريكا وبيعهم هناك كانت تجارة رابحة جدا، ولهذا نمت واتسعت تجارة الرقيق. وكانت انجلترة واسبانيا والبرتغال في مقدمة

الدول التي مولتها على أنها مصدر من مصادر الغنى والثراء.

وقد بنى تجار الرقيق لهذا الغرض سفنا خاصة ذات غرف عديدة، وكان الزنوج البؤساء يزج بهم في هذه الغرف مصفدين في السلاسل، وقد قيد كل اثنين منهم بقيد واحد. وكانت الرحلة عبر المحيط الأطلسي تستغرق أسابيع كثيرة وأحيانا أشهرا، وفي أثناء هذه الأسابيع والاشهر كان الزنوج ينامون في هذه الغرف الضيقة مقيدين معا، وكان المكان المسموح به لكل واحد منهم لا يزيد على خمسة أقدام ونصف قدم طولا، وقدم وثلث قدم عرضا !

وعلى أساس تجارة الرقيق أصبحت ليفربول مدينة كبيرة. وفي معاهدة السلام التي وقعت في مدينة "أوتريخت" الهولندية عام ١٧١٣ انتزعت انجلترة من أسبانيا امتياز نقل الرقيق بين افريقيا وأمريكا الاسبانية. وحتى قبل هذا كانت انجلترة تزود الممتلكات الانجليزية في أمريكا بالرقيق. وهكذا بذلت محاولة في القرن الثامن عشر لجعل تجارة الرقيق بين افريقية وأمريكا احتكارا انجليزيا.

وفي عام ١٧٣٠ كان لمدينة ليفربول خمس عشرة سفينة تشتغل في هذه التجارة، ثم أخذ عدد هذه السفن في التزايد حتى بلغ في عام ١٧٩٢ مائة واثنتين وثلاثين سفينة. وقد أدت الثورة الصناعية في مطلعها الى تقدم كبير في غزل القطن بلانكشير في انجلترة، وهذا بدوره أدى بالولايات المتحدة الى طلب عدد أكثر من الرقيق. ذلك لأن القطن

المستعمل في مغازل لانكشير كان يرد اليها من مزارع القطن الشاسعة في الولايات الجنوبية. ولما كانت مزارع القطن في هذه الولايات تمتد وتتسع بسرعة، فقد استدعى الأمر استيراد أفواج أكثر وأكثر من رقيق افريقية. ولما اشتد الاقبال على هذه السلعة الآدمية بذل تجار الرقيق أقصى الجهود في تربية الزنوج والاكثار من نسلهم! وفي عام ١٧٩٠ كان عدد العبيد في الولايات المتحدة ٦٩٧,٠٠٠ عبد، ثم أخذ هذا العدد في التزايد حتى بلغ عام ١٨٦١ أربعة ملايين.

وفي أوائل القرن التاسع عشر وافق البرلمان الانجليزي على قوانين مشددة ضد الرق والعبودية، وتبع انجلترة في ذلك أمريكا وبعض الأقطار الأوربية. ومع أن تجارة الرقيق قد حرمتها هذه الدول فان عملية نقل الزنوج من افريقية الى امريطا ظلت قائمة مستمرة، مع فارق واحد هو أن رحلتهم صارت أشد وأقسى مما كانت عليه قبل التحريم. فهؤلاء الزنوج البؤساء لم يعودوا ينقلون علنا، وانما أصبحوا ينقلون خفية على ألواح خشبية منفصلة بعضها فوق بعض. كما ينبئنا كاتب أمريكي كانوا أحيانا يكدسون الواحد في حجر الآخر وسيقانهم مدلاة كما يفعل الراكبون على مراكب الانزلاق على الجليد.

ومن الصعب أن يتخيل المرء مدى الهول والشناعة في كل هذا. فالأحوال على سفن نقل الرقيق كانت على غاية من القذارة، حتى أنهبعضها كان من شدة الوسخ والقذارة يهجر ويتخلى عنه بعد أربع أو خمس

رحلات. ولكن الأرباح كانت هائلة ضخمة، وعندما بلغت هذه التجارة ذروتها في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كان ينقل سنويا نحو مائة الف عبد من ساحل العبيد الافريقي. وهنا أود أن تتذكري أن نقل هذا العدد الهائل من البشر كان يعني قتل عدد أكبر منه في الغارات التي كان يشنها تجار الرقيق على الزنوج لأسرهم والاستيلاء عليهم.

وقبيل القرن التاسع عشر، أو في أوائله، حرمت الدول الكبرى وكذلك الولايات المتحدة، تجارة الرقيق، وعدتها عملا غير مشروع. ولكن مع تحريم هذه التجارة فان العبودية نفسها ظلت مشروعة، بمعنى أن العبيد القدامى استمروا عبيدًا، كما استمرت تجارة الرقيق على الرغم من تحريمها. وعندما أنهت بريطانيا الرق والعبودية أصبحت نيويورك الميناء الرئيسي لتجارة الرقيق.

ومع أن نيويورك كانت الميناء لهذه التجارة حتى منتصف القرن التاسع فان الولايات الشمالية كانت ضد الرق والعبودية. أما الولايات الجنوبية فكانت بحاجة الى هؤلاء العبيد للعمل بالمزارع. وقد ألغى بعض الولايات الرق، وأبقى عليه البعض الآخر. وكثيرا ما فر الزنوج من الولايات التي يمارس فيها الرق الى الولايات التي لا يمارس فيها. وكان هذا الفرار والتسلل مدعاة الى النزاع والخلاف بين الولايات.

وكانت مصالح الشمال والجنوب الاقتصادية مختلفة تمام الاختلاف. وقد حدث نحو عام ١٨٣٠ أن نشأ احتكاك بين الجانبين بشأن ضرائب

الصادرات والواردات والضرائب الجمركية. ثم بدأت نغمة التهديد بالانفصال من الاتحاد تظهر وتعلو، لأن الولايات كانت متحمسة لحقوقها وغيروا عليها، ولم ترتح لكثرة تدخل الحكومة الاتحادية في شئونها.

ونتيجة لكل ذلك ظهر في أمريكا حزبان: أحدهما ينادي بسيادة الولاية، والآخر يدعو الى حكومة مركزية قوية. وقد أحدث اختلاف وجهات النظر هذا اتقساما بين الشمال والجنوب وباعد بين أحدهما والآخر. وكلما انضمت ولاية جديدة الى الاتحاد كان يتجدد موضوع :الى أي الجانبين تنضم الولاية الجديدة وتؤيد وجهة نظره.

ولكن الى أي الجانبين كانت الأغلبية تنتمي؟ لقد كان سكان الشمال في تزايد سريع مستمر بسبب الهجرة من أوربا، وكان طبيعيا أن تخيف هذه الظاهرة أهل الجنوب، لأن استمرارها كان يعني بالنسبة لهم قرب اليوم الذي يرجحهم فيه أهل الشمال عددا، وبالتالي ينالون فيه أصواتا أكثر عند الاقتراع على كل مشكلة تكون مدار بحث. من أجل ذلك ازدادت العلاقات توترا بين الشمال والجنوب.

وفي أثناء ذلك اشتدت الحملات في الشمال مطالبة بابطال الرق ابطالا تما. وكان المنادون بذلك يسمون "الابطاليين" أي المعتنقين فكرة ابطال الاسترقاق، وكان زعيم هؤلاء يدعى ويليام لويد جاريسون **William Lloyd Garrison**. وفي عام ١٨٣١ أصدر جاريسون جريدة أسماها "المحرر" أو "المعتق" **the Liberator** لتؤيد دعواه

وحملته ضد الرق والعبودية. وفي العدد الأول من هذه الجريدة أوضح أنه لن يقبل حلا وسطا لهذه المشكلة، ولن يكون معتدلا ازاءها. أصبحت مشهورة، ولهذا أقدمها لك هنا. قال:

"سأكون قاسيا كالحق، ومنصفا كالعدل" وعن هذا الموضوع "الرق" لا أبغي أن أفكر، أو أتكلم، أو أكتب باعتدال.

كلا! كلا !

قل للرجل الذي يحترق بيته أن يستنجد صائحا باعتدال.

وقل له أن يستنقذ زوجته من يدي مغتصبها باعتدال.

وقل للأم التي سقط ابنها في النار أن تخلصه منها شيئا فشيئا.

ولكن لا تتطلب مني اعتدالا في قضية كقضية الساعة.

اني جاد كل الجد.

لن أوارب أو أداجي.

ولن أسامح أو أغتفر.

ولن أتراجع قيد أنملة.

ولا بد أن يسمع صوتي ".

على أية حال كان هذا الموقف الجرئ الشجاع قاصرا على قلة قليلة، أما معظم معارضي الرق فلم يشاءوا التدخل فيه حيث يمارس

فعلا. ومع ذلك فقد ازدادت العلاقات توترا بين الشمال والجنوب بسبب اختلاف مصالحهم الاقتصادية التي تعارضت ولاسيما من جهة الضرائب المفروضة على الصادرات والواردات المتبادلة بين الولايات الشمالية والجنوبية.

وفي عام ١٨٦٠ انتخب ابراهام لنكولن رئيسا للولايات المتحدة، فكان انتخابه ايذانا للجنوب بالانفصال عن الاتحاد. لقد كان لنكولن معارضا للرق والعبودية، ولكنه على الرغم من معارضته هذا أعلن عدم التدخل فيه حيثما وجد. بيد أنه لم يكن مستعدا لأن يراه يمتد الى ولايات جديدة أو لأن يجيز مشروعيته. ولم يقتنع الجنوب بهذا التأكيد أو يطمئن اليه، ولهذا أخذت ولايته تنشق على الاتحاد وتنفصل عنه ولاية بعد ولاية.

هكذا أخذت الولايات المتحدة تتفرق وتتفتت، وكان هذا هو الموقف العصيب الذي واجه الرئيس الجديد. وقد بذل محاولة أخرى لكسب الجنوب ومنعه من الانفصال. ذلك أنه أعطاهم كل التأكيدات والضمانات بأن يسمح للرق بالبقاء والاستمرار، حتى لقد قال انه مستعد أن يجعله حيثما وجد جزءا من الدستور ليعطيه صفة الدوام. وفي الحق كان لنكولن مستعدا لأن يذهب تقريبا الى أبعد الحدود من أجل السلام. ولكن كان هناك شئ واحد لم يكن ليوافق عليه ألا وهو القضاء على الاتحاد. فقد أنكر انكارا مطلقا حق أي ولاية في الانسحاب من الاتحاد.

ومع ذلك فقد فشلت جميع المحاولات التي بذلها لنكولن لكي

يتجنب الحرب الأهلية. فالجنوب قد قرر الانفصال، وقد انفصلت فعلا احدى عشرة ولاية، وتعاطفت معها أيضا بعض الولايات الأخرى التي على الحدود. وقد سمت الولايات المنفصلة نفسها "الولايات المتحالفة"، وانتخبوا رئيسا خاصا لهم هو جيفرسون دافيز **Jefferson Davis**

وفي أبريل من عام ١٨٦١ بدأت الحرب الأهلية واستمرت أربع سنوات بطيئة مجهدة قاتل فيها الأخ أخاه والصديق صديقه، وكلما استطالت الحرب كبرت الجيوش عدة وعتادا وعددا.

وكان الشمال يفوق الجنوب ويمتاز عليه بأشياء كثيرة: فقد كان أكبر من الجنوب سكانا وأكثر غنى. ولكونه منطقة صناعية كان أكثر موارد بوامكانيات، وأرقى من حيث الطرق الحديدية.

ولكن الجنوب كان أحسن جنودا وقودا ولاسيما القائد "لي" **Lee** وكانت الانتصارات الأولى في جانب الجنوب أكثر منها في جانب الشمال. ولكن الجنوب أدركه في النهاية الكلل والاجهاد والملال.

وقد قطع أسطور الولايات الشمالية الجنوب قطعا تاما عن سوقه في أوربا، وبهذا لم يستطع أن يصدر قطنه أو تبغه. وهذا بدوره أصاب الجنوب بالعجز، كما كان له أيضا نتيجة مشئومة على لانكشير حيث توقف كثير من مصانعها ومغازلها عن العمل لعدم ورود القطن، وحيث عانى عمالها المتعطلون غاية الهم والضيق.

وكان الرأي العام في انجلترة بشأن هذه الحرب منعطفا بوجه عام مع

الجنوب، أو على الأقل كان هذا هو رأي الطبقات الأكثر غنى ويسارا فيها.

ولم يكن الرق هو السبب الرئيسي للحرب الأهلية، لأن لنكولن كما أخبرتك، قد أعطى كل التأكيدات والضمانات بأن يحترم الرق حيثما وجد. انما نشأ الاضطراب الحقيقي من اختلاف مصالح الشمال والجنوب الاقتصادية وتعارضها تقريبا. وقد اضطر لنكولن أخيرا أن يحارب محافظة على بقاء الاتحاد وسلامته. ولم يصرح لنكولن أي تصريح واضح عن الرق، حتى بعد أن بدأت الحرب، خوفا من اثارة غضب الكثيرين من أهل الشمال ممن كانوا يؤيدون ابطال الاسترقاق.

وقد دفعه استمرار الحرب الى أن يكون أكثر وضوحا وتحديدًا. وكانت أول خطوة في ذلك أن اقترح على مجلس الشيوخ ضرورة تحرير العبيد بعد تعويض أسيادهم ومواليهم. ثم تخلى عن هذه الفكرة فيما بعد. وأخيرا أصدر في سبتمبر عام ١٨٦٢ اعلان التحرير الذي صرح فيه بأن العبيد في كل الولايات الثائرة ضد الحكومة يصبحون أحرارا ابتداء من أول يناير ١٨٦٣، وفيما بعد هذا التاريخ.

وربما كان السبب الرئيسي لاصدار هذا الاعلان هو الرغبة في اضعاف الجنوب في الحرب، لأنه أدى إلى تحرير أربعة ملايين من العبيد، ولا شك أنه كان يرجى من هؤلاء أن يخلقوا المتاعب والصعاب للولايات المتحالفة.

ثم انتهت الأهلية عام ١٨٦٥ بعد أن أنهك الجنوب انهاكا تاما. والحرب في أي وقت شئ شنيع فظيع، ولكن الحرب الأهلية أكثر شناعة

وفظاعة. وقد وقع عبء هذا الصراع الهائل الذي دام أربع سنوات على عاتق الرئيس لنكولن أكثر من غيره، وكانت النتيجة في جملتها ناشئة عن اصراره الهادئ على المثابرة رغم الكوارث وخيبة الآمال.

ولم يكن هدفه مجرد كسب الحرب فحسب، وانما كان الهدف أن يكسبها بأقل حقد ممكن، فلعل الاتحاد الذي قاتل من أجله يصبح اتحاد قلوب لا اتحد اكراه والزام. ولهذا لم تكد الحرب تنتهي حتى بدأ يكون كريما مع الجنوب المهزوم. ولم تمر أيام قليلة على هذا حتى غتاله رجل متطرف.

وابراهام لنكولن بطل من أبطال أمريكا العظام. وقد تبوأ أيضا مكانة بين كبار عظماء العالم. لقد كانت نشأته الأولى نشأة متواضعة، وكان حظه من التعليم ضئيلا. وقد اكتسب معظمه عن طريق تحصيله الخاص، ومع هذا استطاع بذاته أن يكون سياسيا عظيما وخطيبا عظيما. وأن يدير دفة الأمور في بلاده ادارة رشيدة أثناء أزمة عظمى.

ولم يكن مجلس الشيوخ الأمريكي بعد وفاة لنكولن كريما مع البيض من سكان الجنوب بمقدار ما كان يتوقع منه. فهؤلاء البيض الجنوبيون عوقبوا بصورة أو بأخرى، وكثيرون منهم حرموا من حق الانتخاب الذي كان قد أعطي لهم. ومن ناحية أخرى أعطى الزنوج كل حقوق المواطنين. وهذا أصبح جزءا من الدستور الأمريكي. وقد نص أيضا على أنه لاحق لأي دولة في حرمان أي رجل من حقه الانتخابي بسبب جنسه أو لونه أو عبوديته السابقة.

لقد أصبح الزنوج الآن بمقتضى القانون أحرار ولهم حق الانتخاب. ولكن هذا لم يعد بنفع كبير عليهم، لأن حالتهم الاقتصادية ظلت كما كانت عليه من قبل. فكل الزنوج العتقاء أو الأحرار كانوا على العموم بدون ملكية، وأصبحت مشكلة أن يعرف المرء ماذا يفعل بهم. من أجل ذلك هاجر بعضهم الى المدن الشمالية.

أما معظمهم فبقوا حيث هم رهن اشارة أسيادهم ومواليهم القدامى في الجنوب. لقد اشتغلوا عمالا في المزارع القديمة بأي أجر يومي يعطيه لهم مستخدموهم البيض. كذلك نظم البيض. كذلك نظم البيض الجنوبيون أنفسهم على أن يخضعوا الزنوج لارادتهم في جميع الأحوال بالارهاب. وقد تكونت منظمة نصف سرية اسمها "كوكلوكس كلان" وكان أعضاؤها ينتشرون مقتنعين في وجوه مستعارة لارهاب الزنوج ومنعهم من الادلاء بأصواتهم في أوقات الانتخابات.

وفي أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر تقدم الزنوج بعض الشئ: فكثيرون منهم صاروا من ذوي الملكيات، وأصبحت لهم بعض المعاهد الراقية التي يتعلمون فيها، ولكنهم ما زالوان العنصر الخاضع خضوعا تاما. ويوجد منهم الآن في الولايات المتحدة نحو اثنى عشر مليونا، أي نحو عشرة في المائة من مجموع السكان العام.

وحيثما وجدوا في أعداد صغيرة، كماهو الحال في أجزاء من الشمال، فانهم يحتملون، أما اذا وجدوا في أعداد كبيرة فانهم يحقرون ويعاملون

معاملة مذلة للكبرياء، معاملة تجعلهن يشعرون بأنهم أحسن قليلا من العبيد القدماء. وفي كل مكان ترينهم منفصلين عن البيض. ترين ذلك في الفنادق، والمطاعم، والكنائس، والكليات، والمتنوهات العامة، وشواطئ الاستحمام، والترام، وحتى في الدكاكين والمتاجر! وفي قطر السكة الحديدية لهم عربات خاصة تمسى عربات "جيم كراو" "Jim Crow" والزواج بين الابيض والزنجي محرم قانونا. وحوالي عام ١٩٢٦ صدر قانون في ولاية فرجينيا يحرم جلوس الأبيض والملون في مكان واحد!

ويحدث أحيانا شغب عنصري فظيع بين البيض والزنوج. وكثيرا ما تحدث في الجنوب حالات قصاص يغير فيها السوقة والغوغاء على أي شخص يشتبهون فيه بأنه أساء الى أحدهم أو بعضهم ويقتلونه.

وفي جميع أرجاء أمريكا، ولا سيما في الولايات الجنوبية لا تزال أغلبية الزنوج تحيا حياة شاقة. وكثيرا ما يحدث في بعض ولايات الجنوب عندما يقل وجد العمال أن يزج ببعض الزنوج الأبرياء في السجن بتهمة ملفقة، ثم يؤجر العامل امتهم لبعض المقاولين والمتعهدين. وهذا في حد ذاته عمل سيئ قبيح، ولكن ما يصحبه من أحوال أشد سوءا وقبحا. وهكذا ترين أن الحرية التي خولها القانون للزنوج لا تعني كثيرا جدًا بعد كل ما ذكرناه.

وبعد، فهل قرأت أو سمعت عن كتاب "كوخ العم توم" للكاتب هارييت بيتشر ستاو Harriet Beecher Stowe؟ فهذا الكتاب

يعالج موضوع الزنوج العبيد القدماء ويقص حياتهم الفاجعة الحزينة. لقد ظهر هذا الكتاب قبل اندلاع نار الحرب الاهلية بعشر سنوات، وكان له أثر كبير في اثارة نفوس الامريكيين ضد الرق والعبودية.

١٣٨- إمبراطورية أمريكا الخفية

٢٨ فبراير سنة ١٩٣٣

ان الحرب الأهلية التي نشبت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية كان ثمنها بالنسبة لأمريكا باهظا. فقد راح ضحية لها الكثيرون من الرجال والشبان، كما خلفت لأمريكا دينا فادحا ثقيلا.

ولكن الولايات المتحدة كانت دولة شابة فتية ممتلئة بالنشاط، ولهذا فلم تعق الحرب الأهلية استمرار نموها. والولايات المتحدة تتمتع بمصادر ثروة طبيعية هائلة، وتمتاز بغناها بالمعادن. فالفحم والحديد والنفط (البترول) توجد لديها بوفرة. وهذه هي المواد الثلاث التي تكون أساس الصناعة والحضارة الحديثتين. وكان لديها وفرة من القوة المائية التي تتولد عنها القوة الكهربائية، وشلالات نياجرا مثل من أمثلة هذه القوة المائية، وبالاضافة الى ذلك فهي قطر شاسع الاطراف، قليل السكان نسبيا، يجد فيه كل شخص مكانا فسيحا له.

فالولايات المتحدة، لهذا، لديها كل امكانيات النمو والتطور التي تؤهلها لأن تكون قطرا صناعيا كبيرا، وقد أخذت تفعل ذلك بخطى واسعة. وقبيل نهاية القرن التاسع عشر بدأت الصناعة الأمريكية تنافس الصناعة البريطانية وتزاحمها في الأسواق الأجنبية. وقد وضعت أمريكا وألمانيا نهاية للتفوق السهل الذي

تمتعت به بريطانيا لمدة قرن من الزمان في التجارة الخارجية.

وقد تدفق المهاجرون على الولايات المتحدة من كل أقطار أوربا. نزح اليها الكثيرون من الألمان والسويديين والنرويجيين والدنمركيين والارلنديين والايطاليين واليهود والبولنديين وغيرهم. وكثيرون من هؤلاء خرجوا من ديارهم فرارا من الارهاب السياسي، وكثيرون غيرهم هاجروا متطلعين الى أحوال من العيش أرقى وأفضل. فأوربا المزدحمة بالسكان لم تجد أمامها الا أن تلقي بالزائد من أبنائها الى أمريكا.

لقد كان خليطًا عجيبا من الأجناس والقوميات واللغات والأديان. ففي أوربا كان يعيش كل هؤلاء منفصلين متباعدين، وكان لكل منهم دنياه الخاصة، وكان قلب الواحد منهم مفعما بالحقد على الآخرين، وبالكراهية والبغضاء لهم. أما هنا في أمريكا فقد ألقى بهم جميعًا في جو جديد لا موضع فيهولا قيمة للأحقاد القديمة. وسرعان ما أزال نظام التعليم الاجباري الموحد نزعاتهم القومية، وهيأ الفرصة لظهور النموذج الامريكي من ثنايا هذا الخليط المشوش من الأجناس.

وهؤلاء الذين تحدوا منهم من الأصل السكسوني الانجليزي يعتبرون أنفسهم النبلاء والزعماء الاجتماعيين. ويليهم، وليس بعيدا عنهم، الأجناس التي نزحت من أوربا الشمالية. أما الذين هاجروا من أوربا الجنوبية، وخاصة من ايطاليا، فقد كان الوافدون من أوربا الشمالية ينظرون اليهم نظرة احتقار وازدراء ويسمونهم "الملونين" ثم يأتي الزنوج،

وهؤلاء كانوا في أسفل اللم ولم يختلطوا بأي جنس من أجناس البيض. وكان على شاطئ أمريكا الغربي بعض الصينيين واليابانيين والهنود ممن نزحوا الى أمريكا عندما كانت حاجتها الى العمال شديدة. وهذه الأجناس الأسيوية تحاشتالاندماج في الأجناس الأخرى، وبقيت في معزل عنها.

وكان من أثر شبكة المواصلات اللاسلكية والحديدية الواسعة الامتداد والانتشار أن اتصلت أطراف هذه القطر الضخم وأجزاؤه بعضها ببعض. وهذا الاتصال كان مستحيلا في العصور القديمة عندما كان السفر من شاطئ الى شاطئ يستغرق أسابيع وأشهرا.

وقد رأينا أنه كثيرا ما قالت في الماضي امبراطوريات في آسيا وأوربا. ولكن هذه ما كان يمكن أن يتصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بسبب صعوبة المواصلات ووسائل الانتقال. ومن ثم كان يمكن اعتبار أجزاء مختلفة من أي امبراطورية من هذه الامبراطوريات مستقلة تقريبا. فقد كانت تحيا حياتها الخاصة على طريقتها الخاصة، ولا يربطها بالامبراطورية غير الاعتراف بسيادة الامبراطور وتأدية فروض الطاعة والولاء له. ويمكن القول بأنها كانت عصبة غير متحدة من أقطار مختلفة تدين لرئيس واحد، ولا تجمع بينها نظرة واحدة مشتركة.

ومهما يكن من الأمر، فان الولايات المتحدة استطاعت بفضل السكك الحديدية وطرق المواصلات الأخرى ونظام التعليم الموحد أن تنمي هذه النظرة المشتركة بين أجناسها المختلفة. وشيئا فشيئا تحولت

الأجناس الى أصل واحد مشترك، ولا تزال العملية مستمرة لم تتم بعد. وليس في التاريخ مثل من أمثلة التحول على درجة كبيرة كهذه الدرجة.

وحاولت الولايات المتحدة أن تظل بمنأى عن الأحابيل الأوربية ومؤامراتها، كما أرادت أن تبقى أوربا بعيدة عن أمريكا في الشمال والجنوب. لقد أخبرتك من قبل عن "مذهب مونرو": عن التصريح الذي أصدره رئيس الولايات المتحدة مونرو عند ما أرادت بعض الدول الأوربية التي كان يتألف منها "الحلف المقدس" أن تتدخل في جنوب أمريكا ابقاء على امبراطورية اسبانيا.

فعندما همت هذه الدول بالتدخل صرح مونرو بأن الولايات المتحدة. لا تستطيع أن تسمح بأي تدخل مسلح من جانب أي دولة أوربية في أي جزء من أجزاء أمريكا. فهذا التصريح أنقذ جمهوريات أمريكا الجنوبية الناشئة من أوربا. وكاد هذا التصريح أن يؤدي مرة أخرى الى حرب مع انجلترة. ولكن أمريكا تمسكت ناجحة بهذه السياسة لمدة بلغت حتى الآن أكثر من مائة سنة.

وكانت أمريكا الجنوبية مختلفة جدا عن أمريكا الشمالية، ولم يستطع مرور قرن من الزمان أن يقلل الفوارق والاختلافات التي بينهما. وبينما كانت كندا في الشمال تتأثر خطى الولايات المتحدة وتزداد أوجه الشبه بينهما أكثر فأكثر، لم تكن الجمهوريات الجنوبية كذلك. وكما أخبرتك مرة أخرى ان جمهوريات أمريكا الجنوبية هذه بما فيها

المكسيك التي تقع في أمريكا الشمالية هي جمهوريات لاتينية. فالحد ما بين الناس مختلفين كذلك. فالسكان جنوبي هذا الحد، وعبر أمريكا الوسطى، وفي جميع أرجاء قارة أمريكا الجنوبية، يتكلمون الاسبانية والبرتغالية. والاسبانية هي اللغة الغالبة. أما البرتغالية فتستعمل، على ما أظن، في البرازيل فقط. وقد أصبحت الاسبانية اليوم بسبب أمريكا الجنوبية احدى لغات العالم الكبرى. ولا تزال اللاتينية تولي وجهها شطر اسانيا لتستمد منها وحيها الثقافي. ولم يكن للاختلافات العنصرية فيها من الأهمية ما كان لها في الولايات المتحدة، وكندا. وقد تولد جنس مختلط نتيجة لتزاوج من تحدروا من أصل اسباني بالزنوج وبالهنود الحمر سكان البلاد الأصليين.

وعلى الرغم من مائة سنة من الحرية، فان جمهوريات الجنوب اللاتينية رفضت أن تستقر. وقد قامت فيها من وقت الى آخر ثورات وديكتاتوريات عسكرية، وليس من السهل تتبع مجرى التغير الدائم في سياستهم وحكوماتهم. والدول الثلاث الكبرى في أمريكا الجنوبية هي الارجنتين، والبرازيل، وشيلي. وتعتبر المكسيك التي هي في أمريكا الشمالية من دول أمريكا اللاتينية الكبرى.

أشرت آنفا الى أن الولايات المتحدة عن طريق تصريح مونرو قد منعت أوربا من التدخل في شئون أمريكا اللاتينية. ولكن الولايات المتحدة أخذت عندما ازداد غناها وثراؤها، تتطلع خارج حدودها الى

ميادين جديدة للتوسع. وكان طبيعيا أن تقع أعين الولايات المتحدة أول ما تقع على أمريكا اللاتينية.

ولم تحاول الولايات المتحدة أن تستولى على أي قطر من هذه الأقطار بالقوة، أي بالطريقة القديمة التي كانت تتبع في بناء الامبراطوريات. وكل ما فعلته هو أنها أرسلت منتجاتها وسلعها الى أمريكا اللاتينية واستولت على أسواقها. ولم تقف الولايات المتحدة عند هذا الحد، وانما استثمرت رءوس من المشروعات الاقتصادية في الجنوب. كذلك قدمت قروضا مالية للحكومات وأحيانا للأحزاب السياسية المتحاربة في أوقات الثورات.

والذين قدموا هذه القروض هم أرباب المصارف (البنوك) والرأسماليون الأمريكيون، ومن ورائهم الحكومة الأمريكية تشد أزرهم وتؤيدهم. وشيئًا فشيئًا تحكم أرباب المصارف الأمريكية عن طريق الأموال التي أقرضوها أو استثمروها في كثير من حكومات الجنوب وأمركيا الوسطى. وقد بلغ سلطان أرباب المصارف ونفوذهم الى حد أنهم كانوا من أجل مصلحتهم يعملون على قيام الثورات بتقديم الأسلحة والمساعدات المالية لحزب أو فريق دون آخر. ومن وراء أرباب المصارف والرأسماليين كانت تقف حكومة الولايات المتحدة العظمى. ولهذا كانت تستطيع أقطار الجنوب الصغيرة الضعيفة أن تفعل؟ وقد حدث في بعض الأحيان أن أرسلت الولايات المتحدة جنودها فعلا لمساعدة حزب خاص في بعض دول الجنوب بحجة المحافظة على النظام.

وبهذه الطريقة نجح الرأسماليون الأمريكيون في أن تكون لهم رقابة فعالة على سياسة أقطار الجنوب الصغرى، وفي أن تئول اليهم ادارة مصارفها وطرقها الحديدية ومناهجها، واستغلال كل ذلك استغلالا يعود عليهم خاصة بالمنفعة والربح. فاللرأسماليم الأمريكيين، حتى في دول أمريكا اللاتينية الكبرى، نفوذ عظيم بسبب رءوس أموالهم المستثمرة فيها وبسبب الرقابة المالية.

ومعنى هذا أن الولايات المتحدة ضمت اليها ثروة هذه الاقطار أو الجزء الاكبر من ثروتها. وهذه الظاهرة تستحق اعمال النظر والانتباه، لأنها تشير الى نوع جديد من الامبراطوريات. فهي تميط اللثام عن الامبراطورية الاقتصادية الخفية غير المنظروة التي تستغل وتسيطر بدون أي مظاهر خارجية واضحة. فجمهوريات أمريكا الجنوبية هي من الناحية السياسية والدولية جمهوريات مستقلة حرة. وهي على الخريطة أقطار شاسعة الأطراف، وليس هناك ما يدل على أنها غير مستقلة في أي معنى من المعاني، أو أية صورة من الصور. ومع هذا فان معظم هذه الأقطار تتسلط عليها الولايات المتحدة وتتحكم فيها تحكما تاما.

وقد رأينا في لمحاتنا التاريخية ألوانا شتى من الاستعمار في عصور مختلفة. ففي البدء كان انتصار شعب على شعب آخر في الحرب يعني أن يتصرف المنتصرون كما يشاءون في الشعب المنهزم وأرضه. لقد كان الشعب المنتصر يضم اليه أرض عدوه بسكانها، وبهذا يصبح الشعب

المنهزم كله عبيدا. هذه كانت السنة أو العادة المألوفة. وفي التوراة، يقرأ المرء عن أخذ اليهود أسرى لانهزامهم في الحرب أمام البابليين، كما يقرأ عن أمثلة أخرى كثيرة.

وشيئا فشيئا زال هذا الاستعمار وأخلى مكانه لاستعمار آخر يضم فيه الشعب المنتصر أرض عدوه المنهزم اليه دون أن يحيل سكانها الى عبيد. واذا كان هذا الاستعمار لم يحل الناس عبيدا فلأنه قد اكتشف بلا شك أن من الأسهل أن يربح ويثرى على حسابهم عن طريق فرض الضرائب عليهم وغير ذلك من طرق الاستغلال الاخرى.

ولا يزال أكثرنا يفكرون في امبراطوريات من هذا النوع كالامبراطورية البريطانية في الهند التي لها السلطة السياسية الحقيقية في البلاد[١٣]، والتي لولاها، على ما نظن، لكانت الهند حرة.

ولكن هذا النوع من الامبراطوريات قد أخذ يختفي ويحل مكانه نوع آخر أكمل وأكثر تقدما. وهذا النوع الكامل المتقدم هو أحدث أنواع الامبراطوريات، وهو لا يعينه أن يضم اليه أرضا أو سكانا، بل ان ما يعينه هو أن يضم اليه الثروة أو عناصر انتاج الثروة في القطر فقط، وهو بعمله هذا يستطيع أن يتحكم فيه ويسيطر على شئونه الى حد كبير. ثم هو في الوقت ذاته لا يتحمل مسئولية حكم ذاك القطر وتخلفه، أو التعرض لسخط أبنائه وفورات غضبهم. ومعنى ذلك كله أن تسيطر مثل

---

١٣ كان هذا وقت كتابة هذه الرسائل .

هذه الامبراطورية على الأرض وسكانها معا بأقل قدر ممكن من المتاعب.

وبهذه الطريقة أكمل الاستعمار نفسه على مر العصور، وأصبحت الامبراطورية الاقتصادية الخفية غير المنظورة أحدث أنواع الامبراطوريات.

وعند أبطل الرق، وفيما بعد عندما قضى على عبودية نظام الاقطاع كان الظن أن الناس قد صاروا أحرارا. ولكن سرعان ما تبين أن الناس لا يزال يستغلهم ويسيطر عليهم من يملكون قوة المال ويتحكم فيها. واذا كان الناس قد تخلصوا من الرق والعبودية فانهم أصبحوا عبيد الأجر، وأصبحت الحرية بالنسبة لهم أمرا بعيد المنال.

وهكذا الحال أيضا بالنسبة للشعوب والأقطار. فالناس يتخيلون أن العلة الوحيدة لكل ما يعانونه ويقاسون منه هي في تحكم قطر في قطر آخر والتسلط عليه سياسيا. كما يتخيلون أن زوال هذا التحكم يعني عودة الحرية اليهم آليا. ولكن الامر ليس كذلك، لأننا نستطيع أن نرى أقطارا حرة سياسيا، وفي الوقت ذاته خاضعة خضوعا تاما لأقطار أخرى بسبب السيادة الاقتصادية. والامبراطورية البريطانية في الهند أوضح مثل على ذلك.

فبريطانيا تتحكم في الهند سياسيا، وبجانب هذه الامبراطورية المنظروة وكجزء منها تتحكم بريطانيا في الهند اقتصاديا. ومن الممكن أن ينتهي حكم بريطانيا السافر للهند قريبا، ومع هذا فقد يبقى تحكمها

الاقتصادي كامبراطورية خفية غير منظروة. فاذا حدث هذا كان معناه أن استغلال بريطانيا للهند سيظل مستمرا.

والاستعمار الاقتصادي هو أقل صور الاستعمار تعبا بالنسبة للدولة المستعمرة، فهو كسيطرة سياسية لا يسبب سخطا وحقدا لأن عامة الناس لا يلحظونه، ولكن عند ما تحس قرصته وثقل وطأته يبدأ الناس يفهمونه وينقمون عليه.

وفي أمريكا اللاتينية الآن لا يوجد حب كثير للولايات المتحدة، وقد بذلك جهود كثيرة لخلق معسكر من الشعوب الامريكية اللاتينية لتعارض سياسة أمريكا الشمالية وسيطرتها وغلبتها، وليس من المحتمل أن ينجحوا كثيرا في محاولتهم هذه الجزائر على اثر الحرب التي نشبت بينها وبين اسبانيا عام ١٨٩٨ بسبب جزيرة كوبا في المحيط الأطلسي. وكوبا وهايتي خاضعتان لأمريكا.

ومنذ اثنتى عشرة سنة أي في عام ١٩٢١ افتتحت قناة بنما في قطاع أمريكا الوسطى الضيق، وهي تصل المحيط الأطلسي بالمحيط الهادئ. وقد وضع فرديناند دي ليسبس الذي أنشأ قناة السويس تصميم قناة بنما منذ أكثر من خمسين سنة، ولكن الأمريكيين هم الذين أنشئوها. وقد واجهتهم أثناء اشنائها صعوبات كثيرة من الملاريا والحمى الصفراء، ولكنهم نجحوا في مكافحة هذين المرضين والتغلب عليها. لقد قضوا على كل المصادر التي يتولد منها بعوض الملاريا وغيره من

الحشرات وناقلات الأمراض، وجعلوا من منطقة القناة منطقة حية.

وتقع القناة في جمهورية بنما الصغيرة، ولكنالولايات المتحدة تتحكم فيها كما تتحكم في الجمهورية الصغيرة. وقناة بنما بالنسبة لأمريكا مصدر دخل كبير، ولولاها لاضطرت السفن أن تتخذ سبيلها الى المحيطين بالطواف حول جنوب أمريكا، ولكن قناة بنما لا تبلغ أهميتها أهمية قناة السةيس.

وهكذا استمرت الولايات المتحدة تزداد قوة وغنى وتنتج فيما تنتج أرباب الملايين وناطحات السحاب. وقد وصلت الى ما وصلت اليه أوربا من نواح كثيرة وتقدمت عليها. وفي ميدان الصناعة أصبحت أسبق الشعوب جميعا، كما أصبح مستوى معيشة عمالها أعلى منه في أي مكان آخر.

وبسبب ما تتمتع به من يسر ورخاء شبيه بما كانت عليه انجلترة في القرن التاسع عشر نرى أن النظريات الاشتراكية والتقدمية لا تجد فيها تأييدا. فالعمال الأمريكيون، الا القليل، أكثر اعتدالا ومحافظة. وهم يتقاضون أجورا أعلى نسبيا، فلماذا يقامرون براحتهم ورفاهيتهم الحاضرة من أجل حياة أفضل مشكوك فيها؟ وغالبية هؤلاء العمال من الايطاليين وغيرهم ممن كانوا يسمون باحتقار "الملونين"، والعمال المهرة من ذوي الأجور المرتفعة يعتبرون أنفسهم طبقة أخرى منفصلة عن طبقة هؤلاء "الملونين".

وفي محيط السياسة الأمريكية ظهر حزبان سياسيان هما: الحزب الجمهوري، والحزب الديمقراطي. ويمثل هذان الحزبان، كما في انجلترة وربما أكثر مما في انجلترة، نفس الطبقات الغنية الموسرة. وليس بينهما اختلاف كبير من حيث المبادئ والأهداف.

تلك كانت الحال عندما نشبت الحرب العالمية[١٤] التي امتصت أمريكا في النهاية وقذفت بها في دوامة الصراع العالمي.

---

[١٤] يقصد الحرب العالمية الأولى .

١٤٥- نهاية عصر تاريخي

٢٢ مارس سنة ١٩٣٣

القرن التاسع عشر! ما أطول الوقت الذي شغلنا فيه أنفسنا بأحداث هذه السنين المائة! لقد أنفقت أربعة أشهر في الكتابة لك عن هذه الفترة، حتى بدأت أشعر قليلا بالتعب منها. ومن يدري، فربما تشعرين أنت أيضا بالتعب عند قراءة هذه الرسائل.

لقد حدثتك أول ما حدثتك عن هذا القرن بأنه فترة من الزمن فاتنة ساحرة، ولكن كل شئ حتى الفتنة والسحر يحول بعد قليل.

ونحن في عرضنا التاريخي هذا قد تجاوزنا القرن التاسع عشر الى القرن العشرين. وكان آخر ما وصلنا اليه هو عام ١٩١٤. ففي ذاك العام أطلقت كلاب الحرب من عقالها، كما يقول المثل، على أوربا وعلى العالم. فهذا العام يعتبر نقطة التحول في التاريخ، كما يعتبر نهاية عصر تاريخي وبداية عصر آخر.

عام ١٩١٤! كان هذا العام قبل مولدك، وقد مضى عليه الآن أقل من تسعة عشر عاما، وهذه ليست بالفترة الطويلة اذا قيست بعمر الانسان، وهي أقل كثيرا اذا قيست بعمر التاريخ.

ولكن الدنيا منذ عام ١٩١٤ حتى اليوم قد تغيرت تغيرا كبيرا، ولا

تزال تتغير حتى لتبدو هذه الفترة بأحداثها عصرا برمته. وان عام ١٩١٤ والأعوام التي سبقته لتدخل في عداد التاريخ الطويل، وتصبح أجزاء من ماض بعيد نقرأ عنه في الكتب، ومختلف كل الاختلاف عن عصرنا الحاضر. وسوف أحدثك عن شئ من هذه التغيرات الكبيرة فيما بعد.

وقبل كل شئ، أرى لزاما على أن أنذرك انذارا. ذلك أن الجغرافيا التي تتعلمينها في المدرسة تختلف تمام الاختلاف عن الجغرافيا التي كان على أن أتعلمها عندما كنت في المدرسة قبل عام ١٩١٤. ومن الجائز أن كثيرا من الجغرافيا التي تتعلمينها اليوم قد تضطرين ألا تتعلميها فيما بعد، كما كان الحال معي.

فالحدود الجغرافية القديمة والاقطار القديمة قد اختفت في دخان الحرب وحلت محلها أقطار جديدة يصعب على المرء أن يتذكر أسماءها.

فمئات المدن قد تغيرت أسماؤها ما بين عشية أو ضحاها. فمدينة سانت بطرسبرج **St. Petersburg** أصبحت بيتروجراد، ثمأصبحت بعد ذلك لينينجراد، والقسطنطينية تدعى الآن استانبول، وبيكين تعرف الآن باسم بيبنج **Peiping**، وبراغ التي كانت اهدى مدن بوهيميا أصبحت براها **Praha** احدى مدن تشيكوسلوفاكيا.

وفي رسائلي اليك عن القرن التاسع عشر قد عالجت بالضرورة قارات وأقطارا على حدة، كما بحثت جوانب شتى وحركات مختلفة على

حدة أيضا. ولكنك ستتذكرين طبعا أن كل هذا كان في وقت واحد تقريبا، وأن التاريخ قد زحف في جميع أرجاء الدنيا بأقدامه الألف معا.

فالعلم والصناعة، والسياسة والاقتصاد، والغنى والفقر، والرأسمالية والاستعمار، والديمقراطية والاشتراكية، وداروِن وماركس، والحرية والعبودية، والمجاعة والطاعون، والحرب والسلام، والحضارة البربرية — كل هذه جميعا قد احتلت مكانها في هذا البناء أو النظام الغريب، وأثر كل منها في الآخر وتأثر به. فاذا أردنا أن نكون صورة في أذهاننا عن هذه الفترة أو أي فترة أخرى، فلا بد أن تكون صورة مركبة متغيرة متحركة دائما كالكاليدوسكوب **Kaleidoscope**[١٥] وان كانت أجزاء كثيرة متحركة من الصورة لا تسر المرءأن يتملاها ويتأملها.

فالمظهر الغالب على هذه الفترة قد تجلى، كما رأينا، في نمو الصناعة الرأسمالية عن طريق الانتاج الهائل الضخم، أو الانتاج بمساعدة بعض القوى الآلية كالقوى المائية أو البخارية أو الكهربائية.

وقد أحدث ذلك آثارا مختلفة في أجزاء شتى من الدنيا، وكانت هذه الآثار مباشرة وغير مباشرة معا. وهكذا أثر انتاج المنسوجات بواسطة الأنوال الآلية في مقاطعة لانكشير بانجلترة على الأحوال في القرى الهندية النائية، وقضى على كثير من الحرف والمهن هناك.

---

[١٥] آلة يتمكن بها الناظر من مشاهدة أشكال شتى على نظام بديع .

فالصناعة الرأسمالية كانت قوية، وبطبيعتها الذاتية أخذت تزداد نموا على نمو، وقلما اكتفت أو أشبعت نهمها. وكان طابعها المميز هو الاكتساب، فالصاعة الرأسمالية قد وجدت لتكتسب ولتستحوذ على ما تكتسب دائما، ثملتكتسب ثانيا. وكذلك حاول الأفراد وحاولت الشعوب. ولهذا يسمى المجتمع الذي نما في ظل هذا النظام مجتمعا مكتسبا.

وكان الهدف دائما هو أن تنتج المصانع أكثر فأكثر، وأن تستغل ثروتها الزائدة الناجة هذه في بناء مزيد من المصانع والطرق الحديدية، وما أشبه ذلك من مشروعات الانتاج، وكل هذا من شأنه أن يزيد بطبيعة الحال من ثراء أرباب هذه المصانع. ومن أجل تحقيق هذا الهدف ضحى بكل شئ آخر.

فالعمال الذين أنتجو غنى المصانع وثراءها لم ينتفعوا من ذلك الا بالقليل. وقد اضطر أولئك العمال، بما فيهم النساء والأطفال، أن يمروا بأوقات عصيبة قبل أن تتحسن أحوالهم بعض الشئ. كذلك ضحى بالمستعمرات والمحميات والتوابع، كما استغلت كل هذه من أجل مصلحة الصناعة الرأسمالية ومصلحة شعوبها.

ولهذا مضت الرأسمالية في طريقها، عمياء ضارية قاسية، تاركة وراءها الكثيرين من الضحايا. وعلى الرغم من ذلك فقد أحرزت انتصارا وتقدما. فمساعدة العلم لها نجحت الرأسمالية في أشياء كثيرة، وهذا النجاح خطف أبصار العالم وبدا كأنه تكفير عن شرودها ومساوئها.

وكذلك نجحت عرضا وبدون خطة مقصودة في انتاج الكثير من الأشياء الحسنة في الحياة، ولكن هذا السطح اللامع البراق كان يخفي تحته كثيرا من الفساد. أجل كان هناك الفقر القاتل والثراء الفاحش، وكان هناك الأحياء الفقيرة القذرة وناطحات السحاب، ثم كان هناك الامبراطوريات والمستعمرات المستغلة. وكانت أوربا هي القارة ذات السلطان والسيادة، بينما كانت آسيا وافريقية هما القارتين المستغلتين.

وكانت أمريكا معظم هذا القرن بمعزل عن تيارات الأحداث العالمية، ولكنها كانت تتقدم تقدما سريعا في بناء مصادر ثروتها واستغلالها. وفي أوربا كانت انجلترة هي زعيمة الرأسمالية المزهوة بنفسها وغناها وامبراطوريتها.

على أن طبيعة الصناعة الرأسمالية قد بلغت بالأمور الى حال استوجبت التدخل، وأدت الى المعارضة والاضطراب، ثم الى فرض بعض القيود في النهاية حماية للعمال. فنظام المصنع في أيامه الأولى كان يعني استغلال العمال استغلالا قاسيا شنيعا، ولا سيما النساء والاطفال منهم. فهؤلاء النساء والاطفال كانوا يفضلون في العمل على الرجال، لضآلة أجورهم بالقياس الى أجور الرجال، ولانه كان يفرض عليهم أن يشتغلوا أحيانا ثماني عشرة ساعة يوميا في أسوأ الأحوال وأبغضها وأقذرها.

ولم تجد الدولة مفرا ازاء ذلك الا أن تتدخل في النهاية، وتصدر قوانين سميت بتشريعات المصانع، حددت فيها ساعات العمل اليومي،

وأصرت على أحوال أرقى وأفضل. وقد حمت هذه القوانين النساء والأطفال بوجه خاص، ولكن استصدارها كان نتيجة كفاح طويل مرير بسبب المعارضة العنيفة من أرباب المصانع.

وأكثر من ذلك ان الصناعة الرأسمالية قد أدت الى أفكار اشتراكية وشيوعية، وبينما اعترفت هذه الأفكار بالصناعة الحديثة، نراها تتحدى أساس الرأسمالية. كذلك تطورت نقابات العمال واتحاداتهم ومنظماتهم الدولية، التي تنادي بأن الأرض ومصادر الثروة الطبيعية ووسائل الانتاج يجب أن تملكها الدولة وتتحكم فيها من أجل خير الجميع ورفاهيتهم.

وقد قادت الرأسمالية الى الاستعمار، كما أدى اصطدام الصناعة الرأسمالية الغربية بالأوضاع الاقتصادية القديمة في الاقطار الشرقية الى الخراب والدمار فيها. وحتى في هذه الاقطار الشرقية نرى الصناعة الرأسمالية قد تأسست فيها وأخذت في النمو شيئا فشيئا كذلك ظهرت فيها روح القومية كتحد لاستعمار الغرب.

وهكذا هزت الرأسمالية العالم، وعلى الرغم مماأحدثته من بؤس انساني فظيع فانها كانت في جملتها حركة نافعة على أقل تقدير للغرب. لقد جرت في أذيالها تقدما ماديا عظيما، ورفعت كثيرا من مستويات الناس، وأصبح الرجل العادي بسببها أهم وأعظم شأنا مما كان عليه من قبل.

فمن الناحية العملية لم يكن لرأيه وزن كثير في أي شئ، على الرغم مما كان يتمتع به صوت انتخابي وهمي، ومن الناحية النظرية زاد اعتباره

في نظر الدولة، كما زاد مع ذلك احترامه لنفسه. وهذا ينطبق بطبيعة الحال على الدول الغربية، حيث الصناعة الرأسمالية قد أسست نفسها.

لقد تكاثرت المعرفة الى حد كبير، وصنع العلم العجائب، كما أن استخدامه في شتى مناحي الحياة جعل الحياة على الناس أيسر وأسهل.

فالطب، ولا سيما الطب الوقائي والارتقاء بالمستوى الصحي، كان لهما الفضل في ايقاف واستئصال كثير من الأمراض التي كانت لعنة على الانسان. وعلى سبيل المثال نذكر اكتشاف أصل الملاريا وطرق الوقاية منها. ومما لا شك فيه أن من المستطاع الآن استئصالها والقضاء عليها في أية منطقة، اذا اتخذت الخطوات الضرورية لهذا. واذا كانت الملاريا لا تزال توجد ويروح ضحيتها ملايين من البشر في الهند وغيرها، فان ذلك لا يعني خطأ العلم، وانما يعني اهمال الحكومات وجهل الناس.

ولعل أبرز مظاهر هذا العصر هو تقدم وسائل النقل والمواصلات. فالطرق الحديدية، والسفن البخارية، والبرق[١٦]، والسيارات قد غيرت الدنيا تغيرا شاملا، وجعلتها بالنسبة لكل ضروب النشاط الانساني مكانا مختلفا تمام الاختلاف عما كانت عليه دائما. فالدنيا بفضل هذه المخترعات قد انكمشت، واقترب سكانها بعضهم من بعض، واستطاعوا أن يتعارفوا أكثر من قبل، وبالمعرفة المتبادلة قضى على كثير من الحواجز التي أقامها الجهل. ثم بدأت الأفكار العامة المشتركة تذيع

---

١٦ التلغراف .

وتنتشر وتحدث نوعا من الوحدة الفكرية في جميع أرجاء الدنيا.

وفي نهاية العصر الذي ندرسة ظهر اللاسلكي والطيران، ولكن استعمالهما أصبح الآن شائعا، وقد ركبت الطائرة وسافرت بها عدة مرات دون أن تفكري فيها كثيرا. وتطور اللاسلكي والطيران وانتشارهما يمت الى القرن العشرين والى عصرنا الحاضر.

فالناس كثيرا ما طاورا في مناطيد، ولكن لم يرتفع أحد من قبل على شئ أثقل من الهواء اللهم الا على البساط الطائر في الأساطير القديمة، كما في قصص ألف ليلة وليلة، والا على "اليورانخاتولا" **Urankhatola** كما في قصصنا الهندية.

والاخوان الأمريكيان "ولبور" **Wilbur** و"أورفيل رايت" **Orville Wright** هما أول من نجح في اعتلاء الجو في آلة أثقل من الهواء. وهذه الآلة هي أصل الطائرة الحديثة. فهذان الأخوان استطاعا في ديسمبر ١٩٠٣ أن يطيرا بآلتهما في الجو الى ارتفاع أقل من ثلثمائة ياردة، ولكن مع قصر هذه المسافة، فانهما قد فعلا ما لم يستطع أحد قبلهما أن يفعله.

وقد استمرت بعد ذلك محاولات الطيران في الجو تتقدم، واني لأذكر الدهشة التي سرت في العالم عام ١٩٠٩ عندما تمكن "بليريو" **Blériot** الفرنسي من الطيران فوق القنال الانجليزي من فرنسا الى انجلترة. وقد رأيت بعد ذلك بقليل أول طائرة تطير فوق برج ايفل في

باريس. وبعد ذلك بعدة سنوات، وعلى التحديد في مايو ١٩٢٧، كنت أنا وأنت في باريس عندما قدم "شارل لندبيرج" **Gharles Lindbergh** كالسهم الفضي المتلألئ عبر المحيط الأطلسي ثم هبط في لي بورجيه **Le Bourget** مطار باريس.

كل ذلك يعد من حسنات هذا العصر، عندما كان للصناعة الرأسمالية السيادة والسلطان. ومما لا شك فيه أن الانسان قد أتى خلال هذا القرن بأشياء عجيبة.

وهناك شئ آخر يضاف الى جانب الحسنات. ذلك أن ازدياد شراهة الرأسمالية وشحها أدى الى ظهور الحركة التعاونية لتحد من هذه الشراهة وهذا الشح. وهذه الحركة التعاونية تتمثل في جماعة من الناس قد اشتركوا معا في شراء أو بيع السلع العامة وتقسيم الارباح فيما بينهم. وطريق الرأسمالية العادي هو طريق المنافسة القاتلة حيث يحاول كل شخص أن يسبق الآخر. أما الطريق التعاوني فقائم على أساس التعاون المتبادل، ولا بد أنك رأيت كثيرا من الشركات التعاونية. وقد نمت الحركة التعاونية وانتشرت انتشارا كبيرا في أوربا في القرن التاسع عشر، ولعل الدانمارك الصغيرة هي الدولة التي أحرزت فيها الحركة التعاونية أكبر نجاح.

ومن الناحية السياسية أخذت الأفكار الديمقراطية تظهر وتنمو وتنتشر، كما نالت الشعوب أكثر فأكثر حق انتخاب برلماناتها ومجالسها النيابية. ولكن حق الانتخاب هذا كان قاصرا على الرجال، وأما النساء،

حتى القادرات وذوات الكفاءة منهن، فقد حرمن حقهن الانتخابي على أساس أنه ليس من الخير أو الحكمة منحهن هذا الحق. وقد استاء من هذا الموقف كثير من النساء، وفي أوائل القرن العشرين نظمت النساء في انجلترة اضرابات ومظاهرات طالبن فيها بحقهن الانتخابي.

ولكن الرجال لم يأخذوا حركة المطالبة بحق المرأة الانتخابي مأخذ الجد، وبالتالي لم يصغوا اليها أي اصغاء. ولهذا لجأت المرأة في المطالبة بحقها الى طرق الشدة والعنف لجذب الانظار الى قضيتها، ومن ذلك أن النساء الانجليزيات اقتحمن البرلمان وأحدثن شغبا فيه وشوشن على النواب حتى اضطر هؤلاء الوزراء الى التنقل في حماية البوليس المستمرة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد وانما زاد العنف المنظم وانتشر، ونتيجة لكل ذلك زج بكثير من النساء في السجن حيث أضربن عن الطعام. ثم أفرج عنهن، حتى اذا استعدن صحتهن وقوتهن، زج بهن ثانية في السجن.

وقد وافق البرلمان على قانون يجيز القبض على هؤلاء النساء وسجنهن، وقد أسمى العامة هذا القانون "قانون القط والفأر".

على أية حال، لقد نجحت وسائل المطالبات بحق الانتخاب في اثارة الاهتمام على صعيد واسع، وفي كسب التأييد الشعبي، ولم تمض سنوات قليلة الحرب العالمية (الأولى) حتى اعترف للمرأة في انجلترة بحقها الانتخابي.

ولم تقتصر حركة المرأة، أو الحركة النسوية كما تسمى كثيرا، على المطالبة بحق الانتخاب، وانما تعدت ذلك الى طلب المساواة بين الرجل والمرأة في كل شئ.

وموقف المرأة في الغرب كان عهد قريب سيئا، حيث لم تكن قد ظفرت الا بالقليل من حقوقها، فالقانون لم يكن يخول المرأة الانجليزية مثلا حتى حق التملك، بينما كان يخول الزوج أن يستولى على كل شئ حتى دخل زوجته. أجل كانت المرأة الانجليزية بمقتضى القانون أسوأ حالا حتى من المرأة اليوم تحت القانون الهندي. وهذا يبين مدى ما كانت عليه المرأة الانجليزية من حال سيئة.

فالمرأة في الغرب كانت في حقيقة الأمر جنسا يدين بالخضوع والتبعية للرجل، كما شأن المرأة الهندية اليوم في أحوال كثيرة. وقد حدث قبل بدء الكفاح من أجل حق الانتخاب بزمن طويل أن طالبت المرأة بأن تعمل مع الرجل على قدم المساواة في شئون أخرى.

وقد أعطيت المرأة الانجليزية قبيل نهاية القرن التاسع عشر بعض الحقوق، كحق التملك، ونجاحها في اكتساب هذا الحق يرجع الى تحبيذ أرباب المصانع له، معتقدين أن المرأة اذا مكنت من أن تحتفظ بداخلها لنفسها فان هذا من شأنه أن يستميلها الى العمل في المصانع.

وعلى الاجمال، اذا نظرنا الى كل جانب فاننا نلحظ تغييرات كبيرة، ولكن الأمر ليس كذلك اذا نظرنا الى أساليب الحكومات، فالدول

العظمى ظلت تتبع المؤامرات وضروب الخداع التي أوصى بها منذ عهد طويل مكيافيلي الفلورانسي، والتي أوصى بها من قبله عام ١٨٠٠ الوزير الهندي "تشانكيا" **Chânakya**

فبين الدول العظمى كانت هناك منافسة لا تنقطع، وكان هناك أحلاف ومعاهدات سرية. وكانت كل دولة منها تحاول أن تسبق الدول الأخرى. وقد لعبت أوربا، كما رأينا، الدور الايجابي العدواني، ولعبت آسيا الدور السلبي، أما دور أمريكا في ميدان السياسة الدولية فكان بالنسبة الى دور الدول العظمى الأخرى دورا صغيرا، وذلك لانشغال بالها بشئونها الخاصة وانهماكها فيها.

ومع فكرة القومية تطورت فكرة تعصب الانسان لوطنه مصيبا أو مخطئا. كذلك مجدت الشعوب على اتيان أشياء، لو أتاها الأفراد لكانت قبيحة خارجية على مبادئ الأخلاق.

وهكذا نشأت مفارقة غريبة بين أخلاق الأفراد وأخلاق الشعوب، ووجد فرق شاسع بين الاثنين، وأصبحت رذائل الأفراد فضائل الشعوب.

ولا جدال في أن الأنانية والطمع والشراهة والتعاظم والخسة والفظاظة أمور شائنة لا تغتفر لا تغتفر في حالة الأفراد رجالا ونشا، أما في حالة الجماعات والشعوب فقد اعتبرت أمورا تحمد وتشجع باسم حب الوطن وتحت رداء الوطنية النبيل.

وليس هذا فقط، بل أصبح حتى الاغتيال والقتل أمرين جديرين

بالثناء والمدح اذا ارتكبتهما الجماعات الشعوب الكبيرة ضد بعضها بعضا!

وقد قال كانت حديث، وهو على حق فيما قال: "لقد أصبحت المدنية وسيلة تقترب بها الجماعات آثام الأفراد".

١٤٦- الحرب العالمية ١٧ تبدأ

٢٣ مارس ١٩٣٣

في ختام رسالتي السابقة أبنت لك مدى خبث الدول وفساد طويتها عند ما تعامل بعضها بعضا.

فكل دولة تعتبر من علامات استقلالها أن تتخذ ضد الآخرين موقفا هجوميا لا يغتفر ما استطاعت الى ذلك سبيلا، وأن تمارس سياسة من يعزف عن استعمال الشئ، وفي الوقت ذاته لا تسمح لغيرها باستعماله.

وهل هناك قوة أو سلطة تستطلع أن تكره أي دولة على التزام آداب السلوك؟ أو ليست هذه الدولة أو تلك مستقلة؟ ثم أليس أي تدخل على هذا النحو يقابل بالاستياء والحنق والاستنكار؟

ولعل الشئ الوحيد الذي يكبح من جماح الدول هو الخوف من النتائج والتبعات. ومن أجل ذلك احترمت الدول القوية الى حد ما واستذلت الدول الضعيفة.

وهذه المنافسة القوية كانت في الحقيقة نتيجة حتمية لنمو الصناعة الرأسمالية. وقد رأينا كيف أن الطلب المتزايد للأسواق والمواد الخام جعل الدول الرأسمالية الكبرى تتسابق حول العالم رغبة في بناء امبراطوريات لها.

---

[١٧] يقصد الحرب العالمية الأولى من ١٩١٤ – ١٩١٨

أجل تدافعت هذه الدول حول آسيا وافريقية للاستلاء على أكبر ما يمكن الاستيلاء عليه من الأرض واستغلاله. وعند ما احتلت المعمور من الدنيا ولم يعد هناك مجال آخر لتوسيعها، بدأت الدول الرأسمالية الكبرى يحملق بعضها في بعض، وتطمع هذه في ممتلكات تلك.

وكثيرا ما نشأ التصادم بين هذه الدول العظمى في آسياوافريقية وأوربا، وتأججت نيران الغضب بينها، وبدت الحرب معلقة في الميزان.

ومن الدول العظمى من كانت أحسن حالا من الأخرى، ولعل انجلترة بسبقها الصناعي وامبراطوريتها الشاسعة الأطراف كانت أكثر الجميع حظا. ومع ذلك فان انجلترة لم تكن قانعة بما عندها، ولا غرابة في ذلك، فكلما زاد ما ما لدى الانسان كثر جشعه وتلهفه على طلب المزيد.

وقد ازدحمت رءوس بناة الامبراطورية الانجليزية بمشروعات للتوسع مساحة ونفوذا، مشروعات تهدف الى امبراطورية افريقية تمتد بلا انقطاع من الشمال الى الجنوب، ومن القاهرة الى رأس الرجاء الصالح.

وكانت انجاترة أيضا مضطربة منزعجة من منافسة ألمانيا والولايات المتحدة لها في ميدان الصناعة. فهاتان الدولتان كانت منتجاتهما الصناعية أرخص من منتجات انجلترة، ولهذا كانتا تسلبان انجلترة أسواقها.

فاذا كانت انجلترة المحظوظة غير قانعة، فان الدولة الأخرى كانت بلا شك أقل منها قناعة ورضا، ولا سيما ألمانيا التي لحقت متأخرة بركاب الدول العظمى، ووجدت أن كل الثمار الناضجة الشهية قد ذهبت لغيرها.

فألمانيا كانت قد تقدمت تقدما عظيما في العلوم، والتعليم، والصناعة، وبنت في الوقت ذاته جيشا هائلا. وفي ميدان الاصلاح الاجتماعي كانت قد سبقت الدول الأخرى بما فيها انجلترة في ميدان التشريعات التي سنتها لعمالها.

وعلى الاجمال كانت الدنيا محتلة بالدول الاستعمارية الأخرى عندما ظهرت ألمانيا على مسرح الحوادث ورأت طرق الاستغلال محدودة. ولكنها على الرغم من ذلك أصبحت بالعمل الشاق وتنظيم نفسها أقوى وأكفأ دولة في عصر الرأسمالية الصناعية.

فسفنها التجارية كانت تغشى كل ميناء، وكانت هامبورج وبريمن **Bremen** الالمانيتان معدودتين بين أكبر موانئ الدنيا، ولم يحمل الاسطول التجاري الألماني السلع والمنتجات الالمانية الى أقطار بعيدة فقط، وانما استولى أيضا على نقل تجارة الأقطار الاخرى.

لم يكن عجيبا اذن من المانيا الجديدة الاستعمارية هذه، مع نجاحها وشعورها الكامل بالقوة، أن تغضب وتثور على القيود التي فرضت عليها للحيلولة دون اطراد نموها وتقدمها.

وكانت بروسيا هي زعيمة الامبراطورية الالمانية، ولم يعرف أبدا عن مالك الأرض البروسي أو الطبقة العسكرية قبول الهوان والمذلة، وانما كانا مبادئين بالشر والاعتداء ومتباهين به، وقد وجدا في شخص القيصر ولهيلم الثاني زعيما مثاليا تتجلى فيه روح الزهو والتعاظم والاعتداء.

فهذا القيصر طفق يعلن في كل مكان وكل مناسبة أن ألمانيا في طريقها الى زعامة العالم، وأنها تريد لنفسها مكانا تحت الشمس، وأن مستقبلها مرهون بالبحر، وأن رسالتها هي أن تنشر ثقافتها في جميع أرجاء الدنيا.

ومثل هذا القول ردده من قبله أناس آخرون وشعوب أخرى. قالته انجلترة عندما ادعت أن رسالتها تتمثل في الاضطلاع بعبء الرجل الأبيض، وقالته فرنسا حينما زعمت أن رسالتها هي نشر المدنية.

فانجلترة ادعت، وكانت على حق في دعواها، أنها متفوقة بأساطيلها في البحار. أما القيصر فقد ادعى لألمانيا وبأسلوب فج مبالغ فيه ما ادعاه كثير من الانجليز لانجلترة، مع فارق واحد، هو أن ما ادعته انجلترة كانت تملكه فعلا، على حين ما ادعته المانيا كانت لا تملك منه شيئا.

ومع هذا فقد استفزت دعاوي القيصر الانجليز غاية الاستفزاز، وأوغرت صدورهم. ففكرة أن يجرؤ أي شعب حتى على مجرد التفكير في أن تصير له زعامة العالم، كانت فكرة بغيضة لدى الانجليز. ولم تكن كذلك في نظرهم فحسب، وانما كانت بدعة من البدع، وهجوما صريحا على انجلترة التي اعتبرت نفسها زعيمة الشعوب.

أما البحر فقد اعتبر أمرا من الأمور التي احتفظت بها انجلترة

لنفسها منذ هزيمة نابليون في موقعة الطرف الأغر منذ مائة سنة[١٨] ولهذا يرى الانجليز أنه لا يليق مطلقا بألمانيا أو بأي شعب آخر أن يتحدى هذا الموقف. فاذا لم تعد انجلترة ذات قوة وسيادة في البحار فماذا يكون مصير امبراطوريتها الشاسعة الاطراف؟

فتحدى القيصر وتهديده كانا في حد ذاتهما أمرا سيئا، ولكن الأسوأ من ذلك أن يقوم القيصر فعلا بعد هذا التحدي والتهديد بزيادة أسطولهوتقويته وتدعيمه. لقد أزعج هذا الأمر الانجليز ونال من أعصابهم فاندفعوا يزيدون من قوة أسطولهم. وهكذا بدأ تسابق بحري بين الدولتين، وراحت صحافة البلدين تشن كل منهما على الأخرى حملات صاخبة، وتزيد من حدة الحقد القومي، وتطالب ببناء الكثير من البوارج الحربية.

هذه كانت منطقة من مناطق الخطر الكثيرة في أوربا. وكانت فرنسا والمانيا بطبيعة الحال منافستين قديمتين، وكانت ذكريات الهزيمة المؤلمة التي أصابت فرنا عام ١٨٧٠ تلتهب في عقول الفرنسيين ممن كانوا يحلمون بالانتقام. وكانت دول البلقان صندوق بارود، حيث كانت تتصادم فيها مصالح شتى.

وقد بدأت المانيا أيضا تتودد الى تركيا بقصد زيادة نفوذها في غرب آسيا. ومن ذلك أنها اقترحت انشاء طريق حديدي الى بغداد، يصل هذه المدينة بالقسطنطينية وأوربا. وكان هذا المشروع مرغوبا فيه

---

١٨ كتبت هذه الرسالة عام ١٩٣٣ .

جدا، ولكن رغبة المانيا في أن تكون لها الرقابة على هذا الطريق الحديدي أثارت الغيرة القومية لدى بعض الدول.

وشيئا فشيئا بدأ الخوف من الحرب ينتشر في أوربا، ونتيجة لذلكبدأت الدول العظمى تنشد الأحلاف دفاعا عن نفسها. وقد انقسمت الدول العظمى الى معسكرين: معسكر يضم حلفا ثلاثيا من المانيا والنمسا وايطاليا، ومعسكر آخر يضم حلفا ثلاثيا أيضا من انجلترة وفرنسا وروسيا.

وكانت ايطاليا عضوا فارت الهمة عديم الجدوى في الحلف الألماني، وعندما نشبت الحرب نقضت عهدها وانضمت الى المعسكر الآخر. وكانت النمسا امبراطورية مفككة متداعية، تبدو على الخريطة مساحة كبيرة، وتشيع فيها العناصر غير المؤتلفة. وكانت عاصمتها "فينا" الجميلة هي خير ما فيها، لأنها كانت مركزا كبيرا للعلوم والفنون والموسيقى. لهذا كان الحلف الثلاثي الذي تتزعمه المانيا لا يعني غير المانيا فقط، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يعرف، قبل قيام الحرب، حقيقة كل من ايطاليا والنمسا.

وهكذا تحكم الخوف في أوربا، والخوف أمر فظيع. فكل دولة مضت تستعد للحرب وتسلح نفسها الى أقصى حدود التسلح. لقد كان هناك سباق في التسلح. والعجيب في أمر هذا السباق أن الدول كانت تضطر، عندما ترى احداهما تستزيد من أسلحة الحرب الى أن تضاعف هي الأخرى من استعداداتها الحربية.

وكان طبيعيا أن تجني المصانع الحربية الكبرى ثروات طائلة من وراء انتاج المدافع والبوارج والذخيرة وغير ذلك من ضروب العتاد الحربي. ولم يقف أرباب المصانع الحربية الخاصة عند حد انتاج أسلحة الخراب والدمار، وانما ذهبوا الى أبعد من ذلك. فقد بدأوا في الحقيقة يملأون قلوب الناس فزعا ورعبا من الحرب، وذلك بقصد دفع الدول والأقطار لشراء مزيد من الأسلحة. وكانت هذه المصانع الحربية الكبرى غنية وقوية جدا. وكثيرون من الوراء وذوي المناصب العالية في انجلترة وفرنسا والمانيا وغيرها كانوا من المساهمين فيها، وكان يهمهم أن تزدهر وتتضاعف أرباحها، وازهار مصانع الأسلحة يأتي عادة من نشر الخوف من الحرب ثم من الحرب الفعلية. فالموقف الغريب هنا هو أن الوزراء وأرباب المناصب الكبرى في كثير من الحكومات كانت لهم مصلحة مالية في قيام الحرب واشعال نيرانها!

وقد لجأت هذه المصانع الحربية الى طرق شتى لزيادة اعتمادات الحرب في دول مختلفة. من ذلك أنها اشترت صحفا ومجلات لتؤثر عن طريقها في الرأي العام، وكثيرا ما رشت ذوي المناصب الحكومية الكبرى، ونشرت أنباء كاذبة بقصد اثارة مشاعر الناس. فما أفظع وأشنع صناعة الأسلحة التي تحيا على موت الآخرين، والتي لا تتردد في تشجيع خلق الرعب في الاذهان من أهوال الحرب كي تثري وتربح على حساب ذلك! لقد ساعدت هذه الصناعة الى حد ما على التعجيل بنشوب حرب عام ١٩١٤، ولا يزال هذه الصناعة حتى اليوم تلعب نفس الدور.

وبعد، فأرى لزاما علي وأنا في معرض الحديث عن الحرب أن أحدثك عن محاولة غريبة للابقاء على السلام. فقيصر روسيا نيقولا الثاني، قام دون سائر الناس، واقترح على الدول العظمى أن تجتمع لتمهيد السبيل الى عصر من السلام العالمي. ذلك هو القيصر الذي حطم كل حركة تدعو الى الحرية في امبراطوريته، والذي ملأ سيبيريا بالسجناء والمنفيين الاحرار! فدعوته للكلام عن السلام بعد ذلك تبدو كما لو كانت ضربا من الفكاهة والمزاح.

ومن الجائز أنه كان مخلصا في دعوته، فاستقرار السلام العالمي بالنسبة له كان يعني دوام الأحوال القائمة في امبراطوريته، واستمرار حكمه الفردي الاستبدادي.

واستجابة لدعوته عقد مؤتمران في لاهاي بهولندة في عامي ١٨٩٩ و١٩٠٧، ولكنهما لم ينجحا في الوصول الى أي شئ ذي بال. ولم تكن هذه النتيجة بالأمر المستغرب، فالسلام لا يتنزل فجأة من السماء، وانما يأتي فقط من استئصال أسباب الاضطراب والمشاكل من جذورها.

لقد حدثتك كثيرا عن منافسات الدول العظمى ومخاوف بعضها من بعض. فالدول الصغيرة الفقيرة حظها التجاهل والاهمال دائما، الا اذا ساء تصرفها. ففي شمال أوربا توجد بعض الدول الصغيرة التي تستحق الاهتمام، لأنها تختلف اختلافا بينا عن الدول العظمى البخيلة الجشعة. ومن هذه الدول الصغيرة النرويج والسويد والدنمارك.

فهذه الدول ليست بعيدة عن القطب الشمالي، ومناخها بارد، والحياة فيها قاسية، ولا يستطيع أن يعيش على ما فيها الا عدد قليل محدود من السكان. ولكونها تعيش خارج الدائرة التي يتركز فيها حقد الدول العظمى وغيرتها ومنافستها، نراها تحيا حياة هادئة، وتنفق جهودها في سبل من الحياة المتمدينة، كما نرى العلوم والآداب ترقى وتزدهر في ربوعها.

وحدث أن انضمت النرويج والسويد معا وكونتا دولة واحدة حتى عام ١٩٠٥، ثم قررت النرويج أن تنفصل وأن تمارس حياتها مستقلة. ولهذا اتفقت الدولتان أن تفصما عري اتحادهما سلميا، ومنذ ذلك الحين أصبحتا دولتين مستقلتين. ولم تنشب حرب بينهما، ولم تحاول احداهما أن تكره الأخرى على مالا ترضى، وانما استمرتا تعيشان جارتين صديقتين.

وقد ضربت الدنمارك الصغيرة مثلا رائعا للدول الكبرى والصغرى معا عندما ألغت جيشها وأسطولها. وشعب الدنمارك شعب زراعي، والفرق بين مزارعيه والأغنياء والفقراء ليس كبيرا. وهذه المساواة التي يتمتع بها هذا الشعب ترجع في جملتها الى تطور الحركة التعاونية فيها ونموها نموا كبيرا.

ولكن ليس كل دول أوربا الصغرى نماذج للفضيلة تحتذى كالدنمارك. فهولندة، على صغرها، تتحكم في امبراطورية كبيرة في الهند الشرقية من جاوة[١٩] وسومطرة الخ..

---

١٩ كان ذلك قبل استقلال اندونيسيا .

ويلي هولندة بلجيكا التي تستعمر الكنغو في افريقية وتستغله. وأهمية بلجيكا الحقيقية في السياسة الأوربية تأتي من موقعها الجغرافي، فهي تكاد تكون على الطريق الرئيسي بين فرنسا والمانيا، وكل حرب تقوم بين هاتين الدولتين تجر بلجيكا اليها. وسوف تذكرين أن "ووترلو"[٢٠] قريبة من "بروكسل" عاصمة بلجيكا. ولهذا السبب كان يطلق على بلجيكا اسم "ميدان قتال ديوك أوربا"، وقد اتفقت الدول العظمى لى احترام حياد بلجيكا في حالة الحرب، ولكن هذا الاتفاق أو الوعد، كما سنرى تبدد وتلاشى عندما قامت الحرب.

على أن أكثر الدول الصغرى شجارا وشقاقا، سواء في أوربا أو غيرها، هي دول البلقان. فهذا الخليط المتنافر من الناس والأجناس، ومن ورائه عداوة ومنافسة أجيال، ويتفشى بينه الحقد والصراع المتبادلان.

فحروب البلقان في عامي ١٩١٢ و١٩١٣ كانت حروبا دموية منكرة، ومع أنها قامت لفترة قصيرة وكانت تدور رحاها في منطقة صغيرة فانخسائرها كانت فادحة. ويقال ان البلغار ارتكبوا ضد الأتراك المتقهقرين واللاجئين جرائم فظيعة شنعاء. وقد حفل سجل الأتراك أنفسهم في السنوات الأولى بضروب شتى من القسوة والوحشية. والصرب التي هي الآن جزء من يوغوسلافيا اكتسبت سمعة شريرة في حوادث الاغتيال.

ففي الصرب تألفت عصابة سرية ممن يسمون أنفسهم بالوطنيين

---

[٢٠] الموقعة التي انهزم فيها نابليون .

هدفها الاغتيال. وقد أطلق على هذه العصابة "اليد السوداء". وكان من بين أعضائها بعض ذوي المناصب العليا في الدولة، واليها يعزى ارتكاب بعض حوادث اغتيال بشعة.

فملك الصرب وملكتها، الملك اسكندر والملكة راجا، وأخوة الملكة، ورئيس الوزراء وغيرهم، قتلوا جميعا بطريقة تثير التقزز والاشمئزاز. وهذه كانت ثورة قصر فقط أريد بها افساح الطريق لشخص آخر ليتولى الملك.

هكذا بدأ القرن العشرون برعد وبرق في سماء أوربا، وعلى توالي السنين اكفهر هذا الجو واشتدت عواصفه. ثم زادت العراقيل والأحابيل، وأصبحت حياة أوربا مقيدة بعقد لا يمكن حلها أو قطعها في النهاية الا بالحرب.

وقد توقعت كل الدول العظمى حدوث حرب، ولهذا غشيتهم حمى الاستعداد لها. ومن يدري؟ فلعل أحدا من هذه الدول لم يكن راغبا فيها أو متلهفا عليها. فجميعهم كانوا خائفين منها الى حد ما، لأنه لم يكن في استطاعة أية دولة أن تتنبأ تنبؤا جازما بالنتائج التي تنتهي اليها الحرب، ومع هذا فقد دفعهم الخوف من الحرب الى الحرب.

وكما أخبرتك من قبل ان معسكري أوربا قد تحالف أحدهما ضد الآخر. وقد أطلق على هذين المعسكرين "ميزان القوة" وكان في الواقع ميزانا دقيقا حساسا جدا تكاد أي دفعة أو هبة أن تطوح به.

فاليابان على بعد ما بينها وبين أوربا، وعلى عدم اهتمامها الكثير

بمشاكل أوربا المحلية ،كانت طرفا في أحد حليفها أو في ميزان القوة هذا. كانت اليابان حليفة انجلترة، وقد قصد بهذا الحلف أن ترعى اليابات المصالح الانجليزية في الشرق وبخاصة الهند. ويرجع هذا التحالف الانجليزي الياباني الى أيام المنافسة بين روسيا وانجلترة، وقد استمر هذا التحالف، على الرغم من انضمام روسيا الى معسكر انجلترة. وكانت أمريكا هي الدولة الكبرى الوحيدة التي ظلت بمعزل عن نظام الأحلاف الأوربية وموازين قوتها.

هكذا كانت الأحوال عام ١٩١٤. ولعلك تذكرين أن انجلترة في هذا الوقت كانت تواجه متاعب كثيرة في ارلندة بسبب الحكم الداخلي فيها. فألستر **Ulster** كانت ثائرة، والمتطوعون من أبنائها كانوا يتدربون على القتال في الشمال والجنوب، وكان هناك كلام عن حرب أهلية في ارلندة.

ومن المحتمل جدا أن الحكومة الالمانية قدرت أن الاضطراب الارلندي قد يشغل انجلترة فلا تتدخل اذا نشبت حرب أوربية.ولكن الحكومة الانجليزية كانت، في الواقع، قد التزمت سرا بالانضمام الى فرنسا في حالة الحرب، ولكن هذا الالتزام لم يكن أمرا معروفا.

وفي يوم ٢٨ يونية عام ١٩١٤ انطلقت الشرارة التي أشعلت نيران الحرب. في هذا اليوم ذهب الأرشيدوق فرانسيس فردناند وارث عرش النمسا لزيارة "سيراجيفو" **Serajevo** عاصمة البوسنة في البلقان. وكما أخبرتك من قبل، كانت النمسا قد ضمت البوسنة الى امبراطوريتها قبل

هذه الزيارة بسنوات قليلة، وعندما كان الأتراك الذين تتألف منهم حركة "تركيا الفتاة" يحاولون التخلص من سلطانهم.

فبينما كان الأرشيدوق وزوجته يطوفان في شوارع "سيراجيفو" في عربة مكشوفة اغتالهما مجهول باطلاق الرصاص عليهما.

لقد ثارت النمسا حكومة وشعبا لهذا الحاذث، واتهمت حكومة الصرب، والصرب جارة البوسنة ،وبالاشتراك في هذه الجريمة، ولكن حكومة الصرب بطبيعة الحال أنكرت ما نسب إليها.

وقد دلت التحريات والتحقيقات بعد وقوع الحادث بوثق طويل على أن حكومة الصرب، ولو أنها غير مسئولة عن الحادث، لم تكن جاهلة كل الجهل بالمؤامرات التي كانت تبيت لارتكابه. فالمسئولية عن هذا الاغتيال يجب أن يقع الجزء الأكبر منها على عاتق منظمة "اليد السوداء" الصربية.

أما حكومة النمسا فقد وقفت موقفا عدائيا جدا ازاء الصرب، وهي في ذلك كانت مدفوعة بباعث الغضب الى حد ما، وبباعث السياسة الى حد كبير. لهذا قررت أن تذل الصرب اذلالا لا قيامة لها من بعده، معتمدة في ذلك على مساعدة المانيا القوية في حالة نشوف حرب على صعيد أوسع. ومن ثم لم تقبل النمسا الاعتثارات الصربية، وفي يوم ٢٣ يولية ١٩١٤ أرسلت انذارا نهايا الى الصرب. وبعد هذا الانذار بخمسة أيام، وعلى التحديد يوم ٢٨ يولية، أعلنت النمسا الحرب على الصرب.

في هذا الوقت، كانت مقاليد السياسة النمسوية في يد وزير مغرور

أحمق منطو على الحرب. وقد استميل الامبراطور المعمر فرانسيس جوزيفالذي تبوأ عرش النمسا منذ عام ١٨٤٨ للموافقة على الحرب، كما فسر شبه وعد من المانيا على أنه تأكيد تام بالمساعدة.

ومن المحتمل جدا أن لا أحد غير النمسا من الدول العظمى كان راغبا في الحرب وقتئذ. فألمانيا مع كل استعدادها وولعها بالقتال لم تكن متلهفة على الحرب، وقد حاول حتى القيصر ولهيلم الثاني حد ما أن يمنع وقوعها. وكانت انجلترة وفرنسا غير متلهفين عليها. وكانت الحكومة الروسية تعني القيصر، وهو شخص أحمق ضعيف تحيط به بطانة اختارها من الحمقى والمرائين والمحتالين والمخادعين، توجهه حسبما تريد، وتؤرجحه هنا وهناك.

ومع هذا فكان معلقا في يدي هذا الرجل مصير ملايين من الناس. لقد كان هو نفسه معارضا للحرب غير ميال للدخول فيها، ولكن مستشاريه خوفوه من نتائج التردد والتأخير وما زالوا به حتى وافق على تعبئة الجيش. وقد عنت هذه "التعبئة" استدعاء الجنود للخدمة العاملة، وكان طبيعيا أن تستغرق هذه العملية وقتا في قطر شاسع الأطراف كروسيا.

وربما كان الخوف من هجوم ألماني هو ما عجل بعملية التعبئة الروسية. وقد انزعجت المانيا لأنباء هذه التعبئة التي بدأت في ٣٠ يولية، ولهذا طالبت روسيا بضرورة ايقافها، ولكن ما كان يمكن وقتئذ ايقاف آلة الحرب الضخمة.

وفي اليوم الأول من شهر أغسطس عبأت المانيا قواها وأعلنت الحرب على كل من روسيا وفرنسا، وبدأت في الحال جيوش المانية تغزو بلجيكا لتنفذ منها الى فرنسا لسهولة هذا الطريق.

ومما لا شك فيهأن بلجيكا المسكينة لم تصب ألمانيا بأي ضرر أو أذى، ولكن الشعوب عندما تحارب من أجل الحياة والموت لا تبالي بالعهود والوعود.

لقد طلبت الحكومة الالمانية من بلجيكا أن تصرح لجيوشها بالمرور عبر أراضيها، ولكن بلجيكا بطبيعة الحال رفضت الاستجابة الى طلب المانيا في غيظ وغضب.

وقد قامت ضجة كبرى في انجلترة وغيرها بسبب الاعتداء على حياد بلجيكا، واتخذت انجلترة من هذا تكأة لاعلان الحرب ضد ألمانيا. وفي الواقع ان اختيار انجلترة كان قد تم منذ وقت طويل، أما موضوع بلجيكا فقد جاء كعذر مناسب.

ويبدو الآن أن الجيش الفرنسي أيضا كان قد أعد خططا في سنوات ما قبل الحرب لارسال جيوش فرنسية عبر بلجيكا لمهاجمة المانيا اذا ما استدعى الأمر ذلك.

على أية حال لقد حاولت انجلترة أن تصطنع موقف المدافع عن الحقيقة والحق، وموقف الحامي للشعوب الصغيرة من شر المانيا التي قيل أنها نقضت وعودها ومعاهداتها واعتبرتها "قصاصات من الورق"

وفي منتصف ليلة اليوم الرابع من شهر أغسطس أعلن انجلترة الحرب ضد ألمانيا، ولكنها كانت قد احتاطت فأرسلت سرا حملة من جيشها عبر القنال الانجليزي قبل اعلان الحرب بيوم واحد لتتفادي وقوع أي كارثة. وعلى هذا فبينما كان العالم يفكر فيما اذا كانت انجلترة ستدخل الحرب، أو لا تدخل، كانت فرق من جيشها قد احتلت مواقعها على القارة الأوربية.

وهكذا نرى النمسا، وروسيا، وفرنسا، وانجلترة قد اشتبكت في الحرب، كما اشتبكت فيها أيضا الصرب، هذه الدولة الصغرى التي كانت الى حد ما السبب المباشر لهذا الانفجار.

ولكن ماذا كان موقف ايطاليا، حليفة النمسا والمانيا؟ لقد وقفت ايطاليا بمعزل، وأخذت ايطاليا ترقب لترى مع أي جانب تكون المنفعة. وساومت ايطاليا، وأخيرا، وبعد ستة أشهر من بدء الحرب، انضمت ايطاليا نهائيا الى معسكر فرنسا وانجلترة وروسيا ضد حليفتيها القديمتين.

وهكذا شهدت الأيام الأولى من شهر أغسطس عام ١٩١٤ تجمع جيوش أوربا وزحفها. وماذا كانت هذه الجيوش؟ كانت الجيوش في العصور القديمة تتألف من عدد من الجنود المحترفين، وكانت جيوشا دائمة. ولكن الثورة الفرنسية، على أية حال، أحدثت تغييرا كبيرا. فعندما كانت الثورة في خطر من هجوم أجنبي، كان يدعى المواطنون العاديون ويدربون في أعداد كبيرة.

ومنذ ذلك التاريخ فصاعدا ظهر في أوربا اتجاه يرمي إلى أن يحل محل الجيوش المتطوعة المحترفة اقليلة العدد، جيوش أخرى تتألف من كل ذي جسم صحيح قوي في القطر، وهؤلاء تفرض عليهم الخدمة العسكرية اجباريا بحكم القانون. وعلى هذا فنظام الخدمة العسكرية الشائع اليوم، والذي يعتمد على ذوي الأجسام القوية السليمة هو ربيب الثورة الفرنسية.

وقد انتشر هذا النظام العسكري في أوربا، حيث كان على كل شاب أن يتلقى تدريبا عسكريا لسنتين أو أكثر في نعسكر ما ،وأن يقوم بواجب الخدمة العسكرية عندما يدعى اليها. وعلى هذا فأي جيش أثناء الحرب يعني في الغالب كل شباب الشعب.

وكان هذا النظام معمولا به في فرنسا والمانيا والنمسا وروسيا، والتعبئة في هذه الأقطار تعني استدعاء كل الرجال الشبان القادرين على حمل السلام من بيوتهم في المدن والقرى البعيدة.

ولم يكن في انجلترة خدمة عسكرية عامة من هذا النوع عندما نشبت الحرب. ولاعتمادها على أسطولها البحري القوي، كان لديها جيش صغير نسبيا من المتطوعين الدائمين. بيد أنها اضطرت أثناء الحرب الى أن تجاري الدول الأخرى، وتدخل على جيوشها نظام الخدمة العسكرية الاجبارية.

ونتيجة لهذه الخدمة العسكرية العامة كان الشعب كله مجندا. وقد تأثرت بقوانين التعبشة العامة كل مدينة، وكل قرية، وكل أسرة. وفي الجزء

الأكبر من أوربا توقفت الحياة فجأة في الأيام الأولى من شهر أغسطس، وهجر الرجال القادرون ملايين البيوت الى غير عودة. وكان في كل مكان تحرك، ووقع أقدام، وهتافات للجنود، ومظاهر من الحماسة الوطنية، وشد لأوتار القلوب وخفة روح، ذلك لأن أهوال السنين القادمة وفظائعها ما كانت لتدرك على حقيقتها وقتئذ.

فهذه الوطنية الحادة الجارفة اكتسحت كل شخص أمامها. فالاشتراكيون الذين كانوا ينادون بمبدأ المصالح المشتركة بين الشعوب، والمركسيون الذين دعوا عمال العالم للاتحاد ضد الرأسمالية عدوهم المشترك، وكل هؤلاء انضموا كوطنيين متحمسين الى هذه الحرب التي شنها الرأسماليون. وبعض هؤلاء ظلوا في موقفهم، ولكنهم كانوا يحقرون ويلعنون وكثيرا ما عوقبوا. وكثير من الناس ذهب بعقولهم الحقد على العدو.

وبينما يقتل العمال الانجليز والالمان بعضهم بعضا، كان المثقفون والعلماء ومفكرو هاتين الدولتين، وأمثالهم من أبناء الدول المتحاربة يلعن بعضهم بعضا، ويصدق كل منهم أبشع القصص عن الآخر.

وهكذا انتهى بظهور الحرب دور القرن التاسع عشر، وابتلعت فجأة دوامة الحرب نهر المدنية الغربية، هذا النهر الفياض الهادئ العظيم. لقد انتهت الدنيا القديمة الى الأبد، ثم تكتشف هذه الدوامة عن شئ جديد بعد حرب عالمية دامت أكثر من أربع سنوات.

١٤٨- حرب ١٩١٤ – ١٩١٨

٣١ مارس ١٩٣٣

ماذا أكتب اليك عن هه الحرب؟ ماذا أكتب اليك عن الحرب العالمية، أو الحرب العظمى، كما يسمونها؟ ماذا أكتب اليك عن تلك الحرب التي دامت أكثر من أربع سنوات منيت فيها أوربا وبعض بقاع آسيا وافريقية بالخراب والدمار، وراح ضحيتها ملايين من الرجال في ريعان شبابهم ؟

ان الحرب ليست موضوعا سارا شائقا يتملاه الانسان ويفكر فيه. انها شئ قبيح كريه، ولكن كثيرا ما نجد من يمجدها، ويصورها بألوان براقة خلابة.

ويقال: كما أن النار تصهر المعادن الكريمة وتطهرها وتقوى الشعوب الخائرة الكسلانة، الشعوب التي ران عليها الفساد والرخاوة لكثرة ما هي عليه من ترف وبذخ وحب للحياة. وهناك من يعدون أمثلة من صور الشجاعة الفائقة والتضحيات المؤثرة التي تجلت عنها الحروب، كأنما الحرب هي أصل هذه الفضائل.

لقد حاولت أن نتحرى معا بعض أسباب هذه الحرب: حاولت أن نتحرى كيف أن جشع بعض الأقطار الصناعية الرأسمالية، ومنافسات

الدول العظمى الاستعمارية اصطدم بعضها ببعض وجعل الحرب أمرا لا مفر منه. حاولنا أن نتحرى كيف أراد زعماء الصناعة في كل هذه الأقطار فرصا أكثر ومناطق أوسع للاستغلال، وكيف أراد رجال المال أن يضاعفوا من ثرائهم وغناهم، وكيف أراد صناع الاسلحة أرباحا فوق أرباح.

من أجل ذلك كله انغمس هؤلاء الناس في الحرب، وبأمرهم وأمر السياسيين الكبار الذين يمثلونهم طبقتهم هب شباب الشعوب يمسك بعضهم برقاب بعض.

على أن الغالبية العظمى من هؤلاء الشباب ومن العامة في الدول المتحاربة لم تعرف شيئا عن هذه الأسباب التي أدت الى الحرب. ولم يكن يهمهم في الحقيقة معرفة الأسباب ،وسواء انتهت الحرب بالنصر أو الهزيمة فانهم الخاسرون على كلتا الحالين.

لقد كانت الحرب العالمية لعبة الرجل الغني، ولم يلعبها بنفسه وانما لعبها بأرواح العامة من الناس ولاسيما الشبان منهم. وما كان يمكن لأي حرب أن تقوم اذا لم يعد عامة الناس ويهيأوا لخوضها.

وكما أخبرتك، كان في جميع الاقطار الأوربية خدمة عسكرية اجبارية، وفي انجلترة جاء ذلك متأخرا بعد قيام الحرب. ولكن لا يستطيع حتى الاجبار أن يكره الناس على أمر كهذا اذا كانوا في جملتهم غير مريدين له، ولهذا بذلت جهود جبارة في جميع الدول المتحاربة لالهاب حماسة الجماهير واذكاء حبهم للوطن. وأخذ كلا الجانبين

المتحاربين ينعت الآخر بأنه "المعتدي" ويدعي بأنه، إذ يحارب، انما يحارب دفاعا عن النفس فقط.

فألمانيا زعمت أنها مطوقة بطوق من الأعداء يحاولون خنقها واتهمت فرنسا وروسيا بالمبادأة بغزوها.

وانجلترة ادعت أنها دخلت الحرب للدفاع العادل عن بلجيكا الصغيرة التي اعتدت ألمانيا اعتداء صارحا على حيادها. وهكذا أوقفت كل دولة من الدول المشتبكة في الحرب موقفا عادلا في نظر نفسها وألقت باللائمة على عدوها.

وقد حاول الساسة في كل دولة أن يبلغوا بشعوبهم الى الاعتقاد بأن حريتهم في خطر، وأن عليهم أن يحاربوا دفاعا عن هذه الحرية. كذلك لعبت الصحافة دورا كبيرا في خلق جو الحرب هذا في كل مكان، وهذا بدوره ولد الحقد المرير في نفوس أبناء كل دولة على أعدائها.

وكانت موجة الجنون هذه قوية غاية القوة، حتى لقد اكتسحت كل شئ أمامها. ولم يكن سهلا عليها أن تستثير انفعالات الجماهير فحسب، وانما استثارت أيضا ذوي الطباع الهادئة رجالا ونساء من الكتاب والمفكرين والعلماء والأساتذة في كل الاقطار المتحاربة وملأتهم بشهوة الدم وبالحقد على شعوب الاعداء.

وكان رجال الدين الذين يفترض فيهم أنهم رجال سلام أشد من غيرهم تعطشا الى الدماء. حتى أعداء الحروب والاشتراكيون فقدوا

عقولهم ونسوا مبادئهم. لقد فقدوا فقدوا عقولهم، ولكن ليس كلهم تماما، فقد كان هناك قلة قليلة من الناس في كل قطر أبوا أن يجنوا وأن يسمحوا لأنفسهم بأن يصابوا بحمى الحرب هذه. لقد كانوا غرضا للهزء والسخرية، وكانوا يسمون بالجبناء، وكثيرون منهم زج بهم في السجون لرفضهم أداء أي خدمة حربية. وبعض هؤلاء كانوا اشتراكيين، وبعضهم كانوا رجال دين، كجماعة "الكويكرز" **Quakers** الذين تأبى ضمائرهم اجازة الحرب. وصدق من قال: ان الحرب عندما تندلع نيرانها يصاب جميع المشتبكين فيها بالجنون.

وقد اتخذت حكومات الدول المختلفة من اعلان الحرب تكأة لمنع الحقائق عن شعوبها، ولنشر كل أنواع الاكاذيب، وللحجر على حريات الافراد الشخصية. أما الجانب الآخر فقد كان، بطبيعة الحال، مجهولا تماما، فالناس ما كان يسمح لهم أن يعرفوا من القضية الا جانبا واحدا، مشوها مكذوبا الى حد كبير. وعلى الاجمال لم يكن من الصعب استغفال الناس على هذا النحو.

وقد خدعت الناس حتى في زمن السلم أكاذيب الصحافة والدعاية القومية الضيقة الأفق، وهيأت أذهانهم للحرب.

كذلك مجدت الحرب. ففي ألمانيا، أو على الأصح في بروسيا، أصبح تمجيد الحرب هذا هو الفلسفة المقررة للحكام من القيصر فما دونه. وليس هذا فحسب ،وانما ألفت كتب لتبرير الحرب والبرهنة على

أنها "ضوروة بيولوجية" بمعنى أنها ضرورة للحياة الانسانية والتقدم.

وكثيرا ما سلطت أضواء الدعاية المغرضة على قيصر ألمانيا لما كان يبند عنه من أقوال وأفكار فجة تدل على الصلف والتعاظم، ولكن أفكارا مماثلة لأفكار القيصر كانت تسود الدوائر العسكرية والطبقة العليا في انجلترة وغيرها من الأقطار.

والكاتب الانجليزي "رسكين" **Ruskin** يعد من كبار الكتاب الذين ظهروا في القرن التاسع عشر. وهو أحد المؤلفين الذين يفضلهم غاندي، وربما تكونين قد قرأت بعض كتبه. وقد قال هذا الرجل النبيل العقل بلا شك في أحد كتبه:

"لقد تبين لي على الاجمال، أن كل الشعوب الكبرى قد وعوا ما في كلماتهم من صدق، وما في أفكارهم من قوة ابان الحرب، وضيعوا ذلك في وقت السلم، وأن ما علمتهم الحرب اياه سلبه خداع السلم منهم، وأن ما اكتسبوه من مران بالحرب قد خانهم السلم فيه. وفي كلمة واحدة لقد ولدوا في الحرب وقضوا نحبهم في السلم".

"ذلك ما يجب على انجلترة أن تفعله أو يقضي عليها. يجب أن تبني مستعمرات لنفسها.. يجب أن تغتصب كل قطعة من الأرض مثمرة تستطيع أن تضع قدمها عليها.. وهناك يجب أن تعلم المستعمرين من أبنائها أن هدفهم في أن يعلوا سلطان انجلترة على الأرض وفوق البحار.."

ودعيني أقتبس لك هنا أيضا نبذة من كتاب ألفه ذابط الجيش الانجليزي. ففي هذا الكتاب يرى مؤلفه أن الانتصار في الحرب يكاد يكون مستحيلا "الا بالكذاب المتعمد وباستخدام الكذب والتلقين "..وبناء على رأيه ان أي مواطن" يرفض أن يعمل هذا.. انما يقوم متعمدا بدور الخائن لرفقائه ومرءوسيه، وأقل ما يمكن أن ينعت به هو أنه أكثر الجبناء الحقراء جبنا واحتقارا". ثم يقول: "وما قيمة الأخلاق أو عدم الأخلاق بالنسبة للشعوب الكبيرة اذا كان مصيرها معرضا للخطر؟ ان أي شعب يجب أن يضرب ويضرب حتى يتلقى خصمه الضربة القاضية على حياته ".

لست أدري ماذا كان يقول "رسكين" اذا سمع أو قرأ كل هذا؟ لا تظني أن هذا، طبعا، أنموذج عادل للعقل الانجليزي. ولا تظني أيضا أن أقوال القيصر الطنانة الجوفاء تمثل الالماني العادي. ولكن الارثة هي أن الناس الذين يفكرون كثيرا ما تكون في أيديهم مقاليد الحكم، وهؤلاء يكادون يتقدمون دائما الصفوف في أوقات الحرب.

ومثل هذه التصريحات والاعترافات الصريحة ليست في العادة مما يقال عنا جهارا، لأن الساسة يحاولون دائما أن يخلعوا على الحرب رداء القداسة.

وعلى هذا، بينما تشتعل نار مذبحة هائلة وقودها الرجال والنسا والأطفال، على جبهة قتال مساحتها مئات الأمال في أوربا وغيرها، كان الزعماء والساسة يصطنعون في الداخل عبارات بليغة رنانة لتبرير القتل وتضليل الشعوب.

كان الناس يسمعون مثل هذه العبارات :

انها حرب من أجل الحرية والشرف..

انها الحرب التي تنهي الحرب..

انها الحرب التي تنقذ الديمقراطية..

انها حرب تقرير المصير.. انها حرب من أجل حرية الشعوب الصغيرة.. الخ

والغريب أن كثيرين من رجال المال والصناعة والأسلحة ممن جلسوا آمنين في بيوتهم يرددون هذه العبارات اغراء للرجال على الالقاء بأنفسهم في أتون الحرب، كانوا قد حققوا لأنفسهم هم أرباحا طائلة، وصاروا من أرباب الملايين.

وقد حاول كلا المعسكرين المتحاربين أن يضم الى جانبه دولا محايدة برشوتها سرا. ولو أن عرض الرشوة هذه قدمت علنا لقضت على المثل العليا والعبارات البليغة التي كانت تتردد من أعلى الأماكن.

وكانت قدرة انجلترة وفرنسا على استخدام الرشوة أكثر من قدرة المانيا، ولهذا الدول المحايدة التي استدرجت الى الحرب بالرشوة انضمت الى جانب انجلترة وفرنسا وروسيا.

فحلف انجلترة استطاع أن يضم اليه ايطاليا حليفة المانيا القديمة بعقد معاهدة سرية معها وعدت فيها ايطاليا ببقاع في آسيا الصغرى وفي

جهات أخرى، كذلك عقدت معاهدة سرية أخرى مع روسيا وعدت فيها بالاستيلاد على القسطنطينية. ولا شكأن تقسيم العالم فيما بينهم على هذا النحو كان عملا سارا لهم!

والعجيب أن المعاهدات السرية كانت تتعارض تمام المعارضة مع التصريحات التي كان يدلي بها علانية زعماء الحلفاء وساستهم. ولو لم ينشر بلاشفة الروس هذه المعاهدات بعد توليهم مقاليد الحكم في روسيا، لما كان من الممكن لأحد أن يعرف شيئا عن أمر هذه المعاهدات.

وقد انتهى الأمر الى أن يكون هناك اثنتا عشرة دولة أو أكثر تحارب على جانب الحلفاء. وعلى سبيل الاختصار دعينا نطلق منذ الآن على المعسكر الانجليزي الفرنسي اسم "الحلفاء".

وهذه الدول هي: بريطانيا وامبراطوريتها، وفرنسا، وروسيا، وايطاليا، والولايات المتحدة، وبلجيكا، والصرب، واليابات، والصين، ورومانيا ،واليونان، والبرتغال. وربما كان هناك دولتان أخريان لا أذكر اسمهما الآن.

وعلىالجانب الألماني كان هناك المانيا، والنمسا، وتركيا، وبلغاريا.

وقد دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في سنتها الثالثة. فاذا استثنينا الولايات المتحدة مؤقتا، كان من الواضح أن موارد الحلفاء أكثر بكثير من موارد الجانب الالماني، فالحلفاء كانوا أكثر رجالا، وأكثر مالا، وكانت مصانع أسلحتهم وذخيرتهم أكثر عددا. وفوق كل هذا كان لهم السيادة على البحار، وهذا بدوره يسر لهم فرص الافادة من موارد العالم المحايد.

لهذا كا في استطاعة الحلفاء أن يحصلوا على الأسلحة أو المواد الغذائية، وأن يقترضوا من أمريكا، بفضل سيادتهم البحرية.

أما المانيا وحلفاؤها فقد أطبق عليهم الأعداء وطوقوهم. وكان حلفاء المانيا شعوبا ضعيفة، ومن ثم كانت مساعداتهم لها مساعدة ضئيلة لا تكاد تذكر. وكثيرا ما كانوا عبئا ثقيلا عليها، وبدل أن يضيفوا الى قوتها كانت تشد هي من أزرهم وتعينهم.

من ذلك نرى أن ألمانيا كانت تقف وحدها تقريبا في المدن ضد معظم شعوب العالم. ومع أن هذا الصراع يبدو من جميع وجهات النظر صراعا فير متكافئ، فان المانيا وقفت أمام العالم أربع سنوات وكادت أكثر من مرة أن تنتصر.

لقد كان ذلك مجهودا عجيبا بالنسبة لشعب واحد، ولكن الفضل في صمود المانيا كل هذا الصمود يرجع إلى ما بنته لنفسها من قوة عسكرية هائلة. حتى عندما هزمت المانيا هي وحلفاؤها نهائيا كان الجيش الألماني لا يزال سليما، وكانت معظم وحداته لا تزال محتلة مواقعها في أقطار أجنبية.

أما على جانب الحلفاء فقد وقع عبء الحرب على الجيش الفرنسي. والفرنسيون هم الذين وقفوا أمام قوة المانيا العسكرية على حساب تضحيات جسيمة هائلة في الشباب، وقد تمثلت مساهمة انجلترة في أسطولها وقوتها البحرية، وفي سياستها ودعايتها.

أما المانيا المعجبة المدلة بجيشها فكانت سياستها مع الدول المحايدة وأساليب دعايتها بينهم أبعد ما تكون عن الحذق والمهارة.

ولا شك أن انجلترة هي الدولة الوحيدة التي حازت قصب السبق من بين جميع الدول في احكام دعاية الكذب وتشويه الحقائق أثناء الحرب.

وكان دور روسيا وايطاليا وغيرهما من دول الحلفاء الأخرى في الحرب لا يعدو دورا صغيرا نسبيا. ومع ذلك فربما كانت خسائر روسيا في الحرب أكثر من خسائر أي دولة أخرى.

أما الولايات المتحدة الأمريكية التي دخلت الحرب قرب نهايتها فقد قامت بالدور النهائي الفاصل في تحطيم المانيا.

وفي الأشهر الأولى من بدء الحرب حدث توتر شديد في العلاقات بين انجلترة وأمريكا لدرجة كان يخشى معها من وقوع حرب بينهما وقد نجم هذا الخلاف بسبب تدخل انجلترة في سفن أمريكا بحجة الاشتباه في أنها تحمل سلعا وبضائع الى المانيا ولكن سرعان ما نشطت أجهزة الدعايو البريطانية، وبذلك جهودا جبارة لا في تخفيف حدة التوتر القائم بين البلدين فحسب، بل في كسب أمريكا أيضا في صفوف الحلفاء.

وكان أول ما عمل في هذا السبيل هو حملة دعاية معادية للتشهير بألمانيا، ونشر قصص فظيعة عما كان يفعله الجيش الألماني المتوحش في بلجيكا.

وبعض هذه القصص كان له نصيب من الصحة، كقصة تخريب مكتبة وجامعة "لوفان"، ولكن معظم هذه القصص لم تخرج عن كونها مجرد اختراعات وتلفيقات. وكانت هناك قصة غريبة عن مصنع للجثث قيل أن الالمان كانوا يديرونه! ومع ذلك فقدبلغ حقد الشعوب المتعادية بعضها على بعض حدا جعلهم على استعداد لتصديق كل ما يقال عن أعدائهم.

وتستطيعين أن تكوني فكرة عن مدى ضخامة الدعاية البريطانية عندما أخبرك أن بعثة الحرب الى امريكا تألفت من خمسمائة من الموظفين الرسميين، وعشرة آلاف مساعد! وبجانب هذا قام آخرون بضروب من النشاط غير رسمية. وقد استخدمت كل الوسائل، شريفة أو غير شريفة، في هذه الدعاية. وفي استكهلم عاصمة السويد افتتح البريطانيون رسميا صالة رقص للترفيه كي يظفروا بعطف السويديين !

وقد نجحت هذه الدعاية، كما نجح نشاط الغواصات الالمانية في استمالة أمريكا الى جانب الحلفاء. ولكن العامل الفاصل في النهاية كان هو المال.

ان الحرب تكاليفها باهظة.. باهظة جدا. فهي تبتلع جبالا من المواد الغالية الثمينة، ولا تعطي شيئا في مقابل ذلك غير الخراب والدمار. وهي تعطل ضروب النشاط التي تنتج الغنى والثراء والرخاء. كما تركز جهود الناس على التدمير والابادة والافناء.

فمن أين كان يأتي كل هذا المال ؟

اذا نظرنا الى جانب الحلفاء نرى دولتين غنيتين، هما انجلترة وفرنسا. فهاتان لم تدفعا حصتهما في تكاليف الحرب فقط، وانما عاونتا حلفاءهما أيضا باقراضهم المال والعتاد.

على أن موارد فرنسا المالية لم تمكنها من المضي في تحمل أعباء الحرب ونفقاتها. ولهذا مولت لندن وحدها الجانب الحرب للحلفاء، ولكن لم تكد السنة الثانية من الحرب تنتهي حتى وجدت انجلترة نفسها في نفس المأزق. وقبيل نهاية عام ١٩١٦ كانت الموارد المالية لكل من انجلترة وفرنسا قد نضبت واستنزفت.

عندئذ سافرت الى أمريكا بعثة انجليزية من بعض كبار الساسة الانجليز لتلتمس العون المالي. وقد وافقت أمريكا على اقراض المال، وبذلك أخذت أمريكا على عاتقها عبء تمويل الحرب معونة منها للحلفاء.

وقد بلغت ديون الحلفاء لأمريكا أرقاما هائلة، وأخذت هذه الديون تتضاعف على مر الأيام، وكان ذلك سببا في أن المصاريف الكبرى ورجال المال في أمريكا ممن أقرضوا الحلفاء أخذوا يهتمون بأمر انتصار الحلفاء. وكان طبيعيا أن يظهر الاهتمام منهم، اذ ماذا كان يكون مصر الأموال الطائلة التي أقرضتها أمريكا للحلفاء اذا هزمتهم المانيا؟ ان جيوب رجال المصارف الأمريكية كانت قد تأثرت، ولهذا أخذ اهتمامهم

بالحرب يزداد صيانة لمصالحهم. ومن أجل هذه المصالح نشطت الدعاية التي تحبذ انضمام أمريكا الى الحلفاء حتى دخلت أمريكا الحرب في النهاية.

ونحن نسمع الآن كثيرا عن موضوع الدين الذي لأمريكا لدى الحلفاء، والصحف مليئة بأخباره. فهذا الدين المعلق حول رقبتي انجلترة وفرنسا كحجر الطاحون، والذي لا تستطيعان دفعه وأداءه، قد تراكم عليهما في أيام الحرب.

فلو لم تظهر هذه الأموال الأمريكية وتخف لنجدة نجلترة وفرنسا ابان الحرب، لكان من المحقق أن تنهار مالية هاتين الدولتين انهيارا تاما. ومن يدري فلعل أمريكا وقتئذ كانت لم تدخل الحرب، ولم تنضم الى الحلفاء.

الفهرس